بلاغة العرب فى الأندلس

تأليف

أحمد ضيف

الاستاذ بالجامعة المصرية

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤٢ هـ — سنة ١٩٢٤ م

مطبعة مصر . شركة مساهمة مصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كانوا ولا يزالون يعتبرون الأدب ضربا من الفكاهة والتسلية. ويريدون بالادب نادرة ظريفة ، أو عبارة طريفة ، أو حكمة بليغة ، أو بيت شعر يملك النفس ، ويسحر اللب بتركيبه البليغ وألفاظه الفصيحة . ويقولون فلان أديب : لانه كثير النادرة ، حاضر الذاكرة ، واسع الاطلاع ، أنيس الجليس ، عذب الحديث ، حافظ راوية . ويقولون هذا كتاب أدب : لانه جامع لكثير من مسائل اللغة وقواعدها ، والشعر وأنواعه ، والنوادر الخاصة والعامة ، وتواريخ الملوك والامم. ويقولون فلان كاتب : لانه طلق العبارة ، عارف باختيار الالفاظ ، عالم بكثير من المترادفات ، تنقاد اليه البلاغة انقيادا ، فيصور الحق باطلا ، ويجعل الباطل حقا.

ولكن الادب نتائج العقول والقرائح البشرية ، وقوة الفكر والادراك الانسانى التى تنفتق بها ألسنة الشعراء ، وتسيل بها أقلام الكتاب ، فيفيضون على العالم من أحوال الاجتماع وصوره ، وأسرار النفوس وخفايا الوجود ما يملأ النفس عظة واعجابا ، بصحيح الآراء ، وجمال الافتنان ، ويمتازون عن العامة من الكتاب والمفكرين بدقة الادراك ، وتصوير المعانى النفسية والاجتماعية تصويرا يقرب من أن يكون مدركا بالحواس .

ان البلاغة - أو الادب كما يقولون - هى خلاصة كد العقول والافهام ، وثمرة هذا الاضطراب الفكرى الذى ما برح دليلا على قوة الادراك وحياة النفوس العاقلة . والغرض من الكتابة البليغة أن يجعل الكاتب أو الشاعر الالفاظ وسيلة من وسائل التعبير عن لحظة من لحظات الحياة لا يكتفى أن يدركها عقله ادراكا

ثم يتركها تمر ولا تعود ، ولكنه يحرص عليها ويحيطها بعبارات تكشف عن أسرارها وتبين حقيقتها . قال أحد كبار نقاد الادب « ليست الحياة الآن لهواً أو لعبا ، ولكنها نوع من المسابقة والمباراة . ذلك الى أننا جميعاً مضطرون الى ابداء آرائنا فى الدين والفلسفة والسياسة والفنون والاجتماع . اذ على كل واحد منا أن يكون مخترعا أو آخذا طريق غيره . والاختراع صعب المنال ، والتقليد مخجل مؤلم. ليست الحياة دار مسامرة ، ولكنها معمل فكر وجد . أتظن ان معملا كيميائياً يكون من دواعى السرور ؟ أو ان ميدان مسابقة يكون من أسباب الراحة ؟ لقد تكون فيه الوجوه مقطبة ، والعيون متعبة ، والجبهة فى حيرة والخدود شاحبة [1] »

والحق أن حركات العقول والادراك ليس لها أن تظهر الا على أقلام الكتاب وألسنة الشعراء . ليس الأدب من دواعى اللهو ، وانما هو من دواعى الأعجاب والعبرة . أما العبرة فلما به من آراء الكتاب والشعراء المحتوية على كثير من صور الانسان وحالات الاجتماع . وأما الجمال فهو من أخص لوازم الادب ، لانه من فنونه ، ولان الكتابة لا تدخل فى باب الادب أو البلاغة حتى تملك الحواس وتأسر العقول بما فيها من جمال التعبير وحسن الاسلوب والافتنان فى العبارة ، وحتى يكون صاحبها من أصحاب المواهب الفنية ، والملاحظات الدقيقة ، والابداع المطلق .

بهذا يمكن أن يكون الادب شيئاً من جمال الحياة وأثراً من آثار العقول ، ومعرضاً لصور النفوس والادراك الانسانى ، وفنا من فنون الجمال ، ودليلا على الحياة العقلية . فهو أكثر الاشياء انتشارا فى الحياة ومن ألصق الاشياء بالاجتماع . لانه كل هذه الأحاديث التى فى المجالس الخاصة والعامة ، والمسامرات من جد وهزل وأسرار الناس وخفايا ما يمر بين الرجل وأهله وولده وصديقه ، وما يتحدث به عن نفسه ، وما يحدثه به ضميره ، وما يمر بذاكرته ، وما يوقظ منه حب الاستطلاع . فليس أدل على الحياة من الأدب .

قد تستغنى بعض الامم عن سماع الموسيقى ، وربما لا تدرك جمال التصوير .

---

(1). Voir St Beuve. Causerie de lundi T. 13. P. 250

ولكن أمة من الامم لا تعيش بدون أن تعبر عن ادراكها ، ولا بغير أن تبث عواطفها واحساساتها ، ولا من غير أن تتغنى بآلامها واحزانها وحظها من الحياة أو آرائها فى الوجود

يجب أن يفهم جمهور الناس أن الغرض من قراءة قصيدة بليغة أو قصة أنيقة هو ادراك معانيها النفسية والاجتماعية . ويجب مع هذا أن يسلك كتابنا وشعراؤنا طريقاً غير هذا الطريق الذى سارت فيه آدابنا زمناً طويلا فلم تتقدم خطوة واحدة ، ولم تسلك مسلكا نافعاً ، ولم تفد الاجتماع شيئاً كثيراً ، يجب على شعرائنا وكتابنا طرق الموضوعات الاجتماعية العامة لنقدها فى كتاباتهم ، والعمل على اصلاحها ، وارشاد الناس الى طريق الخير . وذلك لا يكون الا بكتابة القصص الاجتماعية ، والخروج من هذه الصبغة الشخصية الوجدانية ، التى لا يرى القارىء فيها غير نفس الكاتب أو الشاعر ، وقد تكون نفسا مريضة مملوءة بالخطأ والنظر القاصر .

ان أسلوب القصائد المعروف عندنا لم يعد صالحا لحالتنا الاجتماعية ، ولا لنفوسنا التى تهذبت بشىء من العلم الصحيح ، والنظر فى حياة الامم المختلفة . هذه النفوس لا تطمئن الآن الى قراءة قصيدة ليس فيها غير الوزن المرقص والقافية المنمقة . لانه لا يطربها هذا الصوت القديم ، ولا تلك الحكم البالية المحفوظة التى ذهبت بجدتها الالسن لكثرة مرورها على الأفواه والاذهان .

ان الواجب على أصحاب البيان وذوى اللسن أن يشتغلوا بوصف الاجتماع وتصوير النفوس ، وأن يتركوا ضخامة اللفظ وعذوبة المعنى ـ كما يقولون ـ وأنواع البديع ، ويعلموا أن الحياة جد لا هزل ، وأن الناس أحوج الى ملاحظاتهم النفسية والاجتماعية منهم الى العبث بالألفاظ والبراعة فى التشبيه .

هذا ما ندعو اليه ويدعو اليه كل عامل على ترقية اللغة العربية وآدابها . ويجب مع هذا أيضاً أن يعنى المؤلفون والادباء ببيان ما فى بلاغة العرب ، من نثر ونظم وما فى ذلك من الافكار العامة والمسائل الاجتماعية التى لا تخلو من معرفتها الشعراء

والكتاب، والتي هي نتائج العقول والقرائح وسبب حياة الأدب وبلاغات الامم.
وهذا ما حاولناه في الكلام على بلاغة العرب في الاندلس في هذا الكتاب

كان لعرب الاندلس أدب رائع، وشعر بليغ، ونثر بديع، وسعة في الخيال، وقدرة على الابتكار . وكانت دولة الادب هناك في عز مجدها وأزهى عصورها، وساحاته غاصة بالشعراء والكتاب في كل فن من فنون البيان، أو مذهب من مذاهب البلاغة . « من عجائب علمهم وغرائب نظمهم ونثرهم مما هو أحلى من مناجاة الأحبة بين التمنع والرقبة، وأشهى من معاطاة العقار، على نغمات المزاهر والاوتار لأن رؤساء هذه الجزيرة كانوا رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة. ترفقوا فآنسوا البحر واسترقوا فأدركوا الشمس بالبدر . وذهب كلامهم بين رقة الهواء وجزالة الصخرة الصماء [1] »

«فالاندلس عراق المغرب عزة انساب ورقة آداب واشتغالا بفنون العلم وافتنانا في المنثور والمنظوم، لم تضق لهم في ذلك ساحة، ولا قصرت عنه راحة . . . وهم أشعر الناس فيما كثره الله في بلادهم وجعله نصب أعينهم، من الاشجار والانهار والاطيار، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن . . . وأما اذا هب نسيم. ودار كاس في كف ظبي رخيم . وصفق للماء خرير . أو راقت العشية وخلفت السحب ابرادها الفضية والذهبية . أو تبسم عن شعاع ثغر نهر، أو ترقرق بطل جفن زهر . أو خفق بارق . أو وصل طيف طارق. أو وعد حبيب فزار من الظلماء تحت جناح، وبات مع من يهوى كالماء والراح ... فؤلئك هم السابقون الذين لا يجارون ولا يلحقون. وليسوا مقصرين بالوصف اذا تقعقع السلاح، وسالت خلجان الصوارم بين خلجان الرماح . وبنت الحرب من العجاج سماء . واطلعت شبه النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء ... وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية . وبقاعهم النضرة وهممهم الابية ... الخ [2] »

---

(١) راجع خطبة ابن بسام في الجزء الاول من الذخيرة
(٢) راجع نفح الطيب طبع أوروبا جزء ٢ صفحة ١٠٧

فكان لهؤلاء الكتاب والشعراء أثر عظيم فى اللغة العربية وآدابها، ولاسيما ما ابتكروه من أنواع المعانى والخيال فى النظم والنثر

لذلك رأينا أن نذكر هنا شيئاً من هذا . وبدأنا كلامنا بفصول موجزة عن تاريخ العرب وحضارتهم فى الاندلس، حتى لايحرم من لايريد أن يكلف نفسه الاطلاع على ذلك من أن يستفيد من هذا الايجاز

ولكننا لم نقصد من هذا الكتاب أن يكون تاريخا جامعا لأدب العرب وبلاغتهم فى الاندلس، ذلك لم يكن من غرضنا الآن . وانما أردنا أن نجمع طائفة قليلة من الشعراء والكتاب المعروفين هناك، ونورد شيئا من منظومهم ومنثورهم ونتكلم عما لهم من الآثار الفنية فى شعرهم ونثرهم، لنفتح على طلاب الأدب وتلاميذ المدارس بابا من أبواب الفهم والبحث فى بلاغة العرب . فاذا وفقنا الله الى العودة فى هذا الموضوع كانت لنا جولة أوسع من هذه . والله المسئول أن يرشدنا الى الصواب .

القاهرة فى ذى القعدة سنة ١٣٤٢ الموافق شهر يونيه سنة ١٩٢٤

احمد ضيف

المصادر الادبية والتاريخية للاندلس

نفح الطيب للمقرى (طبع مصر وليدن)

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (طبع ليدن)

البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (طبع ليدن)

الاحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (طبع مصر)

أخبار مجموعة فى فتح الاندلس وذكر امرائها والحروب الواقعة بينهم (طبع مجريط)

الجزء الثانى والعشرين من كتاب نهاية الارب فى فنون الادب للنويرى وفيه أخبار ملوك الاندلس من العلويين والامويين ومن ملك بعد بنى أمية الى حين انقراض الدولة العبادية (طبع غرناطة)

الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع مصر)

مقدمة ابن خلدون

تاريخ مسلمى اسبانيا لدوزى (طبع باريز .)

Dozy. Histoire des Musulmans d'Espagne. Paris.

تاريخ العرب والمغاربة فى اسبانيا والبرتغال لكونده (طبع باريز)

J. Cond. Histoire de la dominatian des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal.

تاريخ العرب العام لسيديو (طبع باريز)

Seddillot. Histoire générale des Arabes. Paris.

تاريخ العرب لهوار (طبع باريز)

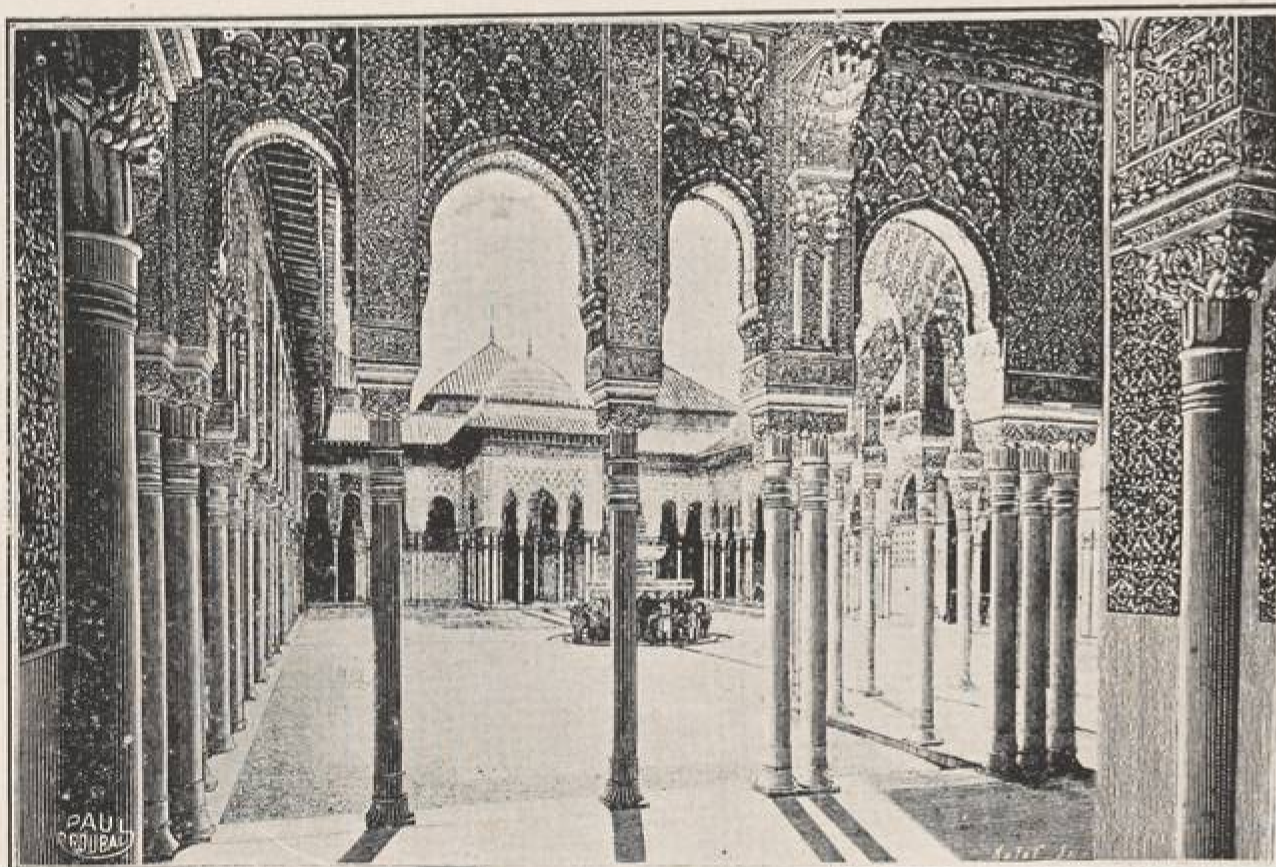
C. Huart. Histoire des Arabes. Paris.

Recherche sur l'histoire et la littérature arabe en Espagne. 2 Volumes Par Dozy.

Histoire des Arabes et des Maures d'Espagne. Par Louis Viardot. 2 Vols. Paris 1851.

Encyclopédie de l'Islam.

ديوان ابن قزمان (نسخة مأخوذة بالفتوغرافية بدار الكتب المصرية عن نسخة فى مكتبة بطرسبورغ)



صحن السباع بقصر الحمراء

بحث فى حياة ابن زيدون لاوغست كور (طبع الجزائر)
Auguste Cour. Ibn Zaidoun. Alger.

طبقات الامم لصاعد الاندلسى (طبع بيروت ومصر)

قلائد العقيان للفتح بن خاقان (طبع مصر)

مطمح الانفس للفتح بن خاقان (طبع الاستانة)

الذخيرة فى شعراء الجزيرة لابن بسام (مخطوط) منه جزآن فى دار الكتب المصرية والجزء الثالث فى مكتبة برلين والرابع مفقود)

ديوان ابن حمديس الصقلى (طبع رومة)

الحلة السيراء لابن الابار (طبع ليدن)

المكتبة العربية الاندلسية وهى الصلة لابن بشكوال فى جزئين وبغية الملتمس للضبى والمعجم لابن الابار والتكملة لكتاب الصلة لابن ألابار و تكملة التكملة لابن الابار (طبع مجريط) وتاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى وفهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين فى ضروب العلم وانواع المعارف أبو بكر بن خليفة الاموى الاشبيلى نشرها المستشرقان الاسبانيان كوديرا وريبرا (طبع مجريط)
F. Codera et j. Ribera Bibliotheca Arabi-co Hispana.

المكتبة العربية الصقلية لميشيل آمارى (طبع ليبسيك)
M. Amari Bibliotheca Arabo-Sicula (Leipzig).

قصيدة ابن عبدون وشرحها لابن بدرون (طبع ليدن)

ترجمة بن عباد (طبع ليدن)

دار الطراز فى الموشحات لابن سناء الملك (من مخطوطات دار الكتب المصرية)

تاريخ الادب العربى تأليف نيكلسون
A Literary History of the Arabs By Nichelson.

العرب فى الاندلس

ظهر الاسلام فى العرب فانتشروا فى الأرض وأوغلوا فى الفتح واختراق الآفاق، وانسابوا فى البلاد وانساب عليهم الظفر والغنائم. فوجدوا فى ذلك مطمعاً لهم، وسعة لدولتهم، وعونا لدينهم، وعزاً لمجدهم. ففتحوا فى نحو ثلاثة قرون مالم تصل اليه أكبر دولة فى العالم.

وقد خرج العرب من بلادهم الى مصر فالقيروان فبلاد البربر فالاندلس. فأسسوا هناك دولة واسعة الارجاء، كانت أعظم دولة أقامها العرب، وأنخر مدنية جاء بها الاسلام! توغل المسلمون فى افريقية سنة ٥٠ من الهجرة فى خلافة معاوية ابن أبى سفيان، بقيادة عقبة بن نافع الذى أسس مدينة القيروان. وانتشروا فى بلاد البربر شمال افريقية فاسلم سكانها. وفى سنة ٨٢ عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموى الى موسى بن نصير بولاية افريقية. فنزل القيروان وأخضع قبائل البربر. ثم سار الى طنجة وفتحها. فدانت لسلطانه جميع هذه البلاد، وأسلم أهلها ومنهم أهل طنجة. وترك موسى بن نصير جنده تحت قيادة مولاه طارق بن زياد. ثم تطلع الى فتح اسبانيا، لما علم من ضعف أهلها واضطراب حالها. فاستأذن الخليفة فى ذلك، ونزل الشواطىء فى سنة ٩١ هـ، وفى سنة ٩٢ عبر طارق بن زياد البحر مع جنوده، ونزلوا الجبل المسمى الآن باسمه. وانتشروا فى بلاد الأندلس انتشاراً عظيما. ولما استقرت قدمهم هناك نزح اليها العرب من كل بطن وقبيلة، من عدنانيين وقحطانيين وغيرهم. فمن العدنانيين القرشيون والهاشميون الذين كانت منهم دولة بنى حمود. ومنهم المخزوميون الذين منهم أبو بكر المخزومى الشاعر الأعمى المشهور، والوزير ابن زيدون. ومن بينهم الفهريون، ومنهم عبد الرحمن الفهرى الذى غلبه على أمره، وأخذ منه الملك عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة بنى أمية بالاندلس. اما القحطانيون أو اليمنيون فكانوا أكثر

انتشارا . ومن قبائلهم كهلان . ومنها محمد بن هانىء الشاعر المشهور ، ومنهم الازد ومنهم الجم الغفير بالاندلس[١] ورحل الى الاندلس أيضاً كثير من أهل مصر والشأم والعراق . كما عبر اليها من مراكش وشمال افريقية جماعة من البربر . واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين ، من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة ، وجمعهم الاسلام فكانوا أمة واحدة . ولكن هذه الأمم لم يكد يجتمع أمرها حتى دب فيها دبيب التنازع . وكانت العصبية العربية فى أشد ما تكون . فقام النزاع والخصام بينهم وأيقظوا الفتن القديمة النائمة . ودارت رحى الحرب بين اليمنيين والمضريين ، وتنافسوا فى الملك ، حتى أدى ذلك الى انقسام الامارة فيهم وادالتها بين الجندين سنة لكل دولة .[٢] وكان خلفاء بنى أمية بعد ذلك يستعينون ببعض القبائل على بعض تأييدا لملكهم ، ويميلون الى اليمنيين الذين نصروهم فى واقعة مرج راهط . فكان انقسام العرب منذ وطئت أقدامهم هذه البلاد .[٣] وقد دامت هذه الفتن مدة وجود الدول الاسلامية فى بلاد الاندلس ، حتى قيل : ليست هناك بقعة من أرض الاندلس الا رَويت بدماء المسلمين . ولم يكد يخلو يوم من الأيام التى خفقت فيها راية الاسلام هناك من حرب أو شجار بين المسلمين والمسيحيين واليهود ، أو بين بعض المسلمين وبعض

مع هذا فقد كان لدول المسلمين عصور ذهبية ، وأيام زاهرة ، أثمرت فيها قرائحهم وجهودهم . وظهر فيها صفاء عقولهم وميلهم الفطرى للرقى ، حتى أصبحوا قواد العالم واساتذة المعمورة . وربما كان ذلك التنافس فى الملك من أسباب رقى تلك البلاد . لان كل امير او خليفة كان يريد ان يوطد ملكه بنشر العلوم والمعارف . ولا سيما ان العباسيين كانت مدنيتهم ازهرت فى بغداد ، فارادوا ان يجاروهم فى قرطبة ، ويظهروا عليهم فيما كان لهم من الفضل . هذا الى ما كان عليه

---

١ راجع الباب الثانى من نفح الطيب

٢ انظر الجزء الاول من تاريخ المسلمين فى أسبانيا تأليف دوزى صحيفة ٢٥٢ وتاريخ ابن خلدون جزء ٤ صحيفه ١٢٠

٣ راجع الفصل الحادى عشر من الجزء الاول من كتاب دوزى المذكور

العربى من ميله للعلم ونشره ، لأنه كان يرى فى ذلك نشر المدنية على بديه ، وهذه وسيلة من وسائل الفخر والاعجاب اللذين هما من اكبر مظاهر الاخلاق العربية . ولقد كان مَثَلُ الأُمة العربية مَثَل النائم المستغرق فى نومه ، فاذا استيقظ كانت يقظته يقظة النشيط المجد .

ولما دخل العرب الاندلس ادخلوا معهم بلاغتهم ولغتهم التى كانت من اكبر مظاهر الفنون لديهم ، فتبعت اول خطوة خطاها اكبر قوادهم فاتح هذه البلاد طارق بن زياد . وأول مظاهر تلك البلاغة العربية الخطبة الحماسية الشهيرة لهذا الفاتح العظيم ، التى تدل على رسوخ ملكة البيان فى القواد ، وخبرتهم بالقيادة ونفوس الجند ، وكيفية امتلاكها بالرهبة احيانا والرغبة تارة ، وبث الأمل فى نفوسهم باكتساب الغنيمة وانتظار الاجر من الله ، وان القائد بلسانه كالقائد بسيفه وسنانه . قالها طارق بن زياد وهو قادم على عدو اكثر منه عددا وعُدَّة ، لانه دخل الاندلس ومعه اثنا عشر الف رجل ارهب بهم سبعين الفا من الاعداء

وهذه الخطبة هى اول ريح هبت على تلك البلاد معطرة ببلاغة العرب . واول كلام بليغ عبر عبيره هناك . بل اول تاريخ البلاغة العربية . ولم تكن بلاغتها فى الاسلوب وحده ، بل فى الحماسة والشجاعة اللتين كانتا من طبع العربى . وهى من نوع الكلام الذى يوحى به حب الجهاد ، والرغبة فى نيل الاجر الدنيوى والاخروى معا ، ويذكر الجيوش بمفخرة النصر على العدو ، أو الموت فى سبيل الدفاع عن الحوزة ونشر الدين . وفيها من ضروب الاستبسال والترغيب فى القتال ما لا يكون الا من قلب حديد وقائد عظيم مجرب [١]

---

١ وهذه هى خطبة طارق بن زياد :

ايها الناس . اين المفر . البحر وراءكم . والعدو امامكم . وليس لكم والله لا الصدق والصبر . واعلموا انكم فى هذه الجزيرة اضيع من الايتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه واسلحته واقواته موفورة . وانتم لاوزر لكم الا سيوفكم . ولا اقوات الا ما تستخلصونه من ايدى عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراة عليكم . فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد القت به اليكم مدينته

هذا وقد كان للمسلمين هناك عصور تاريخية وعصور أدبية . أما العصور التاريخية فقد بدأت بعصر الامراء منذ الفتح الى سنة (١٣٨) . تولى الامر فيها عشرون اميرا كانت مدتهم ستة واربعين عاماً (٩٢ ـ ١٣٨) . وكانت هذه الامارات تابعة للخلفاء في المشرق زمن الامويين والعباسيين. ولكن هذا العصر كان عصر اضطراب وشجار لا ينقطعان . ولما علم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الاموى بما هناك من المنافسة بين اليمنيين والمضريين ، وكان قد فر من ظلم ابي جعفر المنصور الذي نكّل ببني مروان ، التجأ الى بلاد البربر وذهب الى الاندلس مع جماعة من أتباعه ، واسس هناك دولة بني امية سنة ١٣٨ واستتب له الملك سنة ١٤١ هـ واستولى على قرطبة بمساعدة اليمانيين ، فتأسست دولة بني امية التي كان عصرها من ازهى عصور العلم والادب والحضارة بجميع انواعها. وبقيت هذه الدولة ٢٨٤ سنة (الى سنة ٤٢٢ هـ) تولى الملك فيها ١٩ خليفة . وقد بلغت الدولة ذروة مجدها في زمن عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠) ودامت مع الدولة العباسية بالمشرق . فكان نور المدنية

الحصينة . وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت . واني لم احذركم أمرا انا عنه بنجوة . ولا حملتكم على خطة ارخص متاع فيها النفوس . ابدأ منها بنفسي واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي . فما حظكم فيه باوفر من حظي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدر والمرجان . والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات في قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا . ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان . ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على مايكون لكم ذكرا في الدارين . واعلموا اني اول مجيب الى ما دعوتكم اليه . واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله انشاء الله تعالى . فاحملوا معي فان هلكت بعده فقد كفيتكم امره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم اليه . وان هلكت قبل وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون (نفح الطيب طبع اروبا جزء ا صحيفة ١٥٠

الاسلامية يسطع من المشرق والمغرب معا. فان عبد الرحمن الداخل عاش من عصر ابى جعفر المنصور الى زمن هرون الرشيد (١٣٢ ـ ١٨٢) وكان الحكم بن هشام معاصراً للمأمون (١٨٠ ـ ٢٠٦) فكانت الدولتان تتسابقان فى ميدان العلوم والحضارة. وكانت قرطبة وبغداد كعبتى العلماء ومنبعى العلوم والفنون .

وبعد زوال دولة بنى امية انقسم الناس احزاباً وشيعاً. فكانت هناك ممالك كثيرة مستقلة سموا ملوكها بملوك الطوائف . فقام ابن عباد فى اشبيلية . وابن الأفطس فى بطليوس. وذو النون بطليطلة. وابن هود بسرقسطة الخ. وبقيت الحال كذلك كانت البلاد فيها اكثر ما تكون اضطراباً[1]

مع هذا فقد كان لملوك الطوائف ميل عظيم للعلوم . فكان ابن الافطس الملقب بالمظفر احرص الناس على جمع علوم الادب خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادر الاخبار وعيون التاريخ . انتخب له مما اجتمع من ذلك كتاب كبير ترجم باسمه (المظفرى) كان يقع فى نحو ٥٠ مجلداً . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر . قالوا: وكانت ايام بنى المظفر اعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لاهل الادب. وفيهم قال الوزير الكاتب ابو محمد عبد المجيد بن عبدون قصيدته الشهيرة. وكان بنو هود ملوك سرقسطه وما يليها من أهل العلم وانصاره. فقد كان المؤتمن بن المقتدر بالله قائماً على العلوم الرياضية وله فيها تواليف. منها كتاب «الاستكمال والمناظر» ومن اشهرهم ابو القاسم المعتمد على الله بن عباد، كان شاعراً اديباً. وكان لا يستوزر وزيراً الا أن يكون أديباً وشاعراً، ومن وزرائه الكاتب الشهير ابن زيدون. ومنهم الكاتب ابن عمار . وكان

---

١ قال صاحب المعجب : واما حال أهل الاندلس بعد اختلال دعوة بنى امية فقد تفرقوا فرقاً وتغلب فى كل جهة منها متغلب ، وضبط كل متغلب ما تغلب عليه وتقسموا القاب الخلافة . فمنهم من تسمى بالمعتضد ومنهم من تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد وغير ذلك من القاب الخلافة . وفى ذلك يقول ابو على حسن بن رشيق

مما يزهدنى فى أرض أندلس … سماع مقتدر فيها ومعتضد
القاب مملكة فى غير موضعها … كالهر يحكى انتفاخا صولة الاسد

المعتمد هذا من اعظم ملوك الطوائف. ولم تذهب دولته الا بعد ان استعان بيوسف بن تاشفين الذى تغلب عليه وامره فى افريقية بعد ان ابلى بلاء حسنا فى محاربته (سنة ٤٨٤ هـ). ومنذ ذلك الزمن ملك البربر اسبانيا وسموا بالمرابطين، واصبحت الاندلس ولاية تابعة لافريقية. وملك يوسف بن تاشفين بلاد الاندلس واصبح هو وابنه من اكابر الملوك ١

اما دولة المرابطين هذه فعلى الرغم من ميلها للعلوم. لم يكد يستتب لملوكها الامر حتى ظهر فيهم الجهل والتعصب لمسائل الدين. وابتدأت الحالة العقلية تنحط، وحركة اللغة والعلوم تقف. وفى زمن على بن يوسف بن تاشفين ظهر التعصب لمذهب الامام مالك، حتى قالوا انه نسى النظر فى كتاب الله. وصودرت كتب الكلام، ومنع الكلام فى العقائد، وأمر باحراق كتب الغزالى. ثم عمت الفوضى جميع البلاد، واضطرب حال المسلمين بعد سنة خمسمائة، واوكلت الأمور العامة للنساء. وعلى أثر ذلك قامت دولة الموحدين التى نشأت بمراكش فى أوائل القرن السادس واراد الموحدون ان يردوا عظمة عصر بنى امية من علوم وفنون وصناعات. واشتهر فى زمنهم طائفة من العلماء والشعراء والفلاسفة. فقد كان لامرائها ميل عظيم للعلم كابى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠) الذى اشتهر حبه للعلم والاشتغال به وجمع الكتب، وكان يتناقش مع ابن رشد الفيلسوف الشهير. حتى قال ابن رشد انه هو الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم ارسطاليس.

ثم ظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى وغلبهم بنو الاحمر ملوك غرناطه. واضطربت الحال فى هذه المدة بين بنى الاحمر وبنى هود، كما كانت عند الفتح بين الامراء. وانتهت الدولة فى أواخر القرن التاسع الهجرى حيث خفت صوت المسلمين هناك. وقد ظهر فى هذه المدة الاخيرة كثير من الادباء والشعراء كلسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم.

اما عصور الادب والبلاغة فقد ابتدأت بتأسيس الدولة الاموية. ولم يأفل

---

١ قالوا وانقطع الى امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحوله حتى اشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه فى عصر من العصور

نجم هذه الدولة الا بعد ان أفعمت البلاد بالعلماء والفلاسفة والادباء ومعاهد العلم ودور الكتب . وكانت الصبغة العربية فى هذا العصر ظاهرة فى الشعر والنثر . لأنها كانت أشبه بما فى بلاد المشرق . فلما كثر الترف وذاع اللهو والمجون فى اواخر الدولة وفى دولة العامريين، وفى عصر ملوك الطوائف ، ظهرت الاباحة فى كل شىء ، وظهر كل هذا فى انواع البلاغة من نظم بديع ونثر رشيق ، ومن كلام فى وصف مجالس اللهو والطرب والغلمان والنساء ، واغرب الشعراء والكتاب فى هذه الانواع . واكثر مشهوريهم ظهروا فى زمن ملوك الطوائف وبعده ، كما ظهر كثير من العلماء والفلاسفة والادباء . وما زالت النهضة الادبية سائرة سيراً حثيثاً ، لان العقول كانت قد نضجت واخذت فى البحث والاستنباط . وقد زالت الدولة على أثر الاضطرابات السياسية ، والحياة العقلية فى عز مجدها . وعلماؤها وادباؤها كانوا لا يزالون فى ابان نشاطهم ، ونشوة يقظتهم العقلية حتى انتشروا فى البلاد ، وأفاضوا عليها من فضل علومهم ما كان له أثر نافع عند الامم التى نزلوا فيها .

الحياة العقلية فى الاندلس

امتزج المسلمون الذين دخلوا الاندلس بسكان البلاد وتصاهروا وتحابوا. ثم دخل كثير من غير العرب فى الاسلام، فظهرت صلة أخرى غير صلة الاجتماع فى بقعة واحدة، وهى صلة الدين، وامتزجت كل هذه الاجناس بعضها ببعض امتزاجا تسرب فى عقولهم كما تسرب فى دمائهم. فكانت لهم نزعة عقلية جديدة. ونمت مواهبهم الفطرية، وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلاداً واسعة غنية جميلة، مختلفة المناظر متعددة المناحى، فكان أثر ذلك كله ان أصبحت لهم مميزات عقلية وصفات لم تكن لغيرهم من العرب الخلص. فاشتغلوا بأنفسهم فى نقل العلوم ونشرها، ووصلوا الى البلاد فى طلبها، ورحل اليهم كثير من العلماء، فاخذوا عنهم كما أخذوا عن آثار اليونان والرومان والفرس. ولم يكن للعرب اذ ذاك من يزاحمهم، لان معالم الحضارة كانت خفيت. والعالم يتطلع الى من ينقذه من مخالب الموت ويفيض عليه بنور العرفان. وكان العرب أبطال تلك الايام، فاصبحوا زعماء المدنية. وأرادوا أن ينالوا شرف هذه الزعامة ويملكوا زمام العالم. وقد عرفوا ان ذلك لا يكون الا اذا ارتقت العقول وتقدمت العلوم، وان دولة لا تؤسس الا على العلم، وان أمة تريد أن تعيش لا تحيى الا بالعلم. فاراد عبد الرحمن الداخل أن تكون دولة بنى أمية فى المغرب أثبت دعامة من دولة بنى العباس بالمشرق، وأبقى وأفخم من ملك آبائه فى ربوع الشأم[1] فتمهدت فى زمنه وسائل السعادة والمدنية وكان يعمل على ترقية العقول ونشر العلوم والفنون والصناعات. كذلك كان عبد الرحمن الثانى المعاصر للمأمون (من سنة ٢٠٦ الى ٢٣٨) شديد الرغبة فى

---

١ فقد رووا عنه

ابنى امية قد جبرنا صدعكم   بالغرب رغما والسعود قبائل
مادام من نسلى امام قائم   فالحكم فيكم ثابت متواصل

الفنون والأدب والموسيقى ، فعمل على ترقية أذواق أهل الاندلس بنشر هذه الفنون الجميلة . فكان خلفاء بنى أمية يجارون دولة بنى العباس فى حضارتهم وفى كل شىء لديهم . وأرادت قرطبة أن تظهر على بغداد . فأدخل عبد الرحمن الثالث فى اسبانيا ما كان عند العباسيين من علوم وفنون . وأنشأ فى قرطبة كثيراً من المبانى الفخمة . وبلغت أبهة الملك منتهاها فى أيامه . وفى عصره كانت المدنية الاسلامية زاهية . فكان العلماء والادباء يفدون من المغرب الى المشرق ، ومن المشرق الى المغرب . والطريق من بغداد الى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء ، والعالم يستضىء فى ظلمة جهله بأشعة العلوم العربية ، ويهتدى بآثار العرب وجهودهم فى نقل الحضارة من اليونان وغيرهم ، مما كشفوا مخبآته وفتحوا معميّاته . وقد نمت مواهب العرب فى اسبانيا كما ينمى النبات الصالح للحياة فى الارض الخصبة الطيبة . وظهر أثر ذلك كله فى العلوم والفنون ، كما ظهر فى أنواع البلاغة من شعر ونثر ، مما لم يكن عند سواهم . ذلك لما كان لهم من النشاط والجد والمثابرة على البحث والتنقيب ، والعمل على فهم ما تركه الناس قبلهم من علوم عقلية أو نقلية ، ومن صناعات وفنون . فكان لهم أثر فى كل شىء أطلعوا عليه ، فألفوا ودونوا واخترعوا ، مما لا يكاد يحصى ، حتى ان الحركة العقلية لديهم لم يكن لها مثيل فى زمنهم ، لأنها كانت نتيجة جهود العقول والقرائح عند العرب جميعاً .

وقد عنُوا عناية عظيمة بجمع الكتب فى كل علم وفن . فقد كان فى اسبانيا ستون مكتبة عامة ، أنشأها الخلفاء الامويون وغيرهم . أشهرها مكتبة قرطبة ، وكانت تحتوى على الكتب العقلية والنقلية التى ترجمها وألفها العرب فى الزراعة والفلك والرياضة . وفى الطب والكيمياء والموسيقى . وفى أصول الدين ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير . وفى فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعراء المختلفة ومعاجم اللغة . كان ذلك كله مجموعا جمعا منظما فى مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦) كل غرفة

تحتوى على علم أو فن من الفنون.[١] واشتدت رغبة الحكم فى اقتناء الكتب فكانت فهارس المكتبة أربعة وأربعين، وبلغت الكتب فيها مائتى الف مجلد. جمعها من افريقية وفارس وجميع البلدان . وانتقلت رغبة جمع الكتب الى طبقة العامة حتى صار ذلك أنفس مايقتنى. وحرص الناس عليها وعلى نقلها. وكان الحكم نفسه عالما بالاخبار والأنساب، محباً للقراءة، حتى قالوا انه قلما يوجد كتاب فى مكتبته الا كان له نظر فيه وتعليق عليه، يكتب عن المؤلف وعن مولده ووفاته ويأتى بغرائب لاتوجد الا عنده . وكان يجمع فى داره الحُذّاق فى صناعة النسخ والضبط والاجادة فى التجليد، ويجود عليهم بالمال. فكانت داره أشبه بمجمع علمى . وكان يبعث فى الكتب الى الاقطار رجالا من التجار، ويعطيهم الأموال لشرائها،حتى جلب منها الى الأندلس مالم يكن لهم به عهد، مما كان يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الازمان الطويلة. واستخدم العلماء فى كل مايساعد على العلم ونشره،فكان منهم الورّاقون المشهورون المعروفون بالضبط وحسن الخط . وبعث فى كتاب الأغانى الى مؤلفه أبى الفرج بألف دينار من الذهب العين، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجه الى العراق. كذلك كان للخلفاء ميل عظيم الى اكرام العلماء والاخذ بنصارهم.[٢] فكان المنصور بن أبى عامر على مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها فى انحاء الدولة لدى الرعية على اختلاف أجناسهم ونزعاتهم، بعد أن كان العلم مقصوراً على الوجوه منهم. وكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة، ويمدح المدرسين

---

١ كان الحكم من أشد أنصار العلم، لأن اباه عبد الرحمن الثالث رباه بأمهر الاساتذة ووكل أمر تعليمه الى ابى على القالى. وقد نشر الحكم على نفقته الخاصه مؤلفات احمد بن عبدر به صاحب العقد الفريد. وجعل فى قرطبة أكبر دار لمطالعه الكتب العربية وجعل أخاه عبدالعزيز مديرالها ومحافظاً عليها، على حين ان اخاه المنذر كان له الرياسة على أندية العلوم المختلفه التى تأسست فى قرطبة

٢ راجع خبر دخول أبى على القالى فى الاندلس والاحتفاء به واشتغال الحكم بالعلم وجمع الكتب — نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ صفحة ٢٥٠

ويكافئ التلاميذ على جدهم ، ويجلس فى مجالس العلماء للمناقشة والبحث ، ويختار من نابغيهم القضاة والقراء والخطباء [١]

على مثل هذا كانت عناية العرب بنشر التعليم تفوق كل عناية . فكانوا اذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بانشاء مسجد ومدرسة [٢] وكأنهم يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لتهذيب الامم وأن تربية النفوس بالدين كتربية العقول بالعلوم والمعارف . وعنهم أخذ أهل أروبا المدارس الجامعة ونظام « الكليات » التى يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون العلوم المختلفة . وكان فى كل مدينة من مدن اسبانيا مدرسة كبيرة . بل كانت القرى تحتوى على مدارس لتعليم القرآن والقراءة والكتابة . وأصبح السواد الأعظم من سكان البلاد عارفا بالقراءة والكتابه ، على حين أن أهل أروبا كانوا من العامة الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، لان التعليم كان منحصرا لديهم فى طائفة القسوس الذين لم يخرج العلم من دائرتهم ، وان تعداهم فالى بعض الامراء والاغنياء . وكانت معاهد التدريس غاصة بالعلماء والفضلاء ورؤساؤها من أكبر الرجال المفكرين [٣].

---

١ هذا على الرغم من تظاهر المنصور بكراهة علوم الفلسفة والنجوم ارضاء لشهوته السياسية . راجع طبقات الامم فى ذلك

٢ بلغت مساجد قرطبة فى زمن عبد الرحمن الداخل ٤٩٠ مسجداً

٣ أما العلماء والمؤلفون فكثيرون فى كل علم وفن. ذكر جملة من ذلك ابو محمد بن حزم الحافظ فى رسالة طويلة رد فيها على الحسن بن محمد القيروانى فيما كتبه فى تخليد علماء بلده وتقصير أهل الاندلس فى ذكر علمائهم (نفح الطيب طبع اروبا جزء ٢ صحيفة ١٠٨)

فمن المؤرخين ابو مروان حيان بن خلف (ولد سنة ٣١٧ وتوفى سنة ٤٦٩)وكتابه المسمى بالمتين أو المبين فى تاريخ الاندلس يقع فى ستين مجلداً (منه نسخة بجامع الزيتونة بتونس) وله كتاب المقتبس فى تاريخ الاندلس فى عشر مجلدات (به نسخة بتونس وا كسفورد)والقاضى ابى القاسم صاعد بن احمد الطليطلى كتاب التعريف بأخبار علماء الامم من العرب والعجم. ومما ألف فى الجغرافيا كتاب معجم ما استعجم من البقاع والاماكن .

ومن أشهر المنجمين ابراهيم بن آدم الاسرائيلى من رجال القرن الخامس الهجرى ويؤثر عنه أنه باشر عدة مرات رصد التحقيق نقطتى الراس والذنب من الارض . ومنهم جابر بن الملح الاشبيلى الذى اختصر كتاب المجسطى لبطليموس. ومنهم ابو الوليد محمد بن رشد القرطبي الفيلسوف ويقولون أنه أول من تنبه للسفع على وجه الشمس وكتب عنها. وكثير من هؤلاء كانت لهم قدم

وكان للطب أربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والاجناس فى قرطبة واشبيليه وطليطلة ومرسية

هذا شىء يسير عن الحركة العلمية والأدبية فى الأندلس. منها يمكن الوقوف على مقدار ما كان هناك من الميل الى العلوم والمعارف، وما وصلوا اليه فى الحضارة والاطلاع . وكثير من هؤلاء العلماء كانوا من الادباء والفقهاء . وقد كانت لهم عناية خاصة بعلوم اللغة والدين ، لان تربيتهم العقلية كانت مؤسسة على هذين الفرعين. لذلك كان لكثير من علماء العرب المتخصصين فى العلوم الرياضية والطبيعية شهرة عظيمة فى علوم اللغة والدين .فكان أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بابن السمينة من أهل قرطبة بصيراً بالحساب والنجوم والنحو واللغة والعروض ومعانى الشعر والفقه والحديث والأخبار والجدل. وكان الحافظ أبو الوليد هشام من أعلم

راسخة فى الهندسة والمساحة والجبر وسائر العلوم الرياضية .

ومن اشتغل بالفلسفة ابو محمد على بن حزم من رجال القرن الخامس الهجرى . وله كتاب الفصل بين أهل الاهواء والنحل وكتاب أخلاق النفس وكتاب مراتب العلوم وغيرها. ومنهم ابن باجة السرقسطى المعروف بابن الصائغ من رجال القرن السادس ومن أكابر العلماء فى الفلسفة والرياضة والطب والموسيق . ومنهم ابن طفيل الذى كان معاصرا لابن الصائغ ويقولون أنه أول من قال بتدرج الحيوان الى انسان وهو صاحب الرسالة الشهيرة التى سماها يحيى بن يقظان . ومن تلاميذه ابو الوليد بن رشيد المذكور أشهر علماء الاندلس وأكبر فلاسفتها الذى ألف فى الطب ولخص بعض مؤلفات جالينوس فى الامزجة والعلل والحميات

ومن أطباء الاندلس بنو زهر. وهم ابو العلاء بن زهر. وابنه ابو مروان عبد الملك وابنه ابو بكر. وعبد الملك هذا صاحب كتاب التيسير وكتاب الاغذية اللذين كانا لهما شهرة عظيمة فى المشرق والمغرب . ومن المشتغلين بالعلوم ابن البيطار واحد اهل عصره فى معرفة النبات سافر الى بلاد الاغريق وأقصى بلاد الروم والمغرب واجتمع بكثير ممن يعانون هذا الفن وعاين منابته وتحققها. ومنهم ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنة ٥٠٠ من الهجرة كان أشهر أطباء زمانه وهو صاحب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف . وهو أول من ألف فى فن الولادة ورسم فى كتابه آلات الجراحة . وعلماء اللغة والادب أكثر من أن يحصى عددهم

راجع فى الكلام على العلماء فى الاندلس ما يأتى :
رسالة ابن حزم المذكورة ورسالة أبى الوليد الشقندى فى ذكر علماء الاندلس ومؤلفاتهم فى الجزء الثانى من كتاب نفح الطيب جزء ٢ صفحة ١٠٨ـ١٤٠ وطبقات الامم للقاضى ابى القاسم صاعد الاندلسى . والباب الثالث عشر من كتاب طبقات الاطباء والجزء الثانى من كتاب فياردو «تاريخ العرب والمغاربة فى اسبانيا» والسنة الثانية من مجلة الضياء فى مقالات «العلوم عند العرب»

الناس بالهندسة وآراء الحكماء والنحو واللغة ومعانى الشعر والعروض وصناعة الكتابة والفقه والشروط والفرائض . فكانت الفنون الشرعية وعلوم اللغة أساساً لتربيتهم العقلية، حتى لا تكاد تجد عالماً اوفيلسوفاً أو منجماً الا وله علم بالشعر والعروض واللغة . لهذا ظهر شيء كثير من آثار تلك التربية العلمية والفلسفية فى بلاغتهم من نظم ونثر

أما اللغة العربية وآدابها فقد ذاعت فى كل أنحاء البلاد وعند الخاصة والعامة وملكت منهم ملكة البيان : قال بعض المؤرخين

«هجر أهل اسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها، وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى ان أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك . وقال اننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية ، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الاسلامية باللغة العربية لنتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة . ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية . وكل شباننا الأذكياء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها، لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب الى الاعجاب بآداب العرب . فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها، وقالوا انها لا تستحق عناية قارىء أو مستفيد . من أجل ذلك نسى المسيحيون لغتهم، فلا تكاد تجد فى الألف منا واحدا يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية. أما اذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فان كثيرا منهم يكتب بعبارات بليغة ، وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم فى ذلك، حتى فى الشعر وكتابة القوافى . »[1]

كذلك دخلت الألفاظ العربية فى اللغة الاسبانية وغيرت شكل لغة البلاد وأكسبتها لهجة جديدة فى زمن شارل الأصلع

« وفى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية. وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة الى اللغة العربية لتلاميذه فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه، واتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية والعمل

1 Dozy Hist des Arabes en Fspane T. 2. P. 103



سقف قاعة القضاء بقصر الحمراء

على ترك اللاتينيه . وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا فى قرطبة وطليطله، حتى ان القسس لجهلهم باللاتينيه اضطروا الى ترجمة كتب الكنيسة الى اللغة العربية . وبقى ذلك هذه الى أواخر القرن الحادى عشر ، أى بعد ان استولى ألفونس السادس على طليطله سنة ١٠٨٥ م .

وليس لأحد أن يناقش كلام « كونده » القائل بأن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به . ولا شك فى أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفية الخ . » [١]

وأما اهتمامهم بالفنون كالأدب والغناء والموسيقى فقد كان اكثر انتشاراً، لأنهم كانوا أحوج اليها فى ساعات اللهو والطرب ، ورياضة النفوس ومجالس الخلفاء والامراء . وهى عليهم أسهل ، ولدى ذوقهم أعذب، ولنفوسهم أقرب

1 James Fitzmaurice Kelly. His de la littérature en Espagne P. 7 & 8.
A Literary History of the Arabs by Nichelson P. 476.
Engène Baret. His. de la litt. en Espagne. P. 16 & 17.

الفنون فى الاندلس

كانت همة العرب فى ابَّان نهضتهم متجهة الى العلوم ، منصرفة الى الدرس والتأليف والنقل . فظهر منهم طائفة عظيمة من الفلاسفة والاطباء وعلماء النبات والحيوان والكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة كما أشرنا الى ذلك . وكان اهتمامهم بالفنون كالموسيقى والغناء والشعر وفن العمارة عظيما أيضاً ، حتى فاقوا غيرهم فى بعضها وأخذوا بعضها عن الامم الاخرى . ولهم فى ذلك آثار جميلة بديعة ، وميولهم الى فن التصوير والنحت كانت من بواعث الامل على تقدمهم فى ذلك لو أن دولتهم امتد زمنها . فقد كان لدولة بنى الاحمر بغرناطة آثار بديعة فى فن العمارة ، بل ظهر قبل ذلك ميول الخلفاء الأمويين لفنى النحت والتصوير . فبنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سماها باسمها ، أتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها ، وجعلها متنزهاً ومسكناً لها ولحاشيته وأرباب دولته ، ونقش صورتها على الباب . وكانوا يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الاخرى كالقسطنطينية وغيرها . وقد نصب الناصر على باب الزهراء ثمانية منها [1] وقلدوا بعض النقوش التى كانت فى كنائس اسبانيا وصقلية . وروى بعض المؤرخين ان ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبة كانت عليها نقوش وصور . فكان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثانى صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح [2] أما تصوير الآنية والأثاث والاشكال الهندسية فقد برعوا فيها براعة عظيمة ، وصوروا الطيور وأشكال الرجال ،

---

١ نفح الطيب طبع اوروبا جزء أول صحيفة ٣٤٦ راجع الكلام هنا على مدينة الزهراء
٢ نفح الطيب طبع اوروبا جزء أول صحيفة ٣٤١

كما فى الحوض الذى أتى به الناصر الى مدينة الزهراء . فقد كانت به نقوش وتماثيل على صورة الانسان نصب عليه اثناعشر تمثالا [١]

ومن آثارهم فى فن العمارة هناك ما لا يزال ناطقاً بما كان لهم من البراعة فى بناء المدن والقصور والمساجد . ولهم من الاتقان فى ذلك ما لم يكن لغيرهم فى زمنهم . ومن أشهر آثارهم الفنية مسجد قرطبة الشهير الذى — فضلا عما يدل عليه من البراعة فى فن العمارة — يدل على ذوقهم الفنى ، وعلى بلوغهم درجة عظيمة فى الترف ومجاراتهم غيرهم فيما عرفوه من آثار الرومان فى المدن العظيمة والقصور الشامخة والكنائس المنمقة [٢]

وقد أخذ أهل أروبا عن عرب الأندلس كثيراً من الفنون وغيرها. فقد كانوا لا يعرفون شيئاً عن علوم اليونان ومدنيتهم . ولا عن اللغة الاغريقية وما ألف فيها . فلما ترجم العرب كتبهم وشرحوها وأضافوا اليها ما أضافوه ، فتحوا على أهل أروبا باب المدنية الحاضرة ، وأطلعوهم على تلك الآثار التى بنوا على أنقاضها حضارتهم . فقرأوا الكتب اليونانية باللغة العربية . ومنذ ذلك عنوا بدراستها وبمعرفة اللغة اليونانيه . بل ترجم أهل أروبا الكتب العلمية اليونانية من العربية

---

١ نفح الطيب طبع اوروبا جزء ١ صحيفة ٣٤٦ . راجع مجموعة الصور المأخوذة من صقلية وطبعت فى روما ومنها نسخة بمكتبة سراى عابدين . وراجع الكلام على فن العمارة فى نفح الطيب جزء ١ صحيفة ٣٠٣ والجزء الثانى من كتاب فاردو

٢ اما مسجد قرطبة فقد أسسه عبد الرحمن الداخل واتمه ابنه هشام . فكان أنشاؤه فى أول أيام الدولة الاموية ، مما يدل على تيقظ العرب ونشاطهم منذ دخولهم تلك البلاد . وقد كان فى هذا المسجد الف ومائتا عمود كلها من الرخام ، وكان باب المسجد من الذهب وفيه المحراب وما يليه قد اجرى فيه الذهب المطعم . وكان باب المقصورة من الفضة . وكان بالمقصورة تفاحات من الفضة والذهب ، محيط كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف ، واثنان من هذه التفاحات من الذهب الابريز ، وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنه قد هندست بابدع صنعة ورمانة ذهب . قال المقرى انها احدى غرائب الارض . وكان بالجامع المذكور فى بيت منبره مصحف عثمان الذى خطه بيده (هكذا يقولون) وعليه حلية ذهب مكللة بالدر والياقوت ، وعليه اغشية من الديباج وهو على كرسى من العود الطيب بمسامير الذهب . وارتفاع المنارة الى مكان الاذان ٥٤ ذراعاً ، ودون الثريا الكبرى تحتوى على الف كاس واربعة وثمانين ، كلها موشاة بالذهب . وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة ، اثنان اخضران واثنان لازوردیان وبه منبر خشبه العاج والابنوس والعود . وصرف عليه عشرة آلاف مثقال وخمسون مثقالا ويقولون أنه كان بالجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لاجل وقوده : راجع الكلام على مسجد قرطبة فى نفح الطيب جزء ١ صفحة ٣٥٨ — ٣٦٩

الى اللاتينية . ومن أول الكتب التى ترجمت فى ذلك كتاب اقليدس فى الهندسة سنة ١١٣٦ م

ولم يأخذ أهل أروبا عن عرب الأندلس العلوم وحدها ، بل أخذوا عنهم أيضاً بعض الفنون التى اشتغلوا بها كفن العمارة والموسيقى والشعر. [1] اما فن الموسيقى فقد توسع فيه أهل أوروبا بما تركه العرب لهم . قال بعض المؤرخين «ان للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التى ساعدت أهل أوروبا على الوصول الى الدرجة التى عليها الآن هذا الفن الجميل . فان مكتبة طليطلة بها آثار عظيمة تدل على ما كان للعرب من التقدم فى ذلك . وأن هناك جزءاً من المخطوطات فى الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر ، الذى كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من قراءة الكتب العربية . وأن الموسيقى قبل ذلك العصر كانت مقصورة على الكنائس . فساعد العرب على نشر هذا الفن بواسطة الفرنساويين أنفسهم ، الذين كانوا يقيمون فى اسبانيا مع العرب ، أو يتعلمون فى مدارسهم . وكان الشعر الفرنسى العامى من نوع الشعر العامى الاسبانى المأخوذ عن الشعر العربى ، لا عن الشعر اليونانى أو الرومانى ، لأن سكان تلك البلاد لم يكونوا يعرفون بعد شعراء اليونان أو الرومان ، حتى ينسجوا على منوالهم ، اذلم يطلعوا على شىء من ذلك قبل القرن الرابع عشر . لذلك كان الشعر عندهم يشبه الشعر العربى من حيث انه قطع صغيرة ، وأبيات قليلة فى المدح أو الذم أو الوصف . وذلك أظهر ما يكون فى فرنسا عند شعراء القرن الرابع عشر ، وبعض القرن الخامس عشر . حتى ان أسماء هذه المقطوعات أو الأصوات كانت تشبه أسماء الشعر العربى . قال : ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافى عن العرب ، فان الاسبانيين أول من أخذ القافية عن الشعر العربى

(١) أخذ العرب كثيراً من فنون العمارة عن دولة الروم الشرقية . كما نقلها الجرمانيون الى بلادهم . فكانت العمارة عند الجرمانيين تشبه ما عند عرب اسبانيا . حتى أن مسجد قرطبة يشبه الكنيسة الجرمانية الكبرى . لأن أصلهما مأخوذان عن الشكل البوزانتى . وكانت آثار البناء فى اوروبا الجنوبية مأخوذة من نماذج عربية حتى قالوا أنه يوجد شىء من ذلك فى كنيسة باريس الكبرى : فياردوا جزء ٢ ص ١٨٠

ثم وصلت هذه الصناعة الى مرسيليا وطولون بواسطة التجار الذين كانوا يجيئون من أسبانيا .» [١]

واقتبس الأروبيون كثيراً من أعمال العرب فى الحروب والصناعة وغيرها مما يطول شرحه . وانما أردنا أن نثبت ذلك القدر القليل تنويها بفضل العرب وأثرهم فى المدنية الحاضرة

وقد بلغ عرب اسبانيا الى درجة عظيمة من الترف وأبهة الملك . ولعل ذلك ما يسمونه الآن «ردفعل» . فقد كانوا فى خشونة من العيش ، بعيدين عن كل رفاهية ، فلما فتح أمامهم باب السعادة على مصراعيه ، ورأوا مدنية الأمم الاخرى وملكوا العالم ، أرادوا أن يتناسوا تلك الخشونة البدوية ، فتشبهوا بالدول العظمى . وكان العربى بطبيعته يتأثر بالمظاهر والمشاهد الجميلة . لأنها هى التى كونت فكره وادراكه وتصوره ، وأوحت اليه هذه المعانى الشعرية . وقد رأى ذلك كله فى البلاد التى فتحها ، فأراد أن يكون من أصحاب العظمة والابهة والترف . فاهتم ببناء القصور الضخمة ، والأبنية المشمخرة ، وحيازة الأشياء النفيسة ، ولبس الحلل الفخمة المزركشة ، وامتلاك الأوانى الذهبية والأثاث المرصع بالأحجار الكريمة ، وغلبت عليه طبيعة السخاء ، فكان يجود بالهدايا الثمينة ، ويستهين بالأموال [٢] فقد اتخذ عبد الرحمن الثانى القصور والمتنزهات ، وجلب اليها الماء من الجبال وأقام الجسور ، وبنيت فى أيامه المساجد الكثيرة والمدارس . على

---

١ الجزء الثانى من كتاب فياردو

٢ فقد رووا عن عبد الرحمن الثانى أنه كان له جارية اسمها طروب أغضبها مرة فهجرته ونزلت مقصورتها . فاشتد قلقه لهجرها وضاق ذرعه من شوقها . وأراد أن يسترضيها فأعياه ذلك فارسل مع خاصة خصيانه من يكرهها على الوصول اليه . فأغلقت بابها فى وجوههم وآلت ان لا تخرج اليهم طائعة ولو انتهى الامر الى القتل . فانصرفوا وأعلموا الامير بذلك واستأذنوه فى كسر الباب عليها . فنهاهم وأمرهم بسد الباب من خارج ببدر الدراهم . ففعلوا وبنوه عليها بالبدر وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها على أن لها جميع ما سد به الباب . فأجابت وفتحت البواب فانهالت البدر فى بيتها فأكبت على رجليه تقبلها وحازت المال (نفح الطيب طبع اروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥)

ما كان عليـه من الـكلف باللهو والميـل الى الجوارى .[١] وكان مُلك عبد الرحمن الناصر بالأندلس فى غاية الفخامة والضخامة ، كما يعلم من مقابلة رسل الملوك له ، فقد أمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه .[٢] وامتدت الثروة والأبهة الى الحجاب والوزراء . فقد أهدى أحمد بن عبد الملك بن شُهيد الذى استوزره الناصر هدية لسيده ، قال فيها ابن خلدون : انها تدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها . وقالوا انها عبارة عن خمسمائة الف مثقال من الذهب العين ، وأربعمائة رطل من التبر ، وخمس وأربعين الف دينار من سبائك الفضه ، واثنى عشر رطلا من العود الهندى ، ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ، وثلاثين شقة من الحرير المرقوم بالذهب للباس الخلفاء المختلفة الألوان والصناعات ، وعشرة أفرية ، من غالى جلود الحيوان الخرسانية ، وغير ذلك

وكثرت القصور والمساجد وغيرها من الأبنية العامة الى درجة عظيمة فقد كان عـدد الدور فى قصر قرطبة أربعمائة دار ونيفا وثلاثين . وكان عدة دور الرعايا مائة الف وثلاثة آلاف دار ، وبلغت ديار أهل الدولة ثلثمائة وستة آلاف ، وبلغ عدد المساجد بهاسبعة وثلاثين وثمـانمائة وثلاثة آلاف وعدد الحمامات سبعمائة[٣]

---

١ أعطى جاريتـه حلياً قيمته مائة ألف دينار فقيـل له ان مثل هذالا ينبغى أن يخرج من خزانة الملك فقال ان لابـه أنفس منه .

٢ رتب الناصر لحجابتـه رجالا من الموالى ووجـوه الحشم وصاروا الى قصر منيـة الحكم ولى العهد ، وكانوا ستة عشر رجلا لاربع دول لـكل دولة أربعة رجال ، ورحل الناصر من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لوفود الروم عليه فقعد فى بهو المجلس الزاهر ، وحضر الوزراء على اختلاف مراتبهم ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والامراء ، وقد بسط صحن الدار بعتاق البسط وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ، ورفع الستور ، حتى ان رسل ملك الروم عنـد ماوصلوا ورأوا ذلك دهشوا من بهجة الملك وفخامة السلطان وقدموا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية وفيه وصف هدية عظيمة ارسلت الى الناصر

٣ نفح الطيب طبع أوروبا جزء ١ ص ٣٥٥

الغناء ومجالس الادب

أما مجالس الغناء واللهو فقد غصَّت بها المحافل ، وشغلت اكثر أوقات الشعراء وفتقت ألسنتهم بقول الشعر الجميل ، وفتحت عليهم أبواباً من الخيال . وزاد فى الاقبال عليها ميل الخلفاء والامراء وأهل الظرف والادب والنساء الشواعر [1]

جاءت صناعة الغناء الى الاندلس من المشرق ، لانها كانت وهى فى أوج عزها عند العباسيين من الفنون الناضجة ، ومن اكبر وسائل السرور والتسلى . واستاذ المغنيين فى الاندلس زِرْيَاب (أبو الحسن على بن نافع مولى المهدى العباسى) ، قدم الى الاندلس بأمر الحكم بن هشام المتوفى سنة ٢٠٦ هـ . ولما أخبر بوفاة الحكم قبل وصوله الى الاندلس همَّ بالرجوع ، فجاءه كتاب من عبد الرحمن بن الحكم يذكر تطلعه اليه وسروره بقدومه عليه . وكتب الى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويرافقوه الى قرطبة . وأمر خصياً من اكابر الخصيان أن يتلقاه ، فدخل هو وأهله البلد ليلا ، وأنزله فى دار من أحسن الدور ، وحمل اليها جميع ما تحتاج اليه ، وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتباً ، وأن يجرى على بنيه الذين حضروا معه عشرون ديناراً كل شهر لكل واحد منهم ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، وأن يقطع له من الطعام العام مائة مُدّى . وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار . ولما استدعاه الى مجالسه وسماع غنائه ترك كل غناء سواه ، وأحبه حباً جماً ، وقدمه على جميع المغنيين وشرفه بالأ كل معه ، لما علمه من فضله وأدبه . وكان زرياب مغرماً بفنه ، حتى انه كان يدعى أن الجن كانت تعلمه ،

---

١ فقد كان عبد الرحمن الثانى مولعا بالسماع مؤثرا له على جميع لذاته . نفح الطيب طبع اروبا جزء ١ صحيفة ٢٥٥

فكان يهب من نومه فيدعوا بجاريتيه غزلات وهنيده فيأخذان عودهما ، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته ، ويكتب الشعر ، ثم يعود عاجلا الى مضجعه. وزاد زرياب فى أوتار العود وترا خامساً اختراعاً منه ، وزيادة على الصنعة القديمة . وكان يحفظ عشرة آلاف صوت من الاغانى بألحانها . قالوا وهذا العدد من الالحان هو غاية ما ذكره بطلميوس واضع هذا الفن . واختص بنوع من الصناعة فى تعليم الغناء وضرب العود ، صارت منهجاً لمن جاء بعده ، وكان عالماً بكثير من العلوم والفنون ، أديباً ظريفاً ، حسن الحديث والمسامرة. [1] وكانت له جارية اسمها متعة أدّبها وعلمها أحسن أغانيه . وعرفت حمدونة ابنته باتقانها هذه الصناعة . وأخذ عن زرياب الغناء كثير من الرجال والنساء

وكانت مجالس اللهو والطرب غاصة بغناء الأشعار والرقص والراقصات ، وفى جميع البُلدان أصناف من الملاهى والرواقص المشهورات بحسن الانطباع واللعب بالسيوف وغيرها ، كما كان من بين المغنين كثير من كبار القوم ، مثل عبد الوهاب بن حسين الحاجب ، «الذى كان وحيد دهره فى الغناء الرائق ، والأدب الرائع ، والشعر الرقيق ، واللفظ الأنيق ، ورقة الطبع ، واصابة النادرة والتشبيه المصيب ، وكان قد قطع عمره وأفنى دهره فى اللهو والطرب ، وهو أعلم الناس بضرب العود»

هذا كله يدل على حسن الذوق ، ورقة الطبع ، اذ كلما أمعن الانسان فى فنون الجمال دل على رقة ذوقه . ولو أن العرب عرفوا شيئاً من بلاغة اليونان والرومان لجاروهم فى فنون التمثيل واختراع القصص ولكنهم قنعوا من ذلك بما كان لهم فى مجالس الأدب والغناء واللهو والشرب التى تفنن الكتاب والشعراء فى وصفها [2] واشتملت

---

١ راجع أخبار زرياب فى الباب السادس من نفح الطيب والجزء الثانى من تاريخ دوزى صفحة ٨٩

٢ كتب بعضهم يستدعى عود غناء فقال :

انتظم من اخوانك أعزك الله عقد شرب يتسابقون فى ودك ، ويعاطون ريحانة شكرك وحمدك ، وما منهم الا شره المسامع الى رنة حمامة ناد ، لا حمامة بطن واد . والطول لك فى صلتنا بجماد ناطق ، قد استعار من بنان لسانا ، وصار لضمير صاحبه ترجمانا . وهو على الاساءة والاحسان لا يمنعك من ايقاع به ، فى غير ايجاع به ، فان هفا عركت اذنه وادب. وان تأبى واستوى بعج بطنه وضرب. لا زلت منتظم الجذل ملتئم الامل .

أغانى الأندلسيين على كثير من أغراض الشعراء ، فكانت تشمل مدح الامراء ، ووصف القصور والحدائق ، والخيول والفرسان ، ومجالس الشرب فى الولائم . وغير ذلك من الموضوعات الكثيرة المختلفة ، التى نشأت من أحوال الاجتماع هناك وأوحت بها الى نفوس الشعراء تلك الحياة الاجتماعية ، وطبيعة البلاد وما بها من رغد فى العيش ، وساعد هذا كله على نمو الشعر العربى .

وقد كانت أغانى العشق تدل على أثر المرأة فى النفوس والاجتماع . لأنها كانت ذات مكان عظيم ومنزلة رفيعة وأثر ظاهر فى الحركة العقلية ، بل كانت تسابق الرجال فتسبقهم أحياناً ، واشتهر عدد عظيم من النساء فى الشعر والأدب كما هو معروف . ولم تكن صلة المرأة بالرجل صلة قلبية أو نفسية لا غير ، بل كانت صلة احترام واجلال ، لظهورها فى ميدان الجد والعمل ، واشتراكها مع الرجل فى أحوال الاجتماع ، ولأثرها فى مجالس الأدب وفنونه . وكان ذلك فى أكثر طبقات النساء . فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الأدب . وكانت العبّادية جارية المعتمد أديبة ظريفة ، كاتبة شاعرة ، ذاكرة لكثير من اللغة ، معدودة من علماء اشبيلية . فكانت المرأة هناك أرقى وأجل منها فى أوربا ، وحبها ممزوجاً بشىء من الوجد والاجلال معاً .

وازدانت مجالس الغناء بالغانيات المطربات من الجوارى وغيرهن ، وكان فيهن من هو أمهر من الرجال فى هذه الصنعة ، وأكثرهن وافد من المشرق . كالمغنية فضل التى اشتريت من المدينة للأمير عبد الرحمن الأول . فقد نشأت فى بغداد وتعلمت الغناء وبرعت فيه ، واشتهرت فى هذا الفن شهرة عظيمة . وكان يؤثرها عبد الرحمن على غيرها لجودة غنائها . وكانت قمر جارية ابراهيم بن حجاج اللخمى صاحب اشبيلية من أهل الفصاحة والبيان والمعرفة بصوغ الالحان . قالوا وجلبت اليه من بغداد وجمعت أدباً وظرفاً ورواية وحفظاً ، مع فهم بارع وجمال رائع . كذلك كانت حالة الغناء من حيث الاهتمام به والاقبال عليه من أعظم مظاهر العقول والأدب

وكانت مجالس الأدب فى الأندلس من أكبر مسارح الافكار ، وأفخم مظاهر الجمال ، وأجمع أنواع الأدب واللهو والجد والهزل ، ومظهر الحياة العقلية

والاجتماعية . والشعراء فرسان هذا الميدان . والكلام وحده آلة التعبير عن ذلك بأساليبه المختلفة البليغة . وكان الشعر نشوة الشارب ، وغناء الراقص ، ومؤدب النفوس وزاجرها ، وسلوة الفقير والغنى ، ومعزة الشريف والسوقى ، وكانوا جميعاً على فهمه أقدر ، وعلى الاقبال عليه أسبق ، وكل اذن واعية عند سماعه خاشعة لروعة بلاغته ، لانه كل مظاهر الحسن والجمال فى مجالس الخلفاء والامراء . كذلك كانت روعة تلك المجالس فى الشعر وبلاغة الكلام . وكان من أهل الأدب هناك الوزراء والكتاب ، والعمال وجباة الاموال والمستعملون فى أمور الدولة ، والخلفاء أنفسهم ، وكثير من أولادهم ونسائهم ومن يحضر مجالسهم . فبرع أهل الأندلس فى فنون الادب والشعر براعة شهد لهم بها جلة الناس [1] وكانت مجالسهم لذيذة ومحاضرهم فكهة . والشعراء كثيراً ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار .

« حضر أبو عامر بن شُهيد ليلة عند المظفر بن المنصور بن أبى عامر بقرطبة فقامت تسقيهم وصيفة عجيبة صغيرة الخلق ، ولم تزل تسهر على خدمتهم الى أن هم جند الليل بالانهزام ، وأخذ فى تقويض خيام الظلام ، وكانت تسمى أُسماء ، فعجب الحاضرون من مكابدتها السهر طول ليلتها على صغر سنها . فسأله المظفر وصفها فصنع ارتجالا .

أفدى أُسماء من نديم ملازم للكؤوس راتب
قد عجبوا فى السهاد منها وهى لعمرى من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت لا ترقد الكواكب »

ومن البداهة فى المجالس أيضاً ورسوخ ملكة الابداع فى النفوس ، ما قيل عن ابن شُهيد هذا ، وذكره ابن بسام . « أن جماعة من أصحاب ابن شهيد قالوا

---

١ من ذلك ما قيل « الاندلس عراق المغرب عزة أنساب ورقة آداب . واشتغالا بفنون العلم وافتنانا فى المنثور والمنظوم ، لم تضق لهم فى ذلك ساحة ولا قصرت عن راحة ، فما من فيها بمصر الا وفيه نجوم وبدور وشموس ، وهم أشعر الناس فيما كثره الله فى بلادهم ، وجعله نصب أعينهم من الاشجار والانهار والاطيار والكؤوس ، لا ينازعهم فى هذا الشأن منازع ...

لله يا أبا عامر ، انك لآت بالعجائب وجاب بذوائب الغرائب ، ولكنك شديد الاعجاب بما يأتى منك ، هاز لعطفك عند النادر ، تيأح لك ، ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا . وكان الذى طلبوه منه زُبدة التعنيت ، لان المعنى اذا كان صلفاً ثقيلا على النفس ، قبيح الصورة عند الحس ، كلت الفكرة عنه وان كانت ماضية ، وأساءت القريحة فى وصفه وان كانت محسنة . وكان ما فى المجلس باب مخلوع معترض على الارض ، ولبد أحمر مبسوط قد رصت خفافهم عند حاشيته . فقال مسرعا

وفتية كالنجوم حسناً ... كلهمُ شاعرٌ نبيلُ
منفذُ الجانبين ماضٍ ... كأنه الصارمُ الصقيلُ
راموا انصرافى عن المعالى ... والغَربُ من دونها كليلُ
فاشتد فى أثرها فسيحٌ ... كلٌ كثيرٍ له قليلُ
فى مجلسٍ زانه التصابى ... وطاردت وصفَهُ العقولُ
كأنما بابُهُ أسيرٌ ... قد عرضت دونه نُصولُ
يُرادُ منه المقالُ قسراً ... وهو على ذاك لا يقولُ
ننظر من لبدةٍ لدينا ... بحرَ دمٍ تحتنا يسيلُ
كأن أخفافنا عليه ... مراكبٌ مالها دَليلُ
ضلّت فلم تدرِ أين تجري ... فهى على شطِّهِ تَقيلُ

فعجب القوم من أمره

« ودخل الوزير أبو العلاء زُهر بن الوزير بن مروان على الامير عبد الملك بن رزين فى مجلس انس ، وبين يديه ساق يسقى خمرين من كاسه ومن لحظه ، ويبدى دُرين من حَبابه ولفظه ، وقد بدا خط عذاره فى صفحة خده ، وكمل حسنه باجتماع الضد منه مع ضده ، فكأنه بسحر لحظه أبدى ليلا فى شمس ، وجعل يومه فى الحسن أحسن من أمس ، فسأله ابن رزين أن يصنع فيه فقال بديها

تضاعف وجدى اذ تبدى عذاره ... وتم نحان القلب منى اصطباره

وقد كان ظني أن سيَمْحق لَيلَه بدائعُ حسنٍ هام فيها نهارُهُ
فأظهر ضدٌّ ضدَّه اذ وشى لَهُ بعنبره في صفحة الخد نارُهُ

واستزاده فقال بديها

مُحيت آيةُ النهار فأضحى بدرَ تمٍ وكان شمسَ نهار
كان يعشى العيون نوراً الى أن شغلَ اللهُ خدَّه بالعذارِ

وكانت مجالس الأدب من بواعث قول الشعر، ومجاراة بعض الأدباء بعضاً في ذلك. قالوا: « ان ابن العريف النحوي دخل على المنصور بن أبي عامر وعنده صاعد اللغوي البغدادي، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية

فالعامريةُ تَزهى على جميع المبانى
وأنتَ فيها كسيفٍ قد حلَّ في غُمدان

فقام صاعد وكان مناقضاً له. فقال أسعد الله الحاجب الأجل، ومكن سلطانه. هذا الشعر الذي قاله قد أعدّه، وأنا أقول أحسن منه ارتجالا. فقال له المنصور قل ليظهر صدق دعواك. فجعل يقول من غير فكرة طويلة.

يا أيها الحاجبُ المعتَلي على كِيوانِ
ومَن به قد تناهَى فخارُ كلِّ يمانى
العامريةُ أضحتْ كجنةِ الرِّضوانِ
فريدةٌ لفريدٍ ما بين أهلِ الزمانِ

الى ان قال:

أنظرْ الى النهر فيها ينسابُ كالثُّعبانِ
والطيرُ يخطب شكراً على ذُرَى الأغصانِ
والقضبُ تلتفُّ سكراً بميسِ القُضبانِ
والروضُ يفترُّ زهواً عن مبسِم الأقحوانِ

والنرجسُ الغضّ يرنو بوجنةِ النُّعمانِ
وراحةُ الريح تَنمَا رُ نفحةَ الرَّيحانِ
فدم مدَى الدهرِ فيهَا فى غِبطَةٍ وأمانِ »

هـذا أدل فى جملته على مكانة الشعر فى النفوس ، وأنه شىء من روائع القول وجمال الكون . وهذا من مميزات الشعر العربى ، وهى جمال الشعر الوجدانى . لأنه ينقلنا من عالم الحقائق المؤلمة الى عالم الأحلام والخيال ، حيث يتذوّق الانسان السعادة ، وينسى آلام الحياة وكوارثها . وذلك هو الغرض من فنون الجمال . لاننا اذا كنا فى حاجة دائمة الى الاتصال بالحقائق وأدراكها لفهم الأشياء ، فاننا كثيراً ما نكون أحوج الى الابتعاد من ذلك

« حضر أبو المُطرَّف بن عبد العزيز مع ابن عمار الوزير عند المؤتمن فى يوم جادت فيه السماء بهطلها ، وأتبعَتْ وبْلَهَا بطَلِّهَا ، وأعقب رعدَها برقُها ، وانسكب درا كاً وَدْقُها . والازهار قد تجلّت من كِمَامها ، وتحلت بدر غمامها ، والأشجار قد جُلى صداها ، وتوشحت بنداها ، وأكؤس الراح كأنها كواكب تتوقد ، تديرها أنامل تكاد من اللطافة تُعْقَدْ . اذا بفتى من فتيان المؤتمن أخرس لا يُفْصِح ، مستعجم لايبين ولا يوضح ، متنمر تنمر الليث ، مشمر كالبطل الباسل عند الغيث ، وقد أفاض على نفسه درعا ، تضيق بها الأسنة ذرعا ، وهو يريد استشارة المؤتمن فى الخروج الى موضع بعثه ووجهه اليه فكل ن صده عنه نهره ، حتى وقف الى مكان انفراده ، ووقف بازاء وساده . فلما وقعت عين ابن عَمار عليه ، أشار بيده اليه ، وقربه واستدناه ، وضمه اليه كأنه تبناه ، وجدَّ أن يخلع عنه ذلك الغدير ، وأن يكون هو الساقى والمدير ، فأمره المؤتمن بخلعه ، وطاعة أمره وسمعه ، فنضاه عن جسمه . وقام يسقى على حكمه ورسمه ، فلما دبت فيه الحميا ، وسبت غرامه بهجة ذلك المحيا ، واستنزلته سورة العُقار ، من مرقب الوقار . قال

وهويته يسقى المدام كأنه　　　قمر يدور بكوكب فى مجلس
متأرج الحركات تندى ريحه　　　كالغصن هزته الصبا بتنفس
يسعى بكأس فى أنامل سوسن　　　ويدير أخرى فى محاجر نرجس
ياحامل السيف الطويل نجاده　　　ومصرف الفرس القصير المحبس
اياك بادرة الوغى من فارس　　　خشن القناع على عذار أملس
جهم وان حسر القناع فانما　　　كشف الظلام عن النهار المشمش
يطغي ويلعب فى دلال عذاره　　　كالمهر يدرج فى اللجام المجرس
عنا بكأسك قد كفتنا مقلة　　　حوراء قائمة بسكر المجلس »

هذا شىء يسير من مجالس الأدب وأحوال الاجتماع فى الأندلس

النثر فى الاندلس

كان الشعر فى أكثر عصور اللغة العربية أشهر من النثر ، ولذلك كان الشعراء أشهر من الكتاب ، لأن البلاغة فى الشعر أظهر ، والأخيلة فيه أبين ، وقُرّاء العربية كانوا الى التأثر بهذه الأساليب والصناعة أقرب . وكانوا يفهمون من الأساليب مالا يفهمون من الموضوعات ومعانيها وأغراضها .

ومع أن النثر فى المشرق كان أقل من الشعر انتشاراً ، وكان فى المرتبة الثانية من حيث انه صورة من صور البلاغة العربية ، أو من حيث الاعتماد عليه فى الاستدلال على أساليب العرب وصحة لغتهم ، فقد تنوعت مناحيه ، وظهرت له مذاهب وطرق ، كمذهب ابن المقفع وطريقته ، ومذهب الجاحظ وأسلوبه ، وطريقة ابن العميد والحريرى ، وغيرهم كما هو معروف .

أما فى الأندلس فقد وسع كل أساليب العرب فى المشرق ، من كلام مرسل سهل ، وعبارات يتخللها سجع غير متكلف ، أو كلام مسجوع متعمل . وكانت هذه الأساليب كلها ظاهرة فى جميع العصور ، وعلى ألسنة الكتاب وأقلامهم ، حاشا العصر الأول الى أواسط دولة بنى أمية ، حيث كانت الكتابة سهلة قليلة السجع ، كما فى خطبة طارق وكتب الامراء من بنى أمية .

وقد ألف عرب الأندلس فى العلوم والفنون ، فكان اشتغالهم بالتأليف والكتابة والعلم من الأسباب التى جعلتهم يطرقون هذه الموضوعات فى كتاباتهم ، فلم تقتصر الكتابة النثرية على الدواوين والرسائل ، قصيرة كانت أو طويلة ، مسجعة أو مرسلة ، فى العشق والغرام ، أو فى الذم واللوم ، أو فى المدح

والاستعطاف، وغير ذلك ، مما يظهر لأول وهلة أنه ليس من الموضوعات الممتعة ، والمعانى العامة الاجتماعية ، بل شمل كل شيء فى الاجتماع هناك ، وكان مظهراً لتلك المدنية ، والحالة العقلية والسياسية والعلمية . وكان أثره فى الأدب والبلاغة كأثر الشعر ، لاشتماله على كثير من أغراض الكتاب . كوصف المبانى الفخمة من كنائس ومساجد ، وقصور وآثار ، وما فيها من صور وتماثيل . وكوصف الأشياء الجميلة التى غنموها أو عملوها بأيديهم . ووصف محافل الأمراء والخلفاء وأبهة الملك ، والمجادلات والمخاصمات ، ومجالس العلم والأدب . وطرق الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية . بشكل قصصى . كما فى رسالة «حى بن يقظان» لابن طفيل . وكتابة الحقائق فى أسلوب قصصى خيالى ، كما فى رسالة الوزير أبى عامر أحمد بن أبى مروان ابن شهيد التى هى من نوع رسالة الغفران ، وكالرسائل الطويلة المملوءة بالمعلومات التاريخية ، كرسالة أبى محمد بن حزم الحافظ التى ذكر فيها بعض فضائل أهل الأندلس من علماء وأدباء وحكماء ومؤرخين ، وسرد فيها آثارهم ومؤلفاتهم . ثم تلك الرسائل الفريدة فى بابها التى هى من نوع رسائل ابن زيدون . ثم كتابة الفتح بن خاقان ولسان الدين بن الخطيب ومايشبهها مما لم يكن مثله كثيراً فى بلاد المشرق ، بل بعض هذه الأنواع لم تكن معروفة

وكانوا يصفون فى كتاباتهم نفوس الكبراء والأمراء والقواد ، كما كتبوا فى المناظرات الخيالية ، كالمناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر . وكالمناظرة بين بلدان الأندلس لابى بحر صفوان بن ادريس .[1] وكما كتبوا فى الدعوات والارشاد والتوسل الى الرسول وفى شعائر الحج .[2] وكانت لهم أساليب فى الزهد والاسرار الربانية عرف الكتاب كيف يتصيدون فيها ألفاظ الزهد والتصوف .[3]

---

١ التى كتبها للامير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن . وهى من الرسائل الطويلة المملة راجع نفح الطيب طبع أروبا جزء ١ صحيفة ١٠٥

٢ من ذلك ما كتبه الوزير الفقيه أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد عن لسان من رجع من الحج . وهى من نوع الدعاء أو التوسل بالرسول راجع الذخيرة جزء ٢

٣ من ذلك المرقاة الى الملكوت. ونجوم الحكمة فى الجبروت. وحياة القدس. ولباس التقوى والصراط المستقيم . وراشتك الطبيعة بريش النهى حتى تصير مع الروحانيين فى مجال الصديقين ومنازل المقربين الخ وغير ذلك من ألفاظ الغيبيات وأساليب ماوراء المادة . راجع رسالة الفقيه ابن عمر احمد بن عبس الالبيرى فى الذخيرة من الجزء الاول

وفى جوار ذلك تجدهم برعوا فى أساليب اللهو والمجون .[١] ولهم عبارات تحسب من الخيالات الجميلة والسجع المتكاف السائغ للنفس تذوقه[٢] .

وبرعوا فى فن المقامات. ولأبى حفص عمر بن الشهيد فصول جيدة فى ذلك ، تشبه ما عند الفرنجة الآن ، أو يشبهها ما هو عندهم . وفيها أوصاف خيالية تدل على براعة فى انتقاء الألفاظ والمعانى ، وأمعان فى الصناعة وضروب الخيال .[٣] وتجد

---

١ كما بعث بعض الكتاب بأترجة وكتب معها كتابا يقول فيه : قد بعثت اليك من بنات الثمار اجلها ، ومن نتائج البستان أفضلها . فتربت على وردها طلين ، وتناولتها بالراحتين ، فبحرمة الكأس التى رضعنا ، الا ما رفعت قدرها ، وجعلت القبول مهرها ، وجعلتها على مجلس المدام ، وحجبتها عن عيون اللثام ، فخصالها عجيبة ، وصفاتها غريبة ، ان خزنتها عطرت أثوابك ، وان أمسكتها أذهبت أوصابك ، وان أعملت فيها غرب السكين ، قرنت لك بين النرجس والياسمين وارتك الكثب على وجه الحبيب . يالها من أترجة غضة ، قد صورت من ذهب وفضة ، سرقت من العاشق سيماه ، ومن المعشوق طعم ثناياه .. الذخيرة جزء أول

٢ مثل قولهم خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير أبو الوليد بن زيدون ومعهما الوزير ابن خلدون من أشبيلية الى منظرة لبنى عباد بموضع يقال له الفت . تحف به مروج مشرقة الانوار . متنسمة الانجاد والاغوار . متبسمة عن ثغور النوار ، فى زمان ربيع سقت الارض السحب فيه بوسميها ووليها . وجلتها من زاهر ملبسها وباهر حليها . وارداف الربى قد تأزرت بالازار الخضر من نبتها . وأجياد الجداول قد نظم النوار قلائده حول لباتها . ومجامر الزهر تعطر أردية النسائم عند هبتها . وهناك من البهار مايزهى على مداهن النضار ومن النرجس الريان ما يهزأ بنواعس الاجفان . وقد نووا الانفراد للهو والطرب والتنزه فى روض النبات والادب . وبعثوا صاحبا لهم يسمى خليفة هو قوام لذتهم ونظام مسرتهم الخ.... نفح الطيب ج ٢ ص ١٦٣

٣ كقول أبى حفص بن الشهيد ... وقد صحبتكم مدة . وسبحت الله على رؤوسكم مرارا عدة أوقظكم بالاسحار . وأوذن بالليل و النهار . وقد أحسنت لدجاجكم سفادا . وربيت لكم من الفراريج أعدادا فالان حين بلى فى خدمتكم تاجى . انعى الى دجاجى . وتنحى الشفرة على أوداجى . وحين أدركنى المشيخ يمزق لحمى ويطبخ . بالكرام من ذل هذا المقام . وجعلت دموعه تدفع من دمه . والحزن يطبق على فمه . ثم غشى عليه . فاجتمعت الناس اليه . يضربون وجهه بالماء . ويخلصون له فى الدعاء . ثم أفاق من غشيته وأنشد :

علام يقتل شيخ — من كل ذنب برى
محقق متعبد — موحد سنى
هل نص هذا كتاب — أو قال هذا نبى
لاذنب لى غير أنى — مؤذن بدوى

لهم كلاما مسجعا هو من السهل الممتنع، مع رقة فى اللفظ، وجزالة فى المعنى، وطول لا يمل، وصراحة فى القول، وحرية فى الفكر[1].

وأحيانا نجدهم وصلوا الى درجة فى النثر لا تفرق بينها وبين الشعر الا فى

فرقت له نفس القوم . وأقبلوا على صاحب المنزل باللوم . فقال وبحكم . ان هذا الديك ذو فخذ وصدره قد أصابتني عليه ضجرة . ولى فى ذبحه سر . ولابد أن تزين به قدر . وتضرم تحته النيران . ويشبع من لحمه الضيفان . اما ترونه قرة العين والقلوب . سبيكة لجين وتمثل .

ومن شيمتى مهما تزين منزلى   لضيفى ان أقريه أحسن ماعندى
لو ان دمى خمرا لارويته به   ولو صلحت كبدى شويت له كبدى
بذلك أوصانى ابى مذ عقلته   وقد كان أوصاه بذا قبله جدى

فقال الديك : لا كذب . الحق طريق مستبين . واتباعه مروءة ودين . اما انه على خلق عظيم كريم ابن كريم . غير أنه لؤم فى امرى . وأفرط وغلط ماشاء أن يغلط . اما علم ان هرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك . وأنها بالادوية أشبه منها بالاغذيه . واقسم لو اتخذ برمة من فؤاد مهجور ووضعنى من مثله على تنور . لاقضى به حاجة . ولا عدم منى فقرا ومجاجة .. فزكى قوله من حوله . ولم يألوه تعظيما . واتخذوه من ذلك اليوم حكيما . وصرف البدوى من الطافه ما أحسن منه قرى أضيافه . وختم توبة بره بالرغبة فى بسط عذره . وسمعنا منه ورحلنا سحرا عنه . م . الى ان قال .

فأصغيت فاذا انا بصوت ناقوس فى دير قسيس . وقرية كلها حانة دار البطاريق . وملعب الكأس والاباريق . سائمتها خنازير . وحياضها المعاصير . ومياهها الانبذة والخمور . وشكلها مثلث مسطوح هندسته حوارى نباتها غصون من قدود تهتز فى أوراق من برود . وتثمر رمانا من نهود . وتفاحا من خدود . وعقارب من أصداغ . وأفاعى من اسورة وعقود . وفيها مدام من رضاب . وشفاه من كواعب أتراب . وغيد تهوى بقرط . وارتجاج لكثيب فى مرط . وجولان النطاق . وعض الخلخال فى ساق . وخنث فى ألفاظ . ومواعيد بالحاظ . وقلوب تكلف وتشغف . ونفوس تنشأ . وأخرى تتلف . فلما كثر تحدثنا بحضرة الفقيه من هذا التشبيه قطبنا له وجوه الاستكراه . وعضضنا له الشفاه . فبينما نحن كذلك نكثر لغطا . ونرى الحلول بالمستحسن غلطا . اذ نظرنا الى أطراد صفوف من أعطاف حسنة . وخصور هيفة . وشموس واقمار . على أفلاك جيوب وأزرار . لا سيوف الا من مقل ولا درق الا من عجل . ولا عارض الا من خلوق . وأقسم بنعمة قد ودهن ألا جزتم المنة . وثنيتم الاعنة . تعريجا علينا الينا وتحكما فى المال والولد لدينا . فكرمت الشفاعة . وقلنا السمع والطاعة

١ كما فى رسالة لابن الحداد :

لما كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقذاء . وصقال الاصداء . وعقال الادواء . وسمتنى منه بوسام . ولفحتنى منه بسموم . وأسررت حسوا فى ارتغاء وأدمجت ذما فى ثناء ؛ والحر يأنف من الضيم . ويشمئز من الذم . ولا يقتصر على الاجتزاء . بغير الجزاء . ولو ترك القطا ليلا لنام . وفى العتاب حياة بين أقوام . فاصطبر لشرب صبره . وانتدب لتسوغ مره . فمن الحكم العدل . والقضاء

الوزن وقواعد العروض [١]. ومن السجع الجميل والاساليب الممزوجة بالحقيقة والخيال أسلوب ابن بَسّام فى الذخيرة وترجمته الادباء والشعراء [٢] ونجد مع هذه الرقة اللفظية والذوق الأدبى الفنىّ ، أنواعا من الرسائل الطويلة المسجوعة سجعاً متكلفا مملا ، مملوءة بالتعمل ، كثيرة الصناعة ، قليلة المعانى [٣]. وامام هذه الصناعة لسان الدين بن الخطيب . والفتح بن خاقان طريقته معروفة فى كتبه . حتى أصبح السجع طابعاً من طوابع الأدب العربى فى الأندلس وتسلل الفقهاء مناصب الخطابة والكتابة . فنفحوا الأدب بنفحة جافة جف من أجلها عوده ، حتى كسر أو كاد يكسر . وبلغ هذا منتهاه فى أيام ابن تاشفين

وعلى الرغم من رقى النثر فى الأندلس فانه لم يخرج عن صبغته العامة ، وهى الاعتماد على الخيال والصناعة اللفظية . غير أن الكتاب حاولوا كما قلنا طرق

الفصل . ان الدعك بما لدعتنى . وأجرعك ما جرعتنى . غير آفك فى حال . ولا مباهت بمحال . والتمويه ليس من خلق الكاذب النبيه . والحر على ما أساء يصر . وكل مجر فى الخلاء يسر . والفضل لمن حواه . لا لمن زخرف دعواه . وتحقيق البرهان . غير تنميق البيان . والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال . لا فى امكان الزمان . واقبال السلطان . وقيمة كل امرىء مايحسن . امثال أضر بها عليك . واضحة المناهج . ومقدمات أنشأتها معك . صادقة النتائج . وجمل تشتمل على تفصيل حالينا . وتبذ تشير الى ما فيه جرينا . وقد قابلنى عتابك . واجلابك . بريح تعصف ورعد يقصف . واستقبلنى خطابك . وأطنابك . بوبل يخسف . وسيل ينسف . بلغ الزبى وزاد . وغمر الربى والوهاد . . الخ

١ كما فى رقعة شفاعة كتبها ابو المغيرة عبد الوهاب بن حزم : اذا شرب روض الشكر من حوض البر . وأطلع من الزهر مايخجل مسك الغرر وتنسم عن نسيم . يشفى حرارة القلوب الهيم ولم يزل يجرى خلف الطلب . بيد الادب . ويسرى فى ظلام الامور . بسراج المنظوم والمنثور . . . الخ الذخيرة جزء ١

٢ كقوله فى ترجمة ابن شهيد : كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها . ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها . ينبوع آياتها . ومادة حياتها وأساتها . ومعنى أسمائها ومسمياتها نادرة الفلك الدوار . وأعجوبة الليل والنهار . ان هزل فسجع الحمام ، وان جد فزئير الاسد الضرغام . نظم كما اتسق الدر . على النحور . ونثر كما خلط المسك والكافور . . الخ .

٣ راجع كتاب لسان الدين بن الخطيب عن لسان سلطانه . نفح الطيب طبع أوروبا ج ١ ص ١١٤

الموضوعات العامة، كالقصص والحكايات الخيالية،[1] والمناظرات وغيرها، وابتكروا هذه الأساليب فى النثر كما ابتكروا أساليب الموشحات فى الشعر

أما طول الكلام والاطناب فيه، فيكاد يكون عاما فى جميع كتاباتهم. وبعض هذا الطول يعد من الأمور الفنية البحتة، والافتنان فى التصور والخيال، وبعضه ممل سقيم، يدل على تمكن الصناعة لاغير فى نفوس الكتاب والعناية بالألفاظ والسجع، بل يدل على انحطاط ملكة البلاغة، كما فى كثير من كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان وغيرهم من الكتاب.

وجملة القول أنه يمكن معرفة حالة النثر بالأندلس، ودخوله هذه البلاد بخطبة طارق بن زياد، التى قلنا انها أول صوت سمع هناك من بلاغة العرب وأول غرس من غراسها . فهذا كان نموذج النثر والخطابة فى تلك الأيام الى أواسط دولة بنى أمية . لأن الوافدين جاؤا من المشرق الى المغرب، والدولة عربية فى بيت بنى أمية، وروح البلاغة العربية البدوية كانت تجول فى نفس كل خطيب وكاتب وشاعر . فالذين هاجروا الى بلاد الأندلس فى الأزمنة الأولى كانوا لا يزالون أعرابا فى أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم. ولذلك نجد النثر فى تلك المدة يشبه كثيراً نثر الأمويين فى المشرق، وخطباؤهم فى الأندلس أشبه بخطبائهم فى الشام وبلاد العرب . ولما كثر الوافدون على الأندلس من المشرق نقلوا اليها طريقة النثر المسجوع، والصناعة اللفظية، والتنميق فى الكتابة. وسرى هذا فى كل أغراض الكتابة، حتى فى الكتب الفنية والعلمية، من تاريخية وغيرها ومن تراجم للعلماء والأدباء، ومن كتب جدية وهزلية. ومن أشهر ذلك كتب الفتح بن خاقان، كقلائد العقيان والمطمح وغيرها، وتاريخ الاحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب . حتى أصبح من غير المستطاع أن يجد الانسان من يكتب نثراً غير مسجوع

---

١ كما فى رسالة لابن شهيد على لسان الأوزة . راجع الذخيرة جزء أول

الشعر فى الاندلس

البلاغة من نظم ونثر لها غرضان غرض فنى ، وهو ما بها من الجمال الذى يدعو الانسان الى السرور والاعجاب ، وارتياح النفس الى المعانى الجزلة ، والألفاظ المختارة ، وتناسق العبارات ، وحسن الأساليب ، وتأنق التراكيب ، وغير ذلك مما ذكره العرب ونقادهم ، من أنواع المعانى والبيان البديع . ويدخل فى هذا النوع قدرة الكاتب أو الشاعر على الافتنان فى الصناعة ، ومقدار ماله من التصرف فى الكلام ، وما يدركه من أسرار هذا الفن ، مما يدل على عبقريته . وهذا الجزء الفنى من البلاغة هو أحد أركانها ، وأكبر دعائمها ، اذ بدون ذلك لاتعد البلاغة من فنون الجمال فى شىء

والغرض الثانى هو الحقيقة المنطوية فى غضون ذلك الكلام ، التى يكشف بها الفنىّ عن كثير من المعانى الخفية فى النفوس ، وأسرار الكون ، وحقائق الموجودات ، والآراء الاجتماعية والفلسفية ، وصور الانسان والانسانية . فغرض الكاتب أو الشاعر البليغ أن يتسرب فى النفوس ، ويستولى عليها بجمال الافتنان ، وينعشها ويوقظها بأسلوبه وبيانه ، ويهذبها بمعانيه وما فيها ، ليرشدها الى حقيقة من الحقائق الانسانية . ولقد يدرك الفنى مالا يدركه غيره ، لأنه دقيق الادراك ، قوى الملاحظة ، سريع الخاطر ، تخترق نفسه الحجب فيرى مالايراه غيره . لذلك يمكن أن يكون مساويا للفلاسفة أو الحكماء فى الافاضة على الانسان من أسرار الكون وحقائقه .

والعرب يميلون الى جمال القول ويقصدون الى حسن العبارة والاستيلاء على النفوس بسحر الكلام . فكان الشعر فنا عربياً جميلا ، وكان العربى شاعراً بطبيعته ، ونصيبه من أنواع الجمال قول الشعر الجميل . وكانت الفصاحة والبلاغة

مظهر الحياة النفسية العربية ودليلا على جهود العقول وآثارها . وكلما نزل العربى بمكان بذر بذرة الشعر فيه وتعهدها بالنمو ، فلما نزل أرض الأندلس غرسها هناك ، فنمت فى تلك الأرض الخصبة . فكانت كالزهرة الطيبة العَرف لقحت بأصل آخر نضير الطلعة ، فظهر فيها أرَجُ الطيب ونضارة اللون . ذلك مثل الشعر العربى فى بلاد الأندلس .

جاء الشعر بلاد الأندلس بصبغته الأولى البدوية ، وما لبث ان أخذ صبغة جديدة باتساع التصور ، واختلاف المناظر ، والاطلاع على كثير من العلوم والآراء ، والميل الى مزج الحركة العقلية بالحركة الاجتماعية . فشمل كل مظاهر الافكار ومرافق الحياة . ولكن كثيراً ما كان الشعراء يرجعون فى أساليبهم وأفكارهم الى الأساليب والافكار البدوية ، لأن العرب من أشد الأمم عصبية وحنيناً الى وطنهم وعيشتهم الأولى . اذ رغم ما كان فى نفوسهم من الأثر الذى اكتسبوه من تلك البلاد ، وما حصل لهم من الحياة التى لم يكن لهم بها عهد فى بلادهم ، كانوا لا يزالون يميلون الى أخيلتهم الأولى ، ولم يكن لهم ان يهجروا عاداتهم ، لأن العُجْب والخيلاء ، اللذين كانا لهما السلطان على عقولهم ، جعلاهم — حتى فى تلك البلاد البعيدة ، وحتى بعد عدة قرون من انتجاعهم اياها — يتغنون بذكر بلادهم ، ويتخذون الشعر القديم نموذجا لهم فى الصناعة والخيال .

والذى يقرأ الشعر الأندلسىّ يجده أخا للشعر فى بغداد ، بل وفى بلاد العرب نفسها من حيث الصفات العامة ، والموضوعات التى كانت عند القدماء [1]

على أن شعر الأندلس يمتاز فى جملته عن الشعر العربى بما فيه من المعانى المبتكرة الجميلة ، التى كان يعالجها الشعراء هناك من الوصف البديع ، والكلام الرشيق ، والذوق النقى ، والافتنان فى أساليب الخيال ، ولأنه يدل على حياتين

---

١ راجع قصيدة ابن الحداد فى مدح المعتصم فى ابن خلكان جزء ٢

ويرسم صورتين من أحوال العربى : فبينما ترى الشاعر يصبو الى ذكر بلاده الأولى من حياته البدوية، تجده يذكر الرياض والبساتين والأزهار والأنهار، والمياه الجارية وظلال الأشجار والنسيم العليل والآراء العامة والخاصة وأحوال الاجتماع والعادات

هذا العقل المزدوج من البدو والحضر ظهر فيه جمال الفطرة ونضارة الحضارة، وظهر هذا كله فى الشعر. لأن الشعر كان مسرح العقول من جد وهزل وعلم وفلسفة . ولبث منتشراً زُهاء ثمانية قرون بين الخاصة والعامة من العرب وسكان البلاد الأصليين كالقوط وغيرهم . وقال الشعر كثير من الأمراء . وسابق النساء الرجال فى ذلك، فكن أحياناً يسبقنهم، وعنى الناس هناك بالشعر عناية عظيمة ، فكانوا ينقشونه على جدران المساكن وأبنية الحكومة. واتصل بالحوادث العامة الاجتماعية . وكان من وسائل الرقى ، ومن دواعى السلم والحرب ، وفك أسر المسجونين ، والعفو عن المجرمين .

ولم تكد تخلو رسالة نثرية من الشعر ، حتى سرت عدوى الوزن والقافية الى النثر . وانتشرت طريقة السجع فى جميع المكاتبات ، وهى محلاة بأبيات من الشعر ، حتى فى الكتب العلمية ، ومكاتبات الحكومة ، واجازات السفر . وكانت صناعة الشعر لازمة ، وروايته واجبة ، لمن يريد أن يندمج فى حواشى الملوك . فقد كان الأدباء يجتمعون فى حضرتهم للانشاد والمسابقة فى ذلك ، كما كانت الحال فى حضرة عبد الرحمن الأول ومن جرى على سنته ممن جاء بعده من الملوك والأمراء ، الذين كانوا يجرون المرتبات والجوائز على الشعراء[1]

وقد كان لنشاط العرب العقلى وصفاء قرائحهم فى قول الشعر ما كان لهم من العلوم والفنون ، بل زاد ذلك فى الشعر لما لهم من ميلهم الفطرى اليه والافتنان فيه، فقد وسع كل شىء من أحوالهم الاجتماعية والنفسية . فكانوا يصفون الكبراء

---

١ راجع الكلام على الشعر فى الاندلس فى كتاب
Von Schack , Poesie und Kunst der Araber

والعلماء ، ويمدحونهم بعبارات جميلة رقيقة ، أكثرها خال من المبالغات . ويبثونه شكواهم وآلامهم ، [1] ولهم قصائد فى التقرب الى الله ومدح الرسول عليه السلام ، والزهد والتصوف والرثاء ، [2] ولهم أشعار رقيقة فى المزح والتهكم والمجون [3]

---

١ كما فى قصيدة ابن الرندى الشهيرة ورثاء ابن عبدون لبنى الافطس وشكوى المعتمد بن عباد مما اصابه فى آخر حياته

٢ راجع الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام

٣ كما فى قصيدة قاضى الجماعة بغرناطة ابى عبد الله بن على بن الازرق . نذكر منها شيئا على سبيل الفكاهة قال :

عم باتصال الزمن	ولا تبالى بمن	وهو يوالى بالرضا	من سمج أو حسن
أو من عجوز تختطى	والظهر منها منحنى	أو من مليح مسعد	موافق فى الزمن
مهما تبدى خده	يبدو لك الورد الجنى	وان تسفه نظرى	ومذهبي وتلهنى
فالصفع تستوجبه	نعم ونتف الذقن	وبعد هذا أشتفى	منك ويبرى شجنى
	واضرب الكف أمام	ذلك الوجه الدنى	
	طقطق طق طقطاق طق	اصغ بسمع الاذن	
	قحقح قح قحقح قح	الضحك يغلبنى	
أفدى صديقاً كان لى	بنفسه يسعدنى	فتارة أنصحه	وتارة ينصحنى
وتارة ألعنه	وتارة يلعننى	وربما أصفعه	وربما يصفعنى
أستغفر الله فهـ	ذا القول لا يعجبنى	ياليت هذا كله	فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بذا ال	حديث من يسمعنى	دهر تولى وانقضى	عنى كطيف الوسن
ياليتنى لم أره	وليته لم يرنى	دنست فيه جانبي	وملبسى بالدرن
وبعت فيه عيشتى	لكن ببخس الثمن	كأنى ولست أد	رى الآن ما كأننى
	والله ما التشبيه عنـ	ـد شاعر بهين	
ومنها	هل أمتطى يوما الى ال	شرق بطون السفن	
وأجتلى ماشئته	فى المنزل المؤمن	حينئذ أخلع فى	هذى القوافى رسنى
وتحسن الفكرة بال	مدوس والسمنتى	واللحم مع شحم ومع	طوابق الكبش الثنى
والبيض فى المقلاة بال	زيت اللذيذ الدهن	وجلدة الفروج مشو	يا كثير السمن
ومنها	هل للثريد عودة	الى فه شوقى	
	تغوص فيه أنملى	غوص الاكول المحسن	
ولى الى الاسفنج شو	ق دائم يطربنى	والارز الفضل اذ	تطبخه باللبن
	وللشواء والرقا	ق من هيام أتانى	

وقد نظموا التاريخ وحوادثه[1] . وبرعوا فى وصف الأبنية الفخمة وما فيها من الصور والأشكال والزينة ، ووصف القصور والحدائق ومجالس الشرب والسَّمَر والغناء والرقص . كقول الشاعر :

يارُبَّ لَيلٍ قد هتكتُ حجابَه   بزُجاجةٍ وقّادةٍ كالكوكبِ
يَسعَىٰ بها ساق أغن كأنها   من خده ورُضاب فيه الأشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه   يسعى ببدر جانح للمغرب
فاذا نعمتَ برشف بدر طالع   فأنعم ببدرٍ آخر لم يغرُبِ
حتى ترى زهر النجوم كأنها   حول المجرَّة ربربٌ فى مشرب
والليل منحصر يطير غرابُه   والصبحُ يطردُهُ ببازٍ أشهبِ

ووصفوا التنزه بالليل فى ضوء القمر ، والأشجار وغصونها ، والرياح وهى تعبث بها وظلها الظليل ، وأشعة القمر على الجداول ، وصفاء الجو ، والفاكهة والأثاث والمساكن ، والقصور والصور . كقول الشاعر :

قصرٌ بمدرجةِ النسيمِ تحدثت   فيهِ الرياضُ بسرها المستورِ

ومنها   وهات ذكر الكسكسو   فهو شريف وسنى
لاسيما ان كان مصـ   ـنوعا بفتل حسن
ومنها   وصدق غنى ذاك قا   ـة الوفا بالثمن
به خليلى هـذه   مطاعم لكننى   أعجب من ريقك اذ   يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شبعا   فذكرها أشبعنى   وان تكن جوعان يا   صاح فكل بالأذن
فليس عند شاعر   سوى كلام الألسن   يصور الأشياء وهـ   ـى أبدا لم تكن
فقوله يريك ما   ليس يرى فى الممكن   فاسمع وسامح واقتنع   واطو حشاك واسكن

راجع القصيدة فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء ثانى صحيفة ٢٠٢ . وراجع الكلام عن ابن الأزرق فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صحيفة ٩٤٠

٢ راجع الأرجوزة المذكورة لابى طالب عبد الجبار فى آخر الجزء الاول من كتاب الذخيرة

خفض الخورنق والسدير سموه ونبى قصوز الروم ذات قصور
لاث الغمام عمامة مسكية وأقام فى روض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه فافتر عن نوْر بروق ونور
فالدوح يسحب حلةمن سندس تزهى بلؤلؤ طلها المنثور
والنخل كالغيد الحسان تقرطت بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل فى حبك النسيم كأنما أبدى غضون سوالف المذعور
والبحر يرعد متنه فكأنه درع تشن بعطفي مقرور
وكأننا والقصر يجمع شملنا فى الأفق بين كواكب وبدور

ووصفوا التماثيل وبرك المياه وأوانى الأزهار. كما قال بعضهم فى دائرتين من ورد وياسمين:

ياحسنها دائرة من ياسمين كالحلى
فالورد قد قابلها فى حلة من خجل
كعاشق وحبه تغامزا بالمقل
فاحمر ذا من خجل واصفر ذا من وجل

ووصفوا الحمامات الرخامية والسباحة والنوافير والحدائق والمياه [١]
وتكلموا عن الغلمان والخدم ومجالس الخلفاء والاجتماعات العامة ومجالس اللهو والشرب والرقص. كما قال ابن شهيد

هاك شيخاً قاده السكر لما قام فى رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتاً فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفرداً نقرس أخنى عليه فاتكا
من وزير فيهم رقاصة قام للسكر يناغى ملكا

١ راجع وصف ابن حمديس فى نفح الطيب طبع أروبا ج ١ ص ٣٢١

أنا لو كنتُ كما تعرفُني ... قمتُ اجلالا على رأسى لكا

قهقه الابريق منى ضاحكا ... ورأى رَعشة رجلى فبكي

وتكلموا عن آلات الطرب وكل أنواع السرور والفرح، ووصفوا ميادين الحروب واهوال القتال والنضال، والشجاعة والجبن والاقدام، والنصر والخذلان. ووصفوا النفوس ومايجول بها من الميول والأهواء ومايحدث فيها من لذة وألم والعشق وأثره فى النفس. كما قال الشاعر:

قُبلة كانت على دَهش ... أذهبت مابى من العطش

ولها فى القلب منزلةٌ ... لوعدتها النفس لم تَطشِ

طرقتنى والدجى لبست ... خلعاً من جِلدة الحبش

وكأن النجوم حين بدت ... درهم فى كف مرتعش [1]

وبرعوا فى هذا النوع براعة لاتجارى حتى أتوا بالغرائب من المعانى الجزلة التى تثير النفوس وتحملها على التعشق كما قال الشاعر:

---

١ وكقول بعضهم:

بتنا كأن حداد الليل شملتنا ... حتى بدا الليل فى ثوب سحولى

كأن ليلتنا والصبح يتبعها ... زنجية هربت أمام رومى

وكقول الشاعر

ولماتجلى الليل والبرق لامع ... كما سل زنجى حساما من التبر

وكقوله فى وصف زنجى يسقيهم

وزنجى اتى بقضيب نور ... وقدزفت لنابنت الكروم

فقال فتى من الفتيان صفه ... فقلت الليل اقبل بالنجوم

وكقولهم فى ملاقاة الاحبة وأوقات الوصل

وواعدتها والشمس تجنح للندى ... يزورتها شمساً وبدر الدجى يسرى

فجاءت كماتمشى سنى الصبح فى الدجا ... وطورا كما مر النسيم على النهر

فعطرت الافاق حولى فأشعرت ... بمقدمها والعرف يشعر بالزهر

فتابعت بالتقبيل آثار سعيها ... كما يتقصى قارىء أحرف السطر

غصبوا الصباحَ فقسموه خدوداً ... واستنهبوا قُضْبَ الأراكِ قدوداً
ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم ... فاستبدلوا منه النجوم عقوداً
واستودعوا حدَقَ المهَى أجفانهم ... فسبوْا بهن ضراغماً وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والظُبا ... حتى استعاروا أعيناً ونهوداً
وتضافروا بضفائرٍ أبدوْا لنا ... ضوء النهار بليلها معقوداً
صاغوا الثغور من الأقاحي بينها ... ماء الحياة لو اغتدي موروداً

ولهم خيالات مبتكرة وعبارات طلية خصوصاً في الوصف ، كقول ابن شُهيد :

فكأن النجوم بالليل جيش ... دخلت للكمون في جوف غاب
وكأن الصباح قانص طير ... قبضت كفه برجل غراب

ومن أبدع كلامهم في الوصف الجميل والشعر الذي لا يجارى في طريق الخيال والابتكار، ورقة العبارة وحسن الأسلوب، وجزالة المعنى ،قول أبي الفضل بن شرف القيرواني [١] :

مطَلَ الليلُ بوعد الفلقِ ... وتشكي النجم طول الأرقِ
ضربت ريح الصَّبا مسك الدجى ... فاستفاض الروض طِيبَ العبَقِ
وألاح الفجر خداً خجلا ... جال من رشح الندى في عرقِ
جاوز الليل الى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورقِ
واستفاض الصبح فيها فيضة ... أيقن النجم لها بالغرقِ
فانجلى ذاك السنا عن حلَكٍ ... وانمحى ذاك الدجى عن شفقِ
بأبي بعد الكرى طيف سري ... طارقا عن سكن لم يُطرقِ
زارني والليل ناعٍ سدفَهُ ... وهو مطلوب بباقي الرمقِ

---

١ راجع القصيدة في الجزء الثاني من نفح الطيب طبع أوروبا صفحة ٢٦٧

ودموع الطّل تمريها الصّبا وجفون الروض غرقى الحدقِ
فتأتى فى أزار نابت وتثنى فى وشاح قلقِ
وتجلى وجهه عن شعره فتجلى فلق عن غسقِ
نهب الصبحُ دجى ليلته فحبا الخدَّ ببعض الشفقِ
سلبت عيناه حدّىْ سيفه وتحلى خده بالرونق

ووصفوا الكنائس والأديرة والقسس. كما قالوا عن ابن شهيد «انه بات ليلة باحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس، وعرشت بسرور واستيناس وقرع النواقيس يبهج سمعه، وبرق الحميا يسرج لمه، والقس قد برز فى عبدة المسيح، متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح وطرحوا النعم كل اطراح

لا يعمدون الى ماء بآنية الا اغترافا من الغدران بالراح

وأقام منهم يعملها حميا، كأنما يرشف من كاسها شفة لمياء، وهى تنفح له بأطيب عرف، كلما رشفها أعذب رشف، ثم ارتجل بعد ما ارتحل:

ولرب حان قد شممت بديره خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم متصاغرين تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مُقامنا يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مُخفَّرٍ كالخشفِ خفَّره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم لسلافه والأكل من خنزيره»

أما الأزجال والموشحات وغيرها من الأوزان التى ابتكروها فى الشعر العربى، والمقطوعات الشعرية جدية أو هزلية أو اجتماعية، فحدث عن البحر ولا حرج. فقد أظهروا من البراعة فى ذلك مالا يقدر عليه الا نفوس خلقت شعرية بطبيعتها وشاعرة بفطرتها. وقد سرت هذه الأنواع الى المشرق فأحدثت حركة جديدة فى الشعر العربى، مما سنذكره فى موضعه

أبو عامر بن شهيد

هو أبو عامر أحمد بن أبى مروان بن شُهيد حفيد ذى الوزارتين أحمد بن عبدالملك بن شُهيد وزير الناصر.[1] ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ ﻫ ومات سنة ٤٢٦ فعاش فى أزهى عصور اللغة والأدب فى الأندلس ، وفى عصر كان للمجون فيه سلطان عظيم على النفوس ، وكان الأدباء أكرم الناس وأكثرهم اقبالاً على ذلك ، يجرون وراء أغراض الناس وأهوائهم ، فانصبغت عقولهم بصبغة اللهو ، وانصرفوا الى وصف هذه المجتمعات والمحافل ، وأخذ الشعر والنثر تلك الصبغة الهزلية التى جعلته خفيف الروح ، عذب المذاق ، سهلا رشيقاً ، جميل البزّة والأسلوب ، مشتملا على كثير من أحوال الاجتماع وعادات الناس .

وكان أبو عامر من أعلم الناس متفنناً فى علوم الأدب ، بارعاً فى صناعة النظم

---

١ هو أحمد بن عبدالملك بن شهيد الاشجعى الاندلسى القرطبى وزير عبد الرحمن الناصر وهو أول من تسمى بذى الوزارتين . وكانت له دالة على عبد الرحمن الثالث ومنزلة رفيعة لديه . فتصرف فى الوزارة كيفما شاء . واشتهر شهرة عظيمة فى سياسة الملك . كما طار صيته وعلا ذكره بين الادباء . فكان من اكتب الكتاب وأشعر الشعراء . وقد كان هو وحفيده ابو عامر من أنبغ كتاب الاندلس وأظهرهم ميزة فى الكتابة والشعر ولا سيما فى الاساليب القصصية من جدية وهزلية كما أشرنا الى ذلك . وهو صاحب الهدية المشهورة التى أهداها للناصر (راجع صفحة ١٩) وقد عاش فى كنف عبد الرحمن الناصر فكانت بينهما صداقة وصلة ودية وكان يدل أحدهما على الآخر .

ويخيل الى من يطلع على حياة ابن شهيد هذا انه كان يصرف كل أوقاته فى اللهو واللعب على الرغم مما اشتهر به من الكياسة فى سياسة الدولة . فقد كانت بينه وبين الناصر مداعبات تدل على ذلك (راجع اخباره مع الناصر واهداءه الغلام فى نفح الطيب طبع أوروبا جزء أول صفحة ٢٢٢) وله أخبار وأشعار كثيرة فى نفح الطيب

والنثر . فكانت له منزلة رفيعة وابتكارات بديعة ، وأساليب راقية فى فنى المنظوم والمنثور ، حتى فاق جده فى ذلك .

وبرع فى أسلوب الرسائل القصصية النادرة المثل فى الكتابة العربية ، وربما انفرد فى نوعها ، مما يدل على ميله الى الأسلوب القصصى وابتكاره الفنى . ولقد تحسب هذه الرسائل فذة فى اللغة العربية على الرغم مما فى بعضها من المشابهة برسالة الغفران لأبى العلاء ، من حيث الأسلوب والموضوع . كما فى رسالة « التوابع والزوابع » . وقد ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة نقلا عن ابن حيّان بأنه « كان فى تنميق الهزل والنادرة ... أقدر منه على سائر ذلك وشعره حسن عند أهل النقد ، تصرف فيه تصرف المطبوعين ... وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ... وكان فى سرعة البديهة ، وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشى كلامه وسهولة ألفاظه ... آية من آيات خالقه ... وكان له انهماك فى شرب وبطالة » .[1] وقد اتصل بالمؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر وكتب له رسائل طويلة بها قصائد جميلة يمدحه فيها ويتملقه كثيراً . نذكر منها أبيات من قصيدة بدأها بنوع من الوصف البديع لروضة من الرياض ، وما بها من لهو ونعيم وجوار وخدم ، وتخلص من ذلك الى الدخول على مدح المؤتمن فمدحه بما لا يكون الا على لسان مثله .

ولقد يرى القارىء فى قصيدة ابن شهيد هذه روحا شعرية جديدة يلمح من خلالها نفس الشاعر وما له من القدرة على امتلاك المعانى ، والتصرف فيها ، وكأنما يقول ذلك بلا روية ولا تكلف ، أو كأنه يعارض أبا نواس فى أسلوبه . قال بهذه أبيات :

---

١ فى النسخة المخطوطة خطأ كثير فى بعض الجمل والالفاظ حذفنا منها مالم يمكننا فهمه ووضعنا محله نقطا وأصلحنا ما ظهر انه محرف . وقد تدل النقط على حذف عدة جمل للاختصار . وفعلنا مثل ذلك فيما اخترناه من شعر ابن شهيد وربما أهملنا وضع النقط فى حذف بعض الابيات

وردٌ كما خجلت خدو دُ العين من لحظات هائمْ
وشقيقُ نُعمان شكت صفحاته من لطم لاطمْ
وغصون أشجار حكتْ رقصَ المآتم للمآتمْ
بكرَ الحسانُ يردنها من كل واضحة الملاغمْ
وضحكن عُجبًا فالتقتْ فيها المباسمُ بالمباسمْ
ضكحتْ وأزعجَ بارقٌ فظلتْ للبرقين شائمْ
وتكاوست فيها الأبا رقُ وهي فاهقةُ الحلاقمْ
وكأنها أظبٍ رعفنَ فنَّ نَ دامية الخياشمْ
وعلا بنا سُكر أبى الا الانابةَ للمحارمْ
نرمي فلانُسنا لهُ ونجرُّ من عذب العمائمْ
وترنمت فيها القيا نُ لنا ورجّعت البواغمْ
قُمنا نصفّقُ بالأكف لها ونرقصُ بالجماجمْ
وأعدْنَ من سدن الملو ك سليل أقيال خضارمْ
يشكو الرعاةَ تنعُماً ويضجُّ من حمل التمائمْ
لا تستحيه الراشفا تُ ولا تباليه اللوائمْ
يُخفينه نمرَ النحو ر ويمترين به المحارمْ
متجاهلات أنهُ يهوي وهن به عوالمْ
لازمت باب محله والنجحُ من قنص الملازمْ
حتى اذا وقفت بنا عُجزُ الحواضن والخوادمْ
ألقيت من أخذي لهُ وتلوت من سور العزائمْ
وأقدته بشكائمي فانقادَ من تلك الشكائمْ

فوردتُ جنـاتِ المنى   وكرمتُ عن لوم الملائمْ
وأغـرّ قد لبس الدجى   بُرْدا فراقك وهو فاحمْ
يحكي لغُرته هــلا   ل الفطر لاح لعين صائم
وكأنما خاض الصبا   ح نجـاء مبيض القوائمْ
ويسير فى يبس الكرى   وكأنه فى الصبح عائم
حتى اذا علَمُ الصـبا   ح أنار من تلك المعالمْ
وتمايلت أيدى الثريا وهـى مُذهبـةُ الخـواتمْ
ورمت ذُكاه بناظر   رمدٍ من الأقذاء سالمْ

فاذا وصف وجدته يقظا قويّ الملاحظة ، لا يصف الأوصاف العامة كأكثر الشعراء ، ولكنه يصف مايراه وصفاً دقيقاً ، كالمصور يصور ماهو أمامه . وتلك صفة من صفات الرجال الفنيين

ولقد يقرأ الانسان شعره فكأنه فى هَرْج ومَرْج . وكأنما الكؤوس تدور ، والنفوس تثور ، والعزائم تخور ، والعقول ، ثملة والحياة كلها جنة ونعيم كما قال :

أذّنَ الديكُ فتُب أو توَّبِ   وانضح القلبَ بماء العنبِ
وتأمَّـــل آيةً معجـزةً   ما قرأنا مثلها فى الـكتبِ
ركع الابريق من طاعتـهِ   وبكي فابتل ثوبُ الأكوبِ
ولَولَ المزهَرَ ينفى كرَبى   وتطربت فأعيي طربِى
وربيب قام فينـا ساقياً   كالرشا أرضع بين الرَّبْرَبِ
ظبيةٌ دون الظباء قُصِّصَتْ   فأتت غيداء فى شكل صبى
فتح الوردُ على صفحتها   وحماه صدغها بالعقرب

فمشتْ نحوى وقد ملّكتُها   مِشيَة العصفور نحوَ الثعلبِ
وغمامٌ باكرتنا غيمه   تترع الأفق بدمع صيِّبِ
مثلَ بحر جاءنا من فوقنا   جِرمه من لؤلؤ لم يثقب

واذا هو ينتقل الى المدح، كما ينتقل الانسان من ظل الأشجار الى خرير المياه والأنهار:

فسألناه وقد أعجبنا   حشوُه العينَ برأى معجب
أنت ماذا ؟ قال مزْن علمت   كفُّه النفحة كفا درِبِ
رامنى بالشوق أن أسقيكم   رحمة منه بأقصى المغرب
فسألناه أين ذاك لنا   قال هل يخفى ضياء الكوكب
ملكٌ ناصبَ من خالفكم   عامرى المنتمى والمنصب

الى ان قال:

أنجبته للمعالى أسرة   نزلوا للمجد أعلى الرتب
بنفوس من سناء غضة   فى جسوم غضة من حسب
ووجوه مشرقات أومضت   ضاحكات فى وجوه الكُرَب
لهم أيام حرب كثرت   فى عداهم داعيات الحَرَب

هذا أسلوبه فى الشعر، ولولا خوف الملل من الاطالة لذكرنا كثيراً من شعره.[1]

أما نثره فأعجب من شعره من حيث أسلوبه الخيالى القصصىّ والميل الى ذلك. وان كان شعره أبلغ من نثره من حيث الديباجه والعذوبة

وقد كتب رسالة هى أشبه برسالة الغفران، من حيث أسلوبها الأدبى

---

١ أخباره مبسوطة مع شعره ونثره فى الجزء الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام وفى نفح الطيب ومطمح الأنفس

وسماها « التوابع والزوابع » ولعل ابن شُهيد كان يقلد أبا العلاء في ذلك ، لانه أدرك عصره ولان شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب . وكان أهل الاندلس يقلدون أهل المشرق في كل شيء . [١]

كتب أبو عامر بن شُهيد هذه الرسالة الى صديقه ابن حزم . فقد عاش في عصر أبي بكر بن حزم هذا اقتصاداً وتحاباً . وكان لكل منهما دالة على صاحبه . وكل منهما أديب وعالم ، لا تمر بأحدهما لحظة من لحظات الحياة الا كانت له فيها جولة فكر ونظر . وكانت بينهما رسائل ومكاتبات يعرضون فيها آراءهم وما يجول بنفوسهم . [٢] فكانت عقولهم في حركة مستمرة من الجد الى الهزل ، ومن اللهو والمزح الى مسائل الأدب والدين . ولذلك نجد أحدهم يؤلف في علوم الدين ، ونجده يكتب في الهزل والمجون ، ونجده عالما وفيلسوفا وشاعراً وتقياً وعاشقاً . فكانوا يأخذون من كل فن بطرف . وكانت تربيتهم العقلية تربية علمية وفنية معاً مبنية على حب الاستطلاع والبحث ، وعلى الرغبة في سرور النفس وارتياحها بآثار الفنون الرائعة . فكانت أخيلتهم مهذبة مصقولة ، وآراؤهم بديعة وأساليبهم رشيقة ، وابتكاراتهم عجيبة

والظاهر أنه كان للفلسفة اليونانية وقراءتها وأساليبها أثر عظيم في نفوسهم . ولعل أسلوب المحادثة والمناقشة الذي نجده في بعض الرسائل هناك كان مقتبساً من مثل أسلوب أفلاطون في بعض كتبه ، لأنه أسلوب جديد من الأساليب التي حدثت في اللغة العربية

---

١ ادرك ابن شهيد عصر ابي العلاء فقد عاش من سنة ٣٨٢ الى سنة ٤٢٦ وعاش ابو العلاء المعري من سنه ٣٦٣ الى سنة ٤٤٩

٢ قال ابن خلكان وكان بينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومداعبات وله التصانيف الغريبة . منها كتاب كشف الدك وأيضاح الشك ومنها التوابع والزوابع .. ومنها حانوت عطار وغير ذلك أدرك ابن شهيد ... الخ

أما الأسلوب الذى كتبت به رسالة ابن شهيد فهو أسلوب خيالى تهكمى ويسميه الأدباء أسلوباً هزلياً . كما ذكر ابن بسام أثناء كلامه عن ابن شهيد: «فصول من رسالة سماها بالتوابع والزوابع صدرت عنه مصدر هزل تشتمل على بدائع وروائع»

وهذه الرسالة عبارة عن عرض صورة عامة للأدب والأدباء ونقد شعرهم نقدا بيانياً مبنيا على مايعطيه اللفظ والديباجة من الجمال ، وما توحيه معانى هذه الألفاظ من الروعة والاعجاب ، على حسب ماهو معروف من أساليب النقد عند أدباء العرب .

وله فيها شعر رقيق وأسلوب جميل ، بشكل محادثات بينه وبين الشعراء المعروفين . فهى أشبه بقصة أدبية مملوءة بصور الأدباء والشعراء

قال فى صدرها: « كنت ... أحن الى الآداب ، وأصبو الى تأليف الكلام ، فاتبعت الدواوين ، وجلست الى الأساتيذ ، فنبض فىّ عرق الفهم ، ودرّ لى شريان العلم ... ، وقليل الالتماح[1] من النظر يؤيدنى ، ويسير المطالعة من الكتب يفيدنى ، اذ صادف شنّ العلم منى طبقة ، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً ، ولا كالحمار يحمل أسفاراً ، فطعنت ثغرة العلم دراكا ،[2] وأعلقت أرجل طيره اشراكا ، فانثالت[3] لى العجائب ، وانهالت الرغائب . وكان لى أوائل صبوتى هوى اشتد له كلفى ، ثم لحقنى بعض ملل فى أثناء ذلك الميل . فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال ، فجزعت وأخذت فى رثائه ، ... فقلت

تولى الحمام[4] بظبى الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير[5]

الى ان انتهيت الى الاعتذار من الملل الذى كان فقلت :

وكنت ملالتك لا عن قلًى[6] ولا عن فساد ثوى فى الضمير

---

١ النظر الخفيف ٢ من المداركة وهى المتابعة ٣ تتابعت وكثرت ٤ الحمام الموت ٥ الغرير المخدوع ٦ القلى البغض

فأرتج على القول . فاذا أنا بفارس بباب المجلس ، على فرس أدهم[١] كأنما بقل[٢] وجهه ، قد اتكأ على رمحه ، وصاح بى : أعجزا يافتى الانس؟ فقلت لا وأبيك، للكلام أحيان ، وهذا شأن الانسان . فقال قل بعده

كمثل ملال الفتى للنعيم   اذا دام فيه وحال السرور

فأثبت اجازته[٣] . وقلت بأبى من أنت ؟ قال زهير بن نمير من أشجع الجن ، تصورت لك رغبة فى اصطفائك . قلت أهلا بك أيها الوجه الوضاح ، صادفت قلبا اليك مقلوبا . وهوى نحوك محبوبا ، وتحادثنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع[٤] . وقلت له هل حيلة فى لقاء من اتفق منهم ؟ قال حتى أستأذن شيخنا . وطار عنى . ثم انصرف وقد أذن له .فقال حُل على متن الأدهم . فسرنا عليه ، وسار بنا كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدو فالدو[٥] ، حتى لمحت أرضا لا كأرضنا ، وشارفت جواً لا كجونا ، متفرع الشجر ، عطر الزَّهَر . فقال حللت أرض الجن أبا عامر ، فبمن تريد أن تبدأ ؟ قلت الخطباء أولى بالتقديم . لكنى الى الشعراء أشوق . قال فمن تريد منهم ؟ قلت صاحب امرىء القيس .فأمال العنان الى ، واذا وادٍ ذى دوح[٦] تتكسر أشجاره ، وتترنم أطياره . فصاح ياعُتيبة بن نوفل ، بسِقط اللوى وبحومل ويوم دارة جُلجُل الا ما عرضت لنا ، وسمعت من الإنسى وعرفتنا كيف إجازتك له . فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب . فقال حياك الله يازهير وحيا صاحبك . أهذا هو؟ قال هو هـذا وأبى جرة ياعُتيبة . قال أنشد . قلت السيد أولى بالأنشاد . فتطامح طرفه ، واهتز عطفه ، وقبض عنان الشقراء وضربها بالسوط ... وجعل ينشد:

سمالك شوق بعد ما كان أقصرا

---

١ أدهم أسود ٢ نبت عذاره ٣ أنفذت رأيه ٤ الزوبعة الشيطان أو رئيس الجن
٥ الدو الفلاة ٦ الشجر العظيم

حتى أكملها ثم قال لى أنشد . فهممت بالحيصة[1] . ثم اشتدت قوى نفسى. وأنشدت :

شجته مغانٍ من سُليمى وأدؤر

حتى انتهيت الى قولى :

ومن قنّة[2] لا يدرك الطرف رأسها ... تزل بها ريح الصبا فتحدر
تكنفتها والليل قد جاش بحره ... وقد جعلت أمواجه تتكسر
ومن تحت حضن أبيض ذو شقائق ... وفى الكف من عسالة[3] الخط أسمر
هما صاحباى من لدن كنت يافعا ... مقيلان من جد الفتى حين يعثر»

الى آخر ما قال

وهكذا أخذ فى عرض أحوال الشعراء بطريقة خيالية لذيذة . ولكنها تكاد تكون خالية من كل نقد أو رأى له . وليس فيها الاجمال العبارة ، وسهولة الاسلوب ، ووضعها هذا الوضع القصصىّ الذى يدل على سعة خياله، وبلوغه منزلة رفيعة فى هذا الأسلوب الأدبى الصرف . على أنه يميل الى مدح نفسه وعرض شعره ، ويتخذ ذلك وسيلة من وسائل الأعجاب بكلامه . وقد برع فى وصف أحوال الشعراء الذين ذاكرهم ووصف حياتهم وميولهم النفسية ، وكأن لكلامه ألوانا ترسم أحوالهم المختلفة ، وتميز بعضها من بعض ، أو كأنما استعرض أمامه هذه البيئات والمناظر وأخذ يرسمها بقلمه . كما قال عن أبى نواس :

« ثم قال لى زهير: من تريد بعده ؟ قلت صاحب أبى نواس. قال هو بدير حنة ، قد غلب عليه الخمر . فركضنا ساعة وجزنا فى ممرنا بقصر قد أمه . فقلت لمن هذا القصر يازهير ؟ قال لطوق بن مالك أبى الطبع صاحب البحترى ، فهل لك فى أن تراه؟ قلت أجل. انه من أساتيذى. وقد كنت أنسيته. فصاح ياأبا الطبع. نخرج الينا

---

١ بالهرب ٢ قنة الجبل ٣ السيف

فتى على فرس أشعل [١] بيده قناة ، فقال له زهير انك موفق ، قال لا ، صاحبك أشمخ مارنا من ذلك لولا تنقصه. قلت يا أبا الطبع ان الرجال لا تكال بالقفزان ، أنشدنا من شعرك فأنشد : ما على الركب من وقوف الركاب

حتى أكملها ثم قال : هات ان كنت شيئاً فأنشدته.

هذه دار زينبٍ والرباب

حتى انتهيت فيها الى قولي :

فكأن النجوم بالليل جيش دخلت للكمون في جوف غاب

وكأن الصباح قانص طير قبضت كفه برجل غراب

...فكأنما غشي وجه أبي الطبع قطعة من الليل ، وكر راجعاً الى ما وراءه دون أن يسلم . فصاح به زهير أأجزته ؟ قال أجزته لا بورك فيك من زائر ...وسرنا حتى انتهينا الى أصل دير حَنّة ، فضرب زهير الأدهم . فسار بنا في قنته ففتق سمعي قرع النواقيس . فقلت فَصُحتَ [٢] من منزل أبي نواس ورب الكعبة ... وسرنا نجتاب أدياراً وكنائس ، وحانات الى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك نوافحه . فوقف زهير ببابه : وصاح سلام على أهل دير حنة . فقلت أوسرنا بذات الأُكَيراح قال نعم . وأرقلت نحونا الرهابين ، مشدودة الزنانير ، قد قبضت على العكاكيز مبيضة الحواجب واللحى ..... ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح . فقالوا أهلا بك يا زهير من زائر ، وصاحب أبي عامر . ما بغيتك ؟ قال حَسن الدنان . قالوا انه لفي شرك الخمرة ، منذ أيام عشرة . وما نراكما منتفعين به ، فقال وعليّ ذلك . ونزلنا وقاد بنا الى بيت قد اصطفت دنانه ، وعكفت غزلانه ، وفي ديرحنة شيخ طويل الوجه والسَّبَلة [٣] ، قد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، وبيده طرجهارة [٤] ، وحواليه صبية كالظباء ، تعطو الى عرارة [٥] . فصاح به زهير ، حياك الله أبا الاحسان . فجاوب جوابا لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لي زهير اقرع أذنيه

١ في ذنبه بياض ٢ يريد أن ما به يفصح ويدل على منزل أبي نواس ٣ الشارب ٤ شبه كأس يشرب فيه وفي النسخة الخطية طرجهارة ولعلها محرفة ٥ لعلها عرعارة وهي لعبة للصبيان . وظبي يعطو اذا رفع يديه ليتناول الشجر . فهو يشبه الصبية بالظباء التي تلعب

باحدى خمرياتك ، فانه ربما تنبه لبعض ذلك . فصحت أنشد من كلام أبي طويلة:

ولرب حان قد ادرت بديره ‏ خمر الصبا مزجت بصفو خموره
فى فتية جعلوا الزقاق [١] تكاءهم ‏ متصاغرين تخشعا لكبيره
والى علىّ بطرفه وبكفه ‏ فأمال من رأسى لعب كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ‏ ففتحت من عينى لرجع هديره

فصاح من حبائل نشوته : أأشجعى ؟ قلت أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحا فشرب منه وغسل وجهه، فأفاق واعتذر الى من حاله، فأدركتنى مهابته، وأخذت فى اجلاله لمكانه من العلم والشعر . فقال انشد حتى أنشدك . فقلت ان ذلك أشد لتأنيسى على أنه ما بعدك لمحسن احسان فأنشد :

يادير حنة من ذات الأكيراح [٢] ‏ من يصح عنك فانى لست بالصاح
يعتاده كل محفو مفارقه [٣] ‏ من الدهان عليها سحق امساح [٤]
لا يدلفون الى ماء بسانية [٥] ‏ الا اغترافاً من الغدران بالراح

ثم قال لى انشد . فقلت وهل تركت للانشاد موضعاً. قال لا بد لك .. فانشدت

أصباح شيم أم برق بدا ‏ أم سنا المحبوب أورى زندا
هب من رقدته منكسراً ‏ مسبلا للكم مرخ للردا
يمسح النعسة من عينى رشا ‏ صائد فى كل يوم أسدا
قلت هب لى ياحبيبى قبلة ‏ تشفنى من غم تبريح الصدا
فانثنى يهتز من منكبه ‏ قائلا : لا ، ثم أعطانى اليدا
كلما كلمنى قبلته ‏ فهو لما قال قولا رددا
كاد أن يرجع من لثمى له ‏ وارتشافى الثغر منه أدردا [٦]
قال لى يلعب : خذ لى طائراً ‏ فتراني الدهر أجرى بالكدا
واذا استنجزت يوما وعده ‏ قال لى يمطل : ذكرنى غدا

---

١ جمع زق وهو وعاء الخمر ٢ هى بيوت صغار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال لاحدهما دير عبد وللاخر دير حنة وهو موضع بظاهر الكوفة كثير البساتين والرياض
٣ خالية من الشعر ٤ الثوب البالى ٥ الدلو العظيم ٦ بدون أسنان

شربت أعطافه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عربدا»

ولقد بلغ فى هذا من دقة التعبير وبلوغ المعنى الذى قصده مبلغاً تشعر به النفوس وكأنما ترى بعينك المعنى أو تلمسه بيديك ، أو كأنك واقف معه ترى مايراه هو ويذكره فى شعره ، أو كأنك تنظر الى صورة واضحة تبين لك أجزاؤها بألوانها المختلفة كل دقيق وعظيم .

وله رسالة فى الحلواء غير معهودة المثال فى الكتابة العربية جرى فيها مجرى المجون والهزل والفكاهة . ذكرها ابن بسام فى الجزء الأول من الذخيرة .

***

وكان ابن شُهيد مع هذا من كبار رجال الأدب وأهل النقد . وله آراء تدل على فكره الثاقب وعلمه الواسع فى طرق النقد الأدبى . وكأنها آراء مبنية على نظر عميق أو دراسة فنية أو علمية . وفى رأينا ان آراءه فى النقد أكبر ميزة من شعره ونثره : لأنها تدل على سعة اطلاعه وابتكاره الخالص من كل تقليد ، فقد انفرد بين نقاد الأدب العربى فى ذلك . قال أبو عامر :

«اقامة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع معوزنه من هذين . ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه . فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه ، كان مطبوعا روحانياً يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيآتها ..... ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه والغالب عليه جسمه ، كان مايطلع فى تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى التمام والكمال وحسن الرونق . فمن كانت نفسه المستولية على جسمة ، فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائقة من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس. فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب : أن يتركب الحسن من غير الحسن . كقول امرىء القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

فهذه الديباجة اذا تطلب لها أصلا من غريب معنى لم تجده . ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ماترى »

هذا شيء طريف فى النقد الأدبى عند العرب ، وكأنه يشير الى مذهب النقاد الذين يأخذون صور الكُتَّاب من كتاباتهم ، ويقولون ان البلاغة من نثر ونظم تدل على نفوس البلغاء . وفى هذا الكلام اشارة الى مذهب على فى النقد: وهو الأعضاء « ووظائفها » واتصالها بالادراك . وذلك ان كان ليس مبنياً على تجارب علمية أو على دراسة فنية فهى أفكار جالت فى نفسه تدل على قوة الفكر لديه . وهو يميل الى أن الافتنان فى الكلام ، أو البراعة فى النظم والنثر ، أو مايسمونه بالبلاغة ، نوع من الالهام ، أو شيء من الغيبيات أو سر من أسرار النفوس . وهذه الآراء هى أصول مذاهب النقد الادبى ، وأصول معرفة الكلام البليغ وشرحه كما قال :

« وقال الجاحظ انا اذا اكثرينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهماً فى الشهر . ولو أكترينا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف درهم . ولم يقل هذا الا وقد ألف كتاب « البيان » . ولو كشف فيه عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج ، لأرى كيف وضعُ الكلام وتنزيل البيان ، وكيف التوصل الى حسن الابتداء ، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع بأنها معانى الصنعة ، ومواضع مفاتيح الطريقة »

فمذهبه فى النقد وسط ، لأنه يرى أن البلاغة شيء روحانى كما قال « فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطلع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها . الخ » ويرى ان لهذا السر الروحى عُدداً وأهبة . قال :

« جلس الىَّ يوماً يوسف الاسرائيلى وكان أفهم تلميذ مر بى وأنا أوصى رجلاً عزيزاً علىَّ من أهل قرطبة ، وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام . فاذا جاور

النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة واذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت المخابر . أفهمت ؟ قال لى أى والله . قلت ، وللعربيـة اذا طلبت وللفصاحة اذا التمست قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن تنكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال نعم . قلت وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب عن قبيحه . قال أجل . قلت أتفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك انى يوم بانوا فلم أمت ‌ ‌ ‌ ‌ خفاتاً[1] على آثارهم لصبور
غداة التقينا اذ رميت بنظرة ‌ ‌ ‌ ‌ ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها ‌ ‌ ‌ ‌ لناظرها غصن براح مطير

فقال لى أى والله وقعت خفاتا موقعا لذيذا ، ووضعت رميت ومتن الطريق موضعا مليحا ، وسرى غصن براح مطير مسرى لطيفا » الى آخر ماقال.

وكان يميل الى القول بان الأذواق تتفاوت وتختلف . وهذه قاعدة عامة فى كل الفنون ، بل هذا أساس الفنون جميعا . قال : وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله ، فتصادف منه حالة لاتتسع له فى كبير مبرة فنشاركه و نعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمم بها البقالين ومشايخ القصابين ، فاذا قارعت أسماعهم ومازجت أفهامهم وانحلت عقدهم ، جل شخص ذلك البائس فى عيونهم . فما شئت اذ ذاك من خبز و ميرة يحشى بها كمه ، ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب فى فمه ، وتينة رطبة يسد بها حلقومه ... فلا يكاد البائس يتمم ذلك حتى يأتينا ، فيكب على أيدينا يقبلها وأطرافنا يمسحها ، راغبا فى أن نكشف له السر الذى حرك العامة فبذلت ماعندها له ، وبادرت برفدها اليه . وتعليمه ذلك النحو من انحاء الشحذ لا نستطيعه . لان هذا الذى يريده منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان » الخ

---

١ مات فجأة

وكان يرى أن للكتابة أطواراً تتناوبها، وأحوالاً تعتريها . اذ قال :

« وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نُقَل وتغاير فى العادة . ولكل طائفة من الأُمم المتعاقبة نوع من الخطابة لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه . ألا ترى لما دار حال بعض الرسم الأول فى هذا الفن الى طريق عبد الحميد وابن المقفع وسهل وأصحابهم. فالصنعة معهم أفسح باعاً وأشد ذراعاً وأنور شعاعاً ، لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح فى العلوم. ثم دار الزمان دورانا فكانت احالة أخرى الى طريقة ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات ونظرائهم ، فرقت الطباع . ثم دار الزمان فاعترى أهله للطائف صلف وبرقة الكلام كلف ، فكانت حال أخرى الى طريقة البديع ... وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة فى الصنعة بانتقال الزمان ، وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه ، وتتهيأ له قلوب أهليه . فكان من صريع الغوانى وبشار وأبى نواس وأصحابهم فى البديع ما كان من استعمال أفانينه ، والزيادة فى تفريع فنونه . ثم جاء أبو تمام فأسرف فى التجنيس وخرج عن العادة ، وطاب ذلك منه وامتثله الناس . والتوسط فى الأمر أعدل . ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغوانى عليه ، لأنه لبس ديباجة المحدثين على لأمة العرب فتركب له من الحسن بينهما ما تركب »

هذه نظرة عامة فى النقد الأدبى أو فى أطوار البلاغة العربية . يتبين منها أن ملكة النقد كانت لديه كملكة الشعر والنثر . وقد قسم الافتنان فى البلاغة الى ثلاثة أقسام . وعرف أحوال الكتاب وما يلاقونه أثناء أداء هذا الفن . قال :

« وأهل صناعة الكلام متباينون فى المنزلة ، فمنهم الذى ينظم الأوصاف ويحرز جيد اللفظ ، الا أنه يصعب عليه الكلام ، ويكد قريحة التأليف حتى أنه ربما قصر فى الوصف . وأساء الوضع. وهذا فى الأبيات القلائل نافذ ، وفى القريبة المأخذ سائر ، وفى طريقة الجمهور ذاهب . حتى اذا ازدحمت عليه ، وانحشدت اليه ، وطالبته بيناء البهجة

وشرف المنزلة، وقف وأثقل وتلاشى واضمحل ، ومنهم الكارع فى بحر الغرارة والقادح بشعاع البراعة ،الذى مرّمرّ السيل فى اندفاعه،والشؤبوب فى انصبابه،لا يشكو الفشل ،ولا يكل عن طول العمل . اذا ازدحمت فى الكلام عليه المطالب ،وعلقت بحواشى فكره المآرب ، وحشدت عليه الصعائب والغرائب ، استهل بها كاهله واضطلع بثقلها غاربه ، وأعارها من نظره لمحة ، ومن فكره قدحة . ثم رمى بها عن جانبيه ، وقد رويت بماثها . ولبست شعاع بهائها..... ومنهم من يتجافى الكلام ويروغ عن المقال ، فاذا منى به أخذ بأطراف المحاسن وشارك فى انحاء من الصنعة ، وجل ماعنده تلفيق وحيلة .وبذلك يجارى الأيام ويصاحب أبناء الزمان ، ما كان له عقل يقضى على نقصانه ، وسياسة يسود بها فحول زمانه . ومن خرج من هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان ولا يدخل فى أهل صناعة الكلام »

وقد انحى ابن شُهيد باللائمة على مذهب أهل البديع . كأن هذه الطريقة اللفظية كانت ممقوتة . أو أن ملكة النقد كانت على وشك النضج ، أو أنها كانت آخذة فى الانتقال الى طريق صحيح . قال أبو عامر .

« وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو ،وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة وقلوب كقلوب البعران، والى فطن حمئة وأذهان صدئة لامنفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدب لها فى نور البيان ، سقطت اليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليمانى فى الرقص على الايقاع والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم ، ومن لم تكن له آلة الصناعة مما هى مخصوصة بها،ولا تقوم تلك الصناعة الا بتلك الآلات . فهو كالحمار الذى لايمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رُسغه ، واستدارة حافره . ولا له بنان يجبس بها .... ولو جاز أن يكون حمار يغنى .

مابال أنجم هـذا الليل حائرة   أضلت القصد أم ليست على فلك

وشبهه من الرجال ان له حنكا ولسانا وقصبة ورئة ، لما جاز أن يوقع بالمضراب على الأوتار ، ويتمم بجس الأنامل ، ويرخي الوتر في مجرى السبابة والبنصر ، فيُبلبل بشيده ، ويُولول في ضربه على بسيطه . فهذه حالة العصابة من المعلمين : يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة ، من فساد الآلة القابلة الروحانية والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في الشريانات الى القلب ، وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي . وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة فساد الآلات الظاهرة ، كفرطحة الرأس وتسفيطه ، ..... والتواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة »

أليس في هذا دليل على اطلاع أبي عامر بن شُهيد على كتب العلم والفلسفة ، على الرغم مما فيه من الغموض ؟ وهل نجد بين أدباء العرب في النقد الأدبي هذا الطريق العلمي ؟ ان هذه لآراء ممتازة في النقد الأدبي العربي . وطريقة علمية تشبه ماحدث في الأدب عند أهل أروبا في القرن التاسع عشر . وكان هذا يكون نموذجا للنقد الصحيح وطرقه العلمية التي تصل أفكار الكاتب وآراءه بتكوينه العصبي وتركيبه الجسمي . ولكن واحدا من الادباء الذين تكلموا عن أبي عامر بن شُهيد لم يذكروا له غير «شعره الرقيق ، وأسلوبه الرشيق ، ومجونه الكثير وأدبه الوافر ... » الخ

ان ابن شُهيد من أفذاذ الادباء المفكرين الذين أنجبتهم حركة العقول والادراك في الأندلس .

الوزير ابن زيدون [1]

اقترنت الوزارة فى الاندلس بالأدب . فكان الوزير كاتباً وشاعراً . وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء . وكانت الشهرة بالكتابة والشعر وفنون الأدب وفروع العلوم من وسائل الوصول الى امتلاك الوزراة . فكان للوزراء أثر عظيم فى سير البلاغة والادب . وأصبحت منزلة الادب كمنزلة الوزراء أنفسهم فى الدولة . وظهر فى الاندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا فى مناصب الملك وتقلبوا فى مراكز الدولة . وتغلبو على شئونها . وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأهل الشورى وأعلام الحياة العقلية

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الادباء والشعراء المجيدين، أبو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومى الاندلسى القرطبى ، اشهر من عرف فى حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة فى فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان، لأنه صورة من صور الأدب فى الأندلس وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب فى بلاد المغرب

---

١ ليس لدينا عن ابن زيدون مايدلنا على شىء من حياته المنزلية أو تربيته الاولى، أو مايتيح لنا الحكم على نفسه وأصل تربيته العقلية او حياته الفكرية ولم يزد ابن خلكان عن بضعة أسطر نقلها عن كتاب الذخيرة لابن بسام . حتى أنهم لم يذكروا عن أبيه أبى بكر بن زيدون شيئا سوى أنه كان من وجوه الفقهاء بقرطبة . وقال ابن خلكان عن ابن بشكوال فى كتابه (الصلة) انه أثنى عليه وكان يكنى ابا بكر وتوفى سنة ٤٠٥ ﻫ ودفن فى قرطبة . وكل ماذكر من صفاته أنه كان يخضب بالسواد . وفى بعض كلام الشعراء الذين رثوه مايدل على أنه كان من أهل الفضل .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة فى سنة ٣٩٤ هـ وتوفى بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة تسموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن احمد بن غالب والده ، والثانى ابو بكر ابنه وكان وزيراً للمعتمد بن عباد ومات مقتولا فى آخر أيامه .وهم من أصل عربى كما أشرنا الى ذلك فى كلامنا على القبائل التى نزلت الاندلس من العرب

كان أبوه قاضيامشهوراًبين قضاة قرطبة ،وعالماًوأديباً . مات سنة ٤٠٥فكان عمر ابنه اذ ذاك احدى عشرة سنة . وكان أبوالوليد منذ حداثته ميالا الى العلم والتعليم، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلى وكانت نشأته فى قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين . وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء وأمثال العرب وحوادثها ومسائل اللغة، حتى أصبح فى مقدمة الشعراء والأدباء . واندمج فى مجالس الأدب ، فصار علماً من أعلامها ودعامة من دعائمها . وكانت قرطبة لاتزال فى أوج عزها على الرغم من أفول شمس بنى أمية بها،وأهلها فى رخاء من العيش، أكثرهم يميل الى العلم والأدب ومجالسة الادباء . فامتلأت المحافل والمجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودُعابة وميل الى المجون ، فساعده ذلك على أن يسبق غيره وأن ينال شهرة واسعة بين أترابه .

وكان للنساء أثر عظيم فى هذه المجالس . فاتجه الناس الى الاندماج فيها واستعذبوا هذا المورد ، وانصرفت همم الادباء الى التفوق فى هذا الميدان فكان لذلك أثر عظيم فى أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر . وكأنما ضاعت كل صبغة جدية فى المجامع الأدبية فجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون . وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء فجذب اليه الانظار .

وكان لولادة بنت المستكفى الخليفة الاموى شهرة عظيمة فى قرطبة لجمالها وعلمها وأدبها. فوقع ابن زيدون فى شركها ووقعت فى شركه واشتمل كل منهما على صاحبه، حتى حسد عليها وحسدها الناس عليه. وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول، فتقرب الى ولاّدة حتى آمالها اليه، واغتصبها من صديقها، وكانت ولاّدة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته بعدم الاخلاص لها، كما اتهمها بذلك أيضاً، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شتتت من شملهما وحالت بين قلوبهما. لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره واستولى على قلب ولاّدة. ثم حدث ان رجعت الى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية. ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس فكانت هذه الحال سبب اضطراب فى حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء، وأرباب الدولة وعقول الادباء وأصحاب الاقلام والمفكرين. وهذه الحادثة من أكبر الحوادث فى حياة ابن زيدون.

عاش ابن زيدون فى بيئة كلها اضطراب ودسائس، وتربى ودرج فى ذلك وتقلد الوزارة فيها، لأنه اشترك فى حوادث الاضطراب التى كانت على أثر زوال دولة بنى أمية، فكان من اشياع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذى ادعى لنفسه الملك فى قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ وعلت منزلة ابن زيدون هناك فاتخذه ابن جهور وزيراً له فملك أزمة الامور، وكان أقرب الناس الى سيده الذى استعان به كثيراً فى المسائل السياسية وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به. وحدثت حوادث أغرت عليه صدور كثير من منافسيه والحاسديه على فضله ومنزلته؛ فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلا. فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله

الحديد ،فلم يفلح فى ارضاء الامير فعزم على اعمال الحيلة والهرب من السجن .

واختفى بقرطبة الى ان استشفع بابى الوليد بن جهور عند أبيه أبى الحزم حتى شفع له . وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين فى دولته . ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقائه فى قرطبة . فهاجر الى اشبيلية سنة ٤٤١ ودخل فى حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد وبقى هناك الى آخر عمره .

هذه حياته وأخلاقه وقد ذكرها فى شعره ونثره ومنها يرى ان حركات عقله كانت تقفو ذلك خطوة بخطوه . فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة . لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية الى أقسام ثلاثة : عشقه لولاده وأثر ذلك فى نفسه وما كتبه فى هذا . ثم مدحه لابن جهور وابن عباد . ثم أثر السجن فى حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لاخلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس الى اللهو أثر عظيم في شعره . فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرع ابن زيدون في الغزل ، وكثير من شعره في ذلك كان منبعثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله واهوائه ، أذ كي ذلك كله حبه لولادة . فان عشقه هذا فتح له بابا واسعاً من الخيال قال فيه ماشاء وشاءت عواطفه أن توحي اليه . كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواعث استنهاض ملكة الشعر فيه والهاماً من الهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه الى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلتهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد ان أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد ان ائتمنه وعرف له رأيه السديد وبراعته في ادارة الأمور وسلمه زمام الدولة . ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته ، فاذا نال ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق . ولكن أعداءه تمكنوا من ابن جهور فغضب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعري أثارتها آلامه فأخذ يئن أنينا جميلا ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنها مرة شعراً ومرة نثراً ... والفني يمزج فنه دائماً بكل مايرى ويسمع ويشعر . ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الادراك ، التي اذا أنت تئن أنين الموسيقى ، واذا شكت تشكو شكاة القلوب الملوءة شعوراً

الواسعة التصور والادراك الدقيق الجميل، الذى يجعل الشكوى جميلة والكلام فيها جميلا .

كتب ابن زيدون من السجن الى صديقه أبى حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه، وهو ينهضه الأمل مرة ويقعده اليأس أخرى . ولا يترك شاردة تمر بخاطره الا أهدأ بها نفسه وتسلى بها عن آلامه . يستسلم أحيانا الى القضاء فيشعر فى نفسه براحة واطمئنان، ويقلب أمامه صحفات الايام فلا يعجب من الحوادث التى ألمت به . ويرجع الى صديقه فيسليه هو بنفسه، ويسأله ألاّ يكف عن مجونه وتسليته، لان السعادة خُلسة . ثم يعود فيذكر اعداءه وينيلهم منه ويبين ان ذلك ليس بالعجب لانه

ان قسا الدهر فللمـــاء من الصخر انبجاس

ويرى انه حسد لمكانته، ويمزج ذلك بالعبر والحكم والسخرية والتهكم من أحوال العالم وحوادث الحياة، ويرجع أنينه وألمه وحقده على الناس ولا سيما حاسديه، ويضرب المُثُل كي يسكن من نفسه، وهو فى ذلك كعادته فى الشكوى: يهبط مرة الى الدرك الأسفل من اليأس، ويترفع أخرى الى ذروة الرجاء، وكأنه فى شجار مستمر بينه وبين نفسه وشعوره . كل هذه المعانى فى أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق، يكاد يلمح الانسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول :

ما علــى ظنّيَ باسُ   يجرحُ الدهرُ ويأسو[1]
ربمــا أشرفَ بالمر   ءِ على الآمال ياسُ
ولقـد ينجيك اغفا   لٌ ويُرديك احتراسُ
والمحـاذير سـهامٌ   والمقـادير قيـاسُ[2]
ولَكَمْ أجدَى قعودٌ   ولَكَمْ أكدى التماسُ[3]
وكذا الحكم اذا ما   عز ناس ذل ناس

١ يداوى من آسى الجرح داواه ٢ قياس هنا جمع قوس ٣ اكدى بخل أو قل خيره

وبنـو الأيام أخيا ف[١] سراة[٢] وخساس[٣]
نلبس الدنيا ولـكن متعة ذاك اللباس
يا أبا حفص وما سا واك فى فهم اياس
من سـنا رأيك لى فى غسق الخطب اقتباس
ووداى لك نص لم يخالفه القيـاس
أنا حيران وللأمـ ـر وضوح والتباس
لا يكن عهدك ورداً ان عهدى لك آس
وأدر ذكرى كأسا ما امتطت كفك كاس
فعسى أن يسمح الدهـ ـر وقد طال الشماس[٤]
واغتنم صفو الليالى انما العيش اختلاس
ما ترى فى معشر حا لوا عن العهد وخاسوا[٥]
أذؤب هامت بلحمى فانتهاب وانتهاس[٦]
كلهم يسأل عن حا لى وللذئب اعتساس[٧]
ان قسا الدهر فللما ء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبوسا فللغيث احتباس
ويفت المسك فى التر ب فيوطى ويداس

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذى يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول . ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه وقافيته . بل لأنه ساحر بمعانيه وجماله . كل معنى فيه تحتاج اليه النفس

---

١ مختلفون ٢ أشراف ٣ أدنياء ٤ العصيان ٥ غدروا ٦ مثل الانتهاش وهو الاكل بمقدم الاسنان ٧ تجسس

فى مثل هذه المواقف . ولقد كانت هذه المعانى سائغة للنفس لأن الشاعر صادق فى قوله، معبر عن شعوره يرسم صورة من نفسه الحزينة المتألمة . لهذا كان الشعر جميلا .

وقد بدأ قصيدة من قصائده فى هذا بالفخر بنفسه ، وأمعن فى ذلك، وكأنما كان يبكي حظه ويندبه بهذا الاسلوب الفخرى . أو كأنما كل معنى من هذه المعانى كانت تهدأ خاطره وتريح نفسه . فلما مدح ابن جهور مدحه فى قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدى . وقد ظهر بنفس كبيرة وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان عاتباً أشد منه مادحاً ، لانه كثيراً ما كان فى مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يملى عليها ولو همساً انه فى موقف مذلة . وكأنه كان يتسلى بهذا ، لانه يرى ان أعداوه لم ينالوا منه الا لأنه فاقهم بعلمه وفضله . حتى انه قال متهكماً .

ولو أننى أستطيع كي أرضى العدا شريت ببعض العلم حفظاً من الجهل

فقال:

ألم يأن أن يبك الغمام على مثلى ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل

وهلا أقامت أنجم الليل مأتماً لتندب فى الآفاق ماضاع من نُبلى

فلو أنصفتنى وهى أشكال همتى لألقت بأيدى الذل لما رأت ذلى

لَعَمْرُ الليالى ان يكن طال عُمرها لقد قرطست بالنَّبل فى مقتل النُّبل [1]

تحلت بآدابى وان مآربى لسارحة فى عرض امنية عُطُل [2]

اخَص لفهمى بالقلى وكأنما يبيت لذى الفهم الزمان على ذَحل [3]

وأجفى على نظمى لكل قلادة مفصلة السمطين بالمنطق الفصل

---

١ النبل بفتح النون السهم وبضمها الشرف ٢ لا فائدة فيها من عطلت المرأة اذا خلا جيدها من القلائد ٣ الذحل الحقد

ولو أنني أسطيع كي أرضي العدا شريت ببعض العلم حظاً من الجهل
وان رجائي في الأمام ابن جهور لمستحكم الاسباب مستحصد الفتل
كريم عريق في الكرام وقلما يرى الفرع الا مستمداً من الأصل
يرف على التأميل لألأ بشره كما رف لألاء الحسام على الصقل
ويغني عن المدح اكتفاء بِسَرْوه[1] غني المقلة الكحلاء عن زينة الكحل
أبا الحزم اني في عتابك مائل الى جانب تأوى اليه العلا سهل
حمائم شكوى صبحتك هوادلا تناديك من أفنان آدابي الهُدل

وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة هماً وغماً .

ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره . وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من المعاني برسالته الجدية . وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه في السجن ، فانه لم يخرج عن عادته في ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وانه أفضل انسان وأكرم من دب على وجه الارض .

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار والصدق في التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة بل به كثير من الحقائق التي كان يمليها عليه شعوره كما قال :

ماجال بعدك لحظي في سنا القمر الا ذكرتك ذكر العين بالأثر
ولا استطلت ذماء[2] الليل من أسف الا على ليلة سرت مع القصر

الى أن قال :

---

[1] رفعته وعلو شأنه [2] الذماء بقية الروح يريد مابقي من الليل

فهمت معنى الهوى من وحى طرفك لى ... ان الحوار لمفهوم من الحور

لم يسأل الناس عن حال يشاهدها ... محض العيان الذى يغنى عن الخبر

لم تطو برد شبابى كبرة وأرى ... برق المشيب اعتلى فى عارض الشعر

قبل الثلاثين اذ عهد الصبا كثب[1] ... وللشبيبة غصن غير مهتصر

يا للرزايا لقد شافهت منهلها ... غمراً[2] فما اشرب المكروه بالغمر[3]

لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره ... أنى معنى الأمانى ضايع الخطر

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ... أم الكسوف لغير الشمس والقمر

ان طال فى السجن ايداعى فلا عجب ... قد يودع الجفن حد الصارم الذكر[4]

وان يثبط أبا الحزم الرضى قدر ... عن كشف ضرى فلا عتب على القدر

من لم أزل من تأنيه على ثقة ... ولم أبت من تجنيه على حذر

وكتب الى أحد أصدقائه وهو مختف بقرطبة بعد فراره من السجن فقال «... وبلغنى أنك أحد اللائمين لى ، ومن أمثالهم: ويل للشجيّ من الخليّ[5] وهان على الأملس ما لاقى الدبر[6]. وعلمت ان العاجز من لا يستبد ، فالمرء يعجز لا محالة . ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين ، العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ، وقد قال تعالى على لسان موسى . ففررت منكم لما خفتكم . فنظرت فى مفارقة الوطن ، فقديماً ضاع الفاضل فى وطنه، وكسد العلق[7] فى معدنه . كما قال :

أضيع فى معشري وكم بلد ... يكون عود الكباء[8] من حطبه

فاستخرت الله فى انفاذ العزم . وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن ، الا ان

---

١ قريب ٢ الغمر الكثير ٣ الغمر قدح صغير يريد انه كثير البلوى ٤ سيف ذكر حاد ٥ الشجى المشغول ٦ مثل يضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن أخيه والدبر الذى فى ظهره قرحة والأملس صحيح الظهر ٧ العلق النفيس ٨ الكباء العود المتبخرة

الغى لم يرتفع، ومادة البغى لم تنقطع .

شحطنا وما بالدار نأىٌ ولا شحط ... وشط بمن نهوى المزار وما شطوا
أأحبابنا ألوَت بحادث عهدنا ... حوادث لا عهد عليها ولا شرط
لعمركم ان الزمان الذى قضى ... بشت جميع الشمل منا لمشتط
واما الكرى مذلم أزركم فهاجر ... زيارته غِبّ والمنامه فرط

الى ان قال :

هرمت وما للشيب وخط بمفرق ... ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط
وطاول سوء الحال نفسى فاذكرت ... من الروضة الغناء طاولها القحط
وانى لراج أن تعود كبدئها ... لى الشيمة الزهراء والخلق السبط [1]
وحلم امرىء تعفى الذنوب لعفوه ... وتُمحى الخطايا مثل ما محى الخط
فمالك لا تختصى بشفاعة ... يلوح على دهرى لميسمها علط [2]

الى آخر ما قال فى هذه القصيدة التى هى من أبدع قصائدالشكوى وأجمعها لذكر الماضى والحاضر والاستغفار والاستعطاف ، والسرور بذكر ما انقضى والبكاء على الحاضر ، وهى أيضاً أظهر فى لهجتها الجدية من كثير من شعره . ولذلك كانت أجف فى أسلوبها ومعانيها، ليس بها تلك الرقة المعهودة فى كلامه . كل ذلك هاجه السجن وما تذوقه من الآلام ، فرسمه فى شعره . لأنه رجل فنى عرف كيف يصور مايشعر به ويعبر عما يجول بخاطره .

ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير

---

[1] يريد الخلق الكريم يقال رجل سبط اليدين كريمهما وسبط الجسم حسن القد فهى من صفات المدح [2] الميسم أثر الحسن والعلط سواد يزين به الوجه

طويل أو علم واسع . وانما هو خياليا أكثر منه مفكرا ، وشاعرا أكثر منه عالما. وهذه كل حال شعره ونثره .

أما مدحه ورثاؤه فهما فى الدرجة الاخيرة من شعره ، لانه على جمال أسلوبه فى ذلك ، وحسن تصرفه فى المعانى ، لايكاد يعثر الانسان فيه معنى جديد ولارأى خاص ، بل يكاد يكون كل ماجاء من المعانى من قبيل معارضة غيره من الشعراء والاخذ بمعانيهم ممزوجا ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجمل قصائده فى ذلك كلامه فى المعتضد بن عباد وابنه المعتمد [1] ومن أرق كلامه فى الشكوى ، وأقرب عباراته وصولا الى القلوب بكاؤه على الماضى ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

الهوى فى طلوع تلك النجوم   والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرّنا عيشنا الرقيق الحواشى   لو يدوم السرور للمستديم
وطراً ماانقضى الى أن تقضى   زمن ما زمامه بالذميم
أيها المؤذنى بظلم الليالى   ليس يومى بواحد من ظلوم

ولقد كان ينظر الى أيامه الماضية فيحن اليها حنيناً مؤلماً ، فاذا قرأت شعره فى ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكي وبكيت معه . كما قال :

ألا هل الى الزهراء أوبة نازح   تقضت مبانيها مدامعه نزحا
مقاصير ملك أشرقت جنباتها   فخلنا العشاء الجَون [3] أثناءها صبحا
يمثل قرطيها لى الوهم جهرة   فقبتها فالكوكبَ الرحبَ فالسطحا

---

١ راجع قصيدته التى يرثى بها المعتضد ويمدح المعتمد ابنه فى نفح الطيب طبع أروبا ج ٢ صحفة ٦١٤ ٣ الجون يطلق على الأبيض والاسود والغرض منه الاسود

محل ارتياح يُذكِر الخلدَ طيبهُ ... اذاعزَّ أن يمسى الفتى فيه أو يَضحا
هناك الحمام الوُرق[1] تندى خفافها ... ظلال عهدت الدهر فيهاقى سمحا
تعوضت من شدو القيان[2] خلالها ... صدى فلوات قدأطار الكرى صبحا
ومن حملى الكأس المفدّى مديرها ... تقحمُ أهوالٍ حملت لها الرمحا

١ التى فى لونها بياض ممزوج بسواد ٢ الجوارى

الغزل فى شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع فى الأندلس، وميول النفوس واختلاط النساء بالرجال، واندماج كثير من الأديبات فى مجالس اللهو والطرب، ان المرأة شغلت جزءاً عظيماً من أوقات الرجال المفكرين، وملأت رؤوسهم كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم. فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور، والخمر تدير العقول وتملى عليها القول، وتفتح أمامها طرق التصور والخيال. والعقول ثَمِلَة بنشوة الغرام، والرؤوس مُثْقَلة بحرارة المدام، والناس لا يفوتهم الطرب، ولا يريدون أن يتواروْا عنه لعُلقته بنفوسهم، حتى فى أشد المِحَن. فقد رأينا ان ابن زيدون كتب وهو فى سجنه لصديقه أبى حفص بن برد يقول:

وأدر ذكرىَ كأساً ما امتطت كفك كاسُ

واغتنم صفو الليالى انما العيش اختلاس

وقع ابن زيدون فى شرك ولادة بنت المستكفى بالله، وكانت خليعة ماجنة بارعة فى الجمال أديبة شاعرة، ذات مكانة رفيعة بين الأدباء «تناضل الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء... خرجت على نهاية فى الأدب والظرف حضور شاهد، وحرارة أوابد، و حسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب الى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وسهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب، وطهارة أثواب، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها...» وقالوا «انها

م — ١٠

كانت بالمغرب كعلية بالمشرق ، الا أن هـذه تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها . وكان لها صنعة فى الغناء . وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمر فيه من النادر وانشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها ..... وكانت من الأدب والظَّرف، وتمتيع السمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب » فنال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هى من نفسه ، حتى كتبت اليه تضرب له موعداً فقالت :

ترقب اذا جن الظلام زيارتى   فانى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك مالو كان بالشمس لم تلح   وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل نيره أقبلت بقد كالقضيب ، وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الخجل . فملنا الى روض مدبج ، وظل سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منثور ، ورحيق الراح مزرور . فلما شببنا نارها ، وأدركت منا ثارها ، صرح كل منا بحبه وشكا ما بقلبه ... وأنشدتها :

ودع الصبر محب ودعك   ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن   زاد فى تلك الخطى اذ شيعك
ياأخا البدر سناء وسنا   حفظ الله زمانا أطلعك
ان يطل بعدك ليلى فلكم   بتُّ أشكو قصر الليل معك»

وكتبت اليه بعد ذلك تقول :

الاهل لنا من بعد هذا التفرق   سبيل فيشكو كل صب بما لقى

الى ان قالت .

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى   ولا الصبر من رق التشوق معتقى
سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا   بكل سكوب هاطل الوبل مغدق

لانريد الآن أن نتكلم فى العشق وأثره فى النفس وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس ، فان تاريخ الانسانية حافل بحوادثه . ولكنا نقول ان العشق فى كلام العرب أو شعر الغزل كما يسموونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذى هو وحى النفوس وجمال الادراك الانسانى ، أكثر ما يكون ظهوراً فى التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الانسانى الذى نسميه عشقاً ، . فان العشق ادراك أكبر مظاهر الجمال فى الحياة . ومن لم يفتح قلبه يوماً ما ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم يرغير ظواهرها ولم يتسرب الى نفسه بصيص ضوء من جمال الكون . ان جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس فى التآلف ، وكثير من آمال الناس فى تلك الصلة النفيسة . والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن فى الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالى الجميل . لذلك كان أجمل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الانسان وأخلاقه وآلامه وآماله .

ان النساء منبع من منابع الشعر . والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات لديهم وهى وصف شعور الناس . والشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وانما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم . وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين . ان الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات ما يجول بها من المعانى ويدفعها الى النفوس فتصبو اليها ، ويذيعها بين العشاق فيرى كلٌّ قلبه وكأنه ينظر فى مرآة يرى فيها صورته . وذلك لايكون الا فى الشعر .

فاذا اخطأ العرب فى امعانهم فى هذا النوع والاكثار منه ، فقد أخطأوا من جهة واحدة : وهى تكرار المعانى وتقليد بعضهم بعضاً فى ذلك ، وظنهم أن كل

قلب يحب بشكل واحد، وان صلة الحب بظاهر الجسم قوية متينة ، وان المعانى محصورة فى ذلك .

ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة فى الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . أرأيت شعراء الغرب كيف يطنبون فى وصف الأمكنة التى اجتمعوا فيها مع صديقاتهم، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول احياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، اذ كل شىء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم، وتلك الأمكنة جميلة لانها احتوت عليهم، والأضواء التى كانت تسطع عليهم والأشجار التى كانت تظلهم، والكواكب التى كانت تتجسس أخبارهم ، جديرة بأن لا تنسى ، لأنها أثر من آثار العشق . الثانى ان الشاعر الفنى يفر من التكرار، ويعرف ان معانى العشق والحب سَرّعان ماتنفد، فهو يتحايل على بث شىء من المعانى الأخرى التى لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يجول فى ميدان أوسع ليصل الى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لاظهار الصورة التى يريد أن يبرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنيين أو قريباً منهم . فقد التجأ الى مدينة الزهراء الجميلة فى أيام الربيع ، يريد أن يسلى نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر فى شعر أرسله اليها كل ما كان يحيط به اذ ذاك ، وأبدع أيما ابداع ، وافتن افتناناً عظيماً فى ذلك . فقال :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله كأنما رقّ لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضىّ مبتسمٌ كما حللتَ عن اللبات أطواقا
يومٌ كأيام لذات لنا انصرمتْ بتنا لها حين نام الدهر سُرّاقا
نلهو بما يستميل العينَ من زهرٍ جالَ الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه اذا عاينت أرَقى ... بكت لما بى فجال الدَّمع رَقرَاقا

ورد تألَّقَ فى ضاحى منابتِه ... فازداد منه الضحى فى العين اشراقا

سرى ينافحهُ نيلوفرٌ عبِقٌ ... وسنانُ نبَّهَ منه الصبحُ أحداقا

كلٌّ يهيج لنا ذِكرى تشوقنا ... اليك لم يعدُ عنها الصدر ان ضاقا

لو كان وفَّى المنى فى جمعنا بكم ... لكان من أكرمِ الأيامِ أخلاقا

لأسكن الله قلبا عنَّ ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفَّاقا

لوشاء حملي نسيمُ الريح حين هفا ... وَافاكم بفتى أضناه مالاقا

كان التجازى بمحضِ الودمن زمن ... ميدان أنس جرينا فيها اطلاقا

فالآن أحمد ما كنا لعهدكم ... سلوتمو وبقينا نحن عشاقا

واذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس ذلك فى ابتكار المعانى التى لم يسبق اليها ، وانما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب . وكأن الانسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان فى التعبير و الاسلوب . كما فى قوله :

اليك من الأنام غدا ارتياحى ... وأنت من الزمان مدى اقتراحى

وما اعترضتْ هموم النفس الا ... ومن ذكراكِ ريحانى وراحى

فديتك انّ صبرى عنك صبرى ... لدى عطش عن الماء القَراح

ولى أمل لو الواشون كفوا ... لأطلع غرسهُ ثمر النجاح

وأعجبُ كيف يغلبنى عدو ... رضاك عليه من أمضى سلاحى

ولما أن جلتك لى اختلاسا ... أكف الدهر للحَين المُتاح

رأيت الشمس تطلع فى نقاب ... وغصنَ البان يرفل فى وشاح

فلو أسطيع طرت اليك شوقا ... وكيف يطير مقصوص الجناح

وحسبى أن تطالعك الأمانى ... بأفقك فى مساء أو صباح
فؤادى من أسى بك غير خال ... وقلبى من هوى لك غير صاح
وان تهدى السلام الى شوقا ... ولو فى بعض أنفاس الرياح

ولقد يسمع الانسان أنينه فى شعره ، ويرى نفسه الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى للذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يلتذ لذكر محبوبته وتذوق الآلام فى سبيلها . فيقول :

متى أنبيكِ ما بى ... ياراحتى وعذابى
متى ينوب لسانى ... فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنى ... أصبحت فيك لما بى
فلا يلذ منامى ... ولا يسوغ شرابى
يافتنة المتعزى ... وحجة المتصابى
الشمس أنت توارت ... عن ناظرى بالحجاب
ما البدر شف سناه ... على رقيق السحاب
الا كوجهك لما ... أضاء تحت النقاب

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل الاخلاص فى حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته ، وأنه يرى فى سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شىء فى سبيل ارضاء حبيبه حتى حياته . وهو فخور بهذا كما قال :

أنّى تضيع عهدكَ ... أم كيف تخلف وعدكَ
وقد رأتك الامانى ... رضى فلم تتعدكَ

ياليت شعرى وعندى ماليس فى الحب عندك
هل طال ليلك بعدى كطول ليلى بعدك
سَلْنى حياتى أهبها فلستُ أملك ردَّك
الدهر عبدى لمّا أصبحت فى الحب عبدك

على أننا لا نبرىء ابن زيدون من التصنع أحيانا فيما يقول لأنه كان كغيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فان تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر . كما قالوا ان السلطان أمره ان يعارض قطعاً كان يغنى بها ، واستحسن ألحانها ، فانشأ أبياتا كأنها صادرة من عاشق متيم ، وضمنها مدح السلطان . فقال :

يقصّر قربك ليلى الطويلا ويشفى وصالك قلبى العليلا
وان عصفت منك ريح الصدود فقدت نسيم الحياة البليلا
كما أننى ان أطلت العثار ولم يبد عذرى وجهاً جميلا
وجدت أبا القاسم الظافر الـ مؤيد بالله مولى مقيلا
لاقلامه فعل أسيافه يظل الصرير يبارى الصليلا

وفى بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الالفاظ والمعانى التى قيلت فى العشق ، فينظمها ويلبسها ثوبا جديدا وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة فى ذلك كما . قال :

ياغزالا أصارنى موثقا فى يد المحَن
إننى مذ هجرتنى لم أذق لذة الوسَن
ليت حظى اشارة منك أو لحظة تعَن
شافعى يامعذبى فى الهوى وجهك الحسن
كنت خِلوًا من الهوى وأنا اليوم مرتهن
كان سرى مكتما وهو الآن قد علن

ليس لى عنك مذهب　　فكما شئت لى فكن

وهو فى كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح عذب الالفاظ سهل الأسلوب .

أما نونيته التى أرسل بها الى ولادة وبثها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة. فهى على شهرتها وجمالها ككل شعرة ولذلك لم نذكرها

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برسالتيه الجدية والهزلية . أما الأولى فهي التي كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور ، وأما الرسالة الهزلية فكتبها على لسان ولادة يتهكم على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته في غرامه .

اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما النادر المثال، ولاحتوائهما على كثير من الاسماء التاريخية والأمثال العربية، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله، أو قيست على سمته . وليس من السهل معرفة الاقتباس وأمكنته ، ولا من الهين أن يخوض الانسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ويميز بين الجيد وغيره، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه الى بعضها ويمخضه كما يمخض الزُّبد فلا يتنافر منه جزء مع آخر .

ان الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار في التأليف المبتدأ ، وكلما قرب الى القارئ الاسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأعجب به وكبرت في نفسه منزلته . وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى كان بعيداً عن ذهنه ، أو تلميح الى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مَثَلٌ اتعظ به ، أو ذكر رجل شهير يمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرتاح لها ويلتذ بذكرها ، زاد أعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل انسان

غير قادر على ذلك ، وان هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك فى نثر ابن زيدون وهو من دواعى الاعجاب باسلوبه فى رسائله . فقد عرف كيف يأتى فى كتاباته بالتناسق فى المعانى والألفاظ ، بل عرف أن يأتى بهذا التناسق فى التأليف والجمع وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفا جميلا ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنّان الذى يؤلف بين اللون واللون .

ولقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه الوصول الى غرضه ، فلم يدع وسيلة ما يجسم بها المعنى فى نفس القارئ لتنهال عليه المعانى ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، الا فعلها . فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعانى المختارة قصد به توضيح ما يريد .

ففى رسالته الجدية أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرئ نفسه مما اتهم به وينكل بأعدائه . فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستذل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر اخلاصه له ويتملق اليه أخرى . ويعتذر عنه فيما وقع منه فى حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شماتة أعدائه فقال :

«يامولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضىَ حد العزم ، وارى زَند الأمل ، ثابتَ عهد النعمة . ان سلبتنى أعزك الله لباس نَعمائك ، وعطلتنى من حُلِ ايناسك ، وأظمأتنى الى بَرود اسعافك ، ونفضت بى كف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى الى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك ، وأحس الجماد باستحمادى اليك ، فلا غرو قد يَغَص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذِر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص .

كل المصائب قد تمر على الفتى ... وتهون غير شماتة الاعداء

وأنى لأتجلد ، وأُرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع. فأقول: هل أنا الايد أدماها سوارها ، وجبين عضَّ به اكليله ، ومَشْرفى ألصقه بالارض صاقله، وسمهرى عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما ... فليقس أحياناً على من يرحم»

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ منها بعبارات شعرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ، ويحمده على كل شيء ، كما يحمد الله على السراء والضراء . فقال:

«هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوَةُ غمرة ثم تنجلى ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تَقَشَّع . ولن يَريبنى من سيدى أن أبطأ سَيْبُه ، أو تأخر غير ضنين غَناؤه ، فابطأ الدلاء فيضا أملؤها وأثقل السحائب مشيا أحفلها ، وأنفع الحيا ماصادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه فى اغتفاله

فان يكن الفعل الذى ساء واحدا ... فأفعاله اللائى سَرَرْنَ ألوف»

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الانسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

«وأعود فأقول: ماهذا الذنب الذى لم يسعه عفوك؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذى لم يستغرقه تطولك ؟ والتحامل الذى لم يف به احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريئا فأين العدل ؟ أو مسيئا فأين الفضل؟

الا يكن ذنب فعدلك واسع ... أو كان لى ذنب ففضلك أوسع

فهبنى مسيئاً كالذى قلتَ طالبا قصاصا فأين الأخذ ياعز بالفضل

حنَانَيْكَ . قد بلغ السيل الزُّبى، ونالنى ما حسبي به وكفى، وما أُرانى الا لو أُمِرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لى نوح اركب معنا، فقلت سآوى الى جبل يعصمنى من الماء، وأمَرْتُ ببناء صرح لعلى اطلع الى إله موسى، وعكفت على العجل ، واعتديت فى السبت ، وتعاطيت فعَقرت ، وشربت من النهر الذى ابتلى به جيوش طالوت .....»

والعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه الشديد . ثم أخذ بعد ذلك يبرئ نفسه ، ويعجب من سيده الذي يصغى الى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جهور لوما لا يظهر الا من خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

«فكيف ولاذنب الا نميمة أهداها كاشحٌ ، ونبأ جاء به فاسق، وهم الهمَّازون المشاءون بنميم ، والواشون الذين لايلبثون أن يصدعوا العصا ، والغُواة الذين لايتركون أديما صحيحا ....

والله ماغششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية اليك ، ولا ناصبت لك بعد التشيع فيك، ولا أزمعت يأسا منك، مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك . ففيم عبث الجفاء بأذمتى، وعاث العقوق فى موَاتى وتمكن الضياع من وسائلى؟ ولمضاقت مذاهبي وأكْدَتْ مطالبي؟ وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة بالاياب؟ وأنَّى غلبنى المغلَّب وفجر علىّ العاجز الضعيف ، ولطمتنى غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع منى قبل ان افترس

وتدركني ولما أمزق، أم كيف لا تتضرم جوانح الأكفاء حسداً لى على الخصوص بك، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة فى الكرامة عليك؟»

ثم ذكره بإخلاصه له، ومدحه إياه، وأخذ يرجع الى استعطافه ويتلقه فقال:

«وقد زانني رسم خدمتك، وزهاني اسم نعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى سماطك، وقمت المقام المحمود فى بساطك

ألستُ الموالى فيك ُغر قصائد   هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء يُظَن الروض منه منورا   ضحى ويخال الوشى فيه مُنَمْنَمَا

وهل لبس الصباح الا بُرداً طرزته بفضائلك؟ وتقلدت الجوزاء الا عقداً فصلته بمآثرك؟ واستملى الربيع الا ثناء ملأته فى محاسنك؟ وبث المسك الا حديثاً أذعته فى محامدك؟ مايوم حليمة بسر. وان كنت لم أكسك سليباء، ولا حليتك عُطْلاً، ولا وسمتك غُفْلاً. بل وجدت آجراً وجصاً فبنيت، ومكان القول ذا سعة فقلت. حاشا لك أن أعد من العاملة الناصبة، وأكون كالذبالة المنصوبة تضىء للناس وهى تحترق، فلك المثل الأعلى وهو بى وبك أولى.»

ثم جاءته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى، فبين له أن مثله لا يصبر على الهوان وأنه يستطيع فراقه وهجر بلده الى مكان آخر، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله. فقال:

«ولعمرك ماجهلت أن صريح الرأى أن أتحول اذا بلغتنى الشمس ونبا بى المنزل، وأصفح عن المطامع التى تُقَطِّع أعناق الرجال، فلا استوطىء العجز، ولا أطمئن

الى الغرور . ومن الامثال المضروبة خامرى أمَّ عامر . وانى مع المعرفة بأن الجَلا سِبَاء ، والنُّقلة مُثْلة

ومن يغترب عن قومه لم يزل يَرى ‍ ‍ ‍ مَصَارع مظلوم مَجرًّا ومسحبا
وتدفن منه الصالحات وان يسىء ‍ ‍ ‍ يكن ما أساء النار من رأس كَبْكَبَا

عارف أن الأدب الوطن لا يخشى فراقه ، والخليط لا يتوقع زيَاله ، والنسيب لا يَخفى ، والجمال لا يُجفى . ثم ماقران السعد للكواكب أبهى أثرا ، ولا أسنى خطرا من اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقاً معه ، فان الحائز لهما الضارب بسهم فيهما ، وقليل ماهم ، أينما توجه ورد منهل بر ، وحط فى جانب قبول ، وضوحك قبل انزال رحله ، وأعطى حكم الصبى على أهله

وقيل له أهلا وسهلا ومرحبا ‍ ‍ ‍ فهذا مَبيت صالح ومقيل »

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور الى أن ينسى استعطافه لما يظن فى هذا الكلام من عُجب ابن زيدون بنفسه . فأخذ يلطف من حدته ، ويسكن من هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شىء لديه فى الحياة . فقال :

غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن الى وطنه ، حنين النجيب الى عطَنه ، والكريم لا يجفو أرضا فيها قوابله ، ولا ينسى بلدة فيها مراضعه ، قال الاول :

أحب بلاد الله مابين مَنعِجٍ ‍ ‍ ‍ الىَّ وسلمى أن يَصوبَ سحابها
بلاد بها حل الشباب تمائمى ‍ ‍ ‍ وأول أرض مس جلدى ترابها

هذا الى مغالاتى بعقد جوارك ، ومنافستى بلحظة من قربك ، واعتقادى أن الطمع فى غيرك طَبَع ، والغنى ممن سواك عنا ، والبدل منك أعور ، والعوض لَفاء ، وكل الصيد فى جوف الفرا

واذا نظرت الى أميرى زادنى ضنا به نظرى الى الامراء »

ثم أخذ يقوى أمله فى اجابة طلبه، ويضرب الامثال فى ذلك، ويمدح فى جوار سيده بقوله :

« أعيذك ونفسى من أن أشيم خُلَّبا وأستمطر جَهاما ، وأكرم غير مكرم ، وأشكو شكوى الجريح الى العقبان والرخم ، فما أبسَسْتُ لك الا لتدر ، وحركت لك الحوار الا لتحن ، ونبهتك الا لأنام ، وسريت لك الا لأحمد السُّرى لديك ، وانك ان سنيت عقد أمرى تيسر ، ومتى أعذرت فى فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاء المروءة ، وفضل الجاه يعود صدقة

واذا امرؤ أهدى اليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله »

هذا أكثر مافى هذه الرسالة الجدية . وأعظم مافيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة ، التى تهيج مرة وتسكن أخرى ، وتجمد أحيانا ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يشتد كل منهما عند ما يخاف قوة صاحبه

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ اذا وقف على كتب ونظر الى حركات نفسه وهو يكتب أو يفكر فى هـذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه المتهكمة ، وهو يحسب ويعد الذنوب الكبيرة التى تستحق مثل عقوبته ، لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هـذا حمق وخرق فى الرأى . ويرى نفسه الكئيبة التى أخمدتها الأكدار فذلت وأخذت تستعطف وتستشفع وتتملق . يرى الانسان كل ذلك فى هذه الرسالة . ومن هنا جمالها وابداعها . لا مما بها من الاسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير ،

أما رسالته الثانية التى كتبها لابن عبدوس عن لسان ولادة . فقد دل فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع فى الهجاء . لأنه أقذع فى ذم ابن عبدوس اقذاعا ، وتهكم به تهكما لامثيل له، حتى انه ليخيل الى الانسان أنه جمع كل مايمكن أن يقال فى الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوبا جميلا خلابا يدل على تمكنه من التصرف فى الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لان هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها ، الذى يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى مافيها من الأمثال المعروفة والابيات المشهورة ، والاطناب فى ذكر الاسماء التى يكفى منها القليل، ليس فيها مايدعو الى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئا كثيرا من تلك العيوب، فقد ذكر أكثر من خمسين اسما لمشهورى الرجال، سردها سرداً، وكان يكفى عشرها ، وأكثر أيضا من صفات الذم مما كاد يكون ثرثرة ولغوا. ولكنه ستر كل ذلك ببراعته فى الصناعة . وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة . فقد ابتدأها بسفاهة نادرة ولكنها سفاهة أدبية فنية فقال :

«أما بعد أيها المصاب بعقله . المورّط بجهله . البينُ سقطُه . الفاحش غلَطُه العاثرُ فى ذيلِ اغتراره، الأعمى عن شمس نهارِه . الساقط سقُوطَ الذُّباب على الشراب . المتهافِت تهافت الفَراش على الشهاب . فان العُجْب أكذب . ومعرفة المرء نفسه أصوب . وانك راسلتنى مستهدياً من صلتى ماصفِرَتْ منه أيدى أمثالك . متصديا من خلتى لِمَا قَرِعت دونه أنوف أشكالك . مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوّادة . كاذبا نفسك انك ستنزل عنها الىّ . وتخلف بعدها علىّ

ولست بأول ذى همة دعته لما ليس بالنائل

ولاشك أنها قَلَتْك اذا لم تضن بك، وملَّتك اذا لم تعز عليك . فانها أعذرت

فى السفارة لك . وما قصرت فى النيابة عنك . زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه . والانسانية اسم أنت جسمه وهيولاه . حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه . وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه . وأن قارون أصاب بعض ما كنزت . وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك . . . . »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الاسماء . ثم أقذع فى الذم وأفحش فى صفاته فقال :

« وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ملؤها حبيبها حسن فيها من تود . وكانت انما حلتك بحلاك ، ووسمتك بسيماك . ولم تعرك شهادة . . . ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك ، فالمعيدى تسمع به خير من أن تراه . هجين القذال ، أرعن السبال . طويل العنق والعلاوة . مفرط الحمق والغباوة . جافى الطبع . سيء الجابة والسمع . بغيض الهيئة . سخيف الذهاب والجيئة . ظاهر الوسواس . منتن الأنفاس . كثير المعايب . مشهور المثالب . كلامك تمتمة . وحديثك غمغمة . وبيانك فهفهة . وضحكك قهقهة . ومشيك هرولة ، وغناك مسألة . ودينك زندقة . وعلمك مخرقة

مساوٍ لو قسمن على الغوانى لما أمهرن الا بالطلاق »

واستمر على هذا النحو الى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء والتهكم . ولقد كشف ابن زيدون فى هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة للانتقام وانه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة فى طبعه ، وخشونة فى أخلاقه . مع ذلك فهى رسالة تمتاز بأسلوبها . وتناسق عباراتها . ولعل ابن زيدون أخذ هذا الاسلوب عن الجاحظ فى بعض رسائله ، كما فى رسالة التربيع والتدوير

احمد بن عبد ربه [1]

عاش ابن عبد ربه فى أيام نضارة دولة بنى أميـة فى الأندلس ، زمن عبد الرحمن الناصر ، وكان أكرم الناس لديه ولدى ولىّ عهده الحكم ، واشتهر ذكره بما كان له من العلم والفضل . تعلم فى قرطبـة قاعدة العلوم اذ ذاك . ودرس جميع الفنون العربية ، ولا سيما علوم الأدب ، حتى أصبح اماما فيها ، وكان محبا للاطلاع فصار أعلم أهل زمانه ، وأكثرهم معرفة بآداب العرب ولا سيما التاريخ والنوادر والملح . وكان فى أول أمره ككل الادباء والظرفاء الذين يميلون الى اللهو فكان كثير من شعره فى صباه شعراً رقيقاً غزليا [2] وقد رجع عن لهوه فى شيخوخته وتاب عما فعله فى أيامه الماضية . وقالوا انه عمل على أعاريض شعره الذى قاله فى صباه أشعارا فى الزهد وسماها الممحصات

---

١ هو احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب كان جده من موالى هشام بن عبد الرحمن الداخل ثانى خلفاء بنى أمية بالاندلس . ولد فى سنة ٢٤٦ ﻫ وتوفى سنة ٣٢٨ ﻫ ودفن بقرطبة بعد أن عاش ٨٢ سنة . ذكره ابن خلكان فى الجزء الاول . وياقوت الحموى فى كتابه معجم الادباء فى الجزء الثانى . والضبى فى كتابه بغيـة الملتمس صفحة ١٣٧ . وذكر فى عدة مواضع من نفح الطيب ولا سيما فى الجزء الثانى . وفى الجزء الاول من يتيمة الدهر طائفة من شعره

٢ شهدله المتنبى بهذا . رووا فى ذلك وذكره صاحب نفح الطيب فى الجزء الثانى وياقوت فى كتابه معجم الادباء جزء ثانى انه اجتمع مع أبى الطيب فى مسجد عمرو بن العاص أحد الادباء فقاوضه قليلا ثم قال له أنشدنى لمليح الأندلس يعنى ابن عبد ربه فأنشده :

يالؤلؤا يسبى العقـول أنيقـا ورشا بتعـذيب القـلوب رفيقـا
مااذ رأيت ولا سمعت بمثـله دارا يعود من الحيـاء عقيقـا
واذا نظرت الى محاسن وجهـه أبصرت وجهك فى سنـاه غريقا
يامن تقطع خصره من رقـة مابال قلبـك لا يكون رقيقـا

فلما أكمل انشادها استعادها ثم صفق بيديه وقال : ياابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا .

وقال عنه صاحب اليتيمة: «أحد محاسن الأندلس علماً وأدبا ونبلا. وشعره فى غاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة» وأورد له طائفة من شعره.

والحق ان مقطوعاته الشعرية فى الغزل والوصف من أرق الشعر المعروف فى ذلك وأحسنه. وأجمل شعره فى هذا النوع، وكل هذا من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان من الذين يميلون الى قول الشعر ونظم الكلام، لا ممن خلقوا شعراء، بل هو أديبا أكثر منه شاعراً. وانما جاءه الشعر من كثرة حفظه واطلاعه وامتلائه بأقوال الشعراء. وكان بطبيعته ميالا الى الرقة، فانحدر الى قول الشعر الرقيق، وأغرب بعض الاغراب فيه ككثير ممن يسميهم الأدباء شعراء. فهو رقيق الذوق حسن الديباجة

وكثير من كلامه أبيات قليلة تدل على انه كان شغوفا بقول الشعر ولكنه شغف فنى. حتى لقد يقول البيتين أو الثلاثة فيعرف كيف يختار الالفاظ والمعانى المرقصة، وكأنما يشرب الانسان خمراً لا يقرأ شعراً. أو كأنما انفتح أمامك منظر جميل، أو لحظة من لحظات الحياة اللذيذة. أو كأن الكأس ومافيه والحبيب وجماله كل شيء فى الحياة. كما قال:

اشرب على المنظرِ الأنيق   وامزُج بريق الحبيب ريقى
واحلل وشاح الكَعاب رفقاً   خوفا على خصرها الرقيق
وقل لمن لام فى التصابى   خـل قليـلا عن الطريق

وقد أجاد فى هذا النوع من الغزل، كقوله:

بزمام الهـوى أمت اليه   وبحكم العُقار أقضى عليه
بابى من زهى علىَّ بوجه   كان يدمى لما نظرت اليه
كلما علنى من الراح صرفا   علنى بالرُضاب من شفتيه

ناول الكأس واستمال بلحظ | فسقتني عيناه قبل يديه

كذلك كان رقيقاً فى شعره وميالا الى الرقة فى كل شيء ، والى الابتكار فى المعانى والأساليب . فقد قالوا عنه ، ورواه ابن بسام فى « الذخيرة » وابن خلدون « فى مقدمته » : انه أول من سبق الى اختراع الموشحات .

ولقد كان يصف مواقف العشاق ومحادثتهم ويصور ذلك بشكل ساحر خلاب وعبارات جذابة . كقوله :

ودعتنى بزورة واعتناق | ثم نادت متى يكون التلاقى
وبدت لى فأشرق الصبح منها | بين تلك الجيوب والاطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم | بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق أفظع يوم | ليتنى مت قبل يوم الفراق

وله قصائد طويلة فى العقد الفريد .

وأفضل ماجاء به ابن عبد ربه، وعد من أجله أكبر أدباء الأندلس، كتابه الشهير «العقد الفريد» الذى هومن أمهات كتب الأدب العربية ، وهو كتاب فذ بين هذه الكتب جرى فى تأليفه على أسلوب لم يسبق اليه . وهو تقسيمه الى عقود وجواهر ، خص كلا منها بكلام فى موضوع خاص واستوعب هذه الموضوعات بقدر ماسمحت له مباحثه، فجاء كتابا وافيالمن يريد أن يطلع على ماقيل فى الأدب العربى : من أخبار وقصص ورسائل وكل أنواع النثر والشعر : من كلام الأعراب والمستعربين . ومن رسائل أدبية وفنية ، وكلام فى السياسة والملك والوعظ والفكاهات والحكم والنوادر . ونقل شيئا عن بعض الامم الأخرى مما كان معروفا فى كتب الجاحظ وغيرها . وأودعه كثيراً من كلامه . وهو مع هذا كتاب سهل خفيف الروح جم الفائدة، أسهل تناولا من

غيره وأدل فى جملته على أدب صاحبه ورقة ذوقه فى الاختيار . وفى هذا الكتاب من مسائل التاريخ ما ليس فى غيره ، ويكفى الاطلاع عليه للوقوف على شىء عظيم من الأدب العربى وعقول العرب ونفسيتهم . ومعظم الكتاب ، أو كله من مختار كلام الناس ، وقد ذكر المؤلف ذلك فقال :

«وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجواهر ولب اللباب . وانما لى فيه الاختيار وحسن الاختصار . وفرش لدور كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ... وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار فى معانيها وتوافقها فى مذاهبها . وقرنت بها غرائب من شعرى ... »

وقد أخذوا على المؤلف انه لم يذكر شيئاً فى كتابه عن أحوال بلاده ولا اقتبس فيه من أهل بلده . وقالوا ان الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فلما حصل عليه وتأمله قال هذه بضاعتنا ردت الينا ، ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شىء من أخبار بلادهم وانما هو يشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه ورده . وعابه فى ذلك أبو على الحسن محمد التميمى القيروانى صاحب الرسالة التى كتبها الى أبى المغيرة بن حزم .

ابن دراج القسطلى [١]

هو ابو عمر احمد بن دَرَّاج القَسْطَلِيّ . آدب أهل زمانه ، وأشهر من عرف في عصره بطلاقة اللسان وبلاغة الشعر . قال عنه الثعالبي في يتيمة الدهر: « بلغني أن القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام »

ولد ابن درَّاج سنة ٣٤٧ ه وتوفى سنة ٤٢١ ه وأدرك عز الدولة الأموية، لانه ولد في آخر أيام عبد الرحمن الثالث وعاش في عصر الحكم ابنه، ذلك العصر الذى بلغت فيه حضارة العرب منتهاها ،وفى عصر المنصور بن أبى عامر ، وكان كاتبه وشاعره وأكبر شعراء دولة بنى عامر كما يقولون، بل قالوا انه كان آخر شعراء هذا العصر المجتهدين . واشتهر ذكره في الشام والعراق [٢]

كان ابن دراج يعيش بشعره ، فكانت صناعته قول الشعر ومدح الملوك . وناهيك بمن تكون هذه صناعته ، يفد على من يعرف ومن لا يعرف ، ويمدح كل الناس ويقول غير ما يعتقد . ولعل تهافته على المدح وتسابقه في هذا الميدان ووقوفه بين أيدى الملوك والأمراء هو الذى أكسبه هذه الشهرة . على أن عصره كان عصر الشعراء المداحين ، لأنه مبدأ الاضطراب بخروج الأمر من يد بنى أمية وتألب الناس على دولة بنى عامر ، والاشتغال بالدسائس. ذكر مؤرخ الأندلس

١ راجع ابن خلكان ج ١ والذخيرة ج ١ وفهرس الجزء الثانى من نفح الطيب طبع أوربا وبغية الملتمس ص ١٤٧

٢ ويقول فيه ابن بسام انه كان فى وقته لسان الجزيرة شاعرا وآخر حامل لواء شعرائها ومدحه كثيرا وقال عنه ابن خلكان انه من جملة الشعراء المجيدين والعلماء المتقدمين وكان يجيد ماينظم ويقول .وقال ان له ديوانا فى جزئين

الشهير أبو حيان ابن دَرّاج بقوله: « أبو عمر القَسْطَلِّيّ سابق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين ، كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء واضطرته الى النجعة فاستقرأ ملوكها أجمعين ... يهز كلا بمدحه ، ويستعينه على نكبته ، وليس منهم من يصغى له، ولا يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله وهو يخبطهم ..... بقوله ، فيصمون عنه . الى أن أناخ بساحة منذر بن يحيى أمير سرقسطة فألقى عصا سيره عند ما بوأه ، ورحب به وأوسع قراه ولم يزل عنده وعند ابنه بعده . »

أما شعره فهو فى جملته شعر من يتردد على موائد الأدب ليتذوق من كل لون طعماً ، ويجمع هذه الطعوم ليجعل له مائدة خاصة به يدعو اليها الآكلين وكأنما يأكلون من مائدته . حتى ان بعض الباحثين استدل بقصيدته التى مدح بها المنصور بن أبى عامر على تقليده الشعر القديم . ويقولون انه عارض بها قصيدة أخرى فى المدح. على انه أجاد اجادة عظيمة فى هذه القصيدة التى دلت على براعته فى التقليد . ولعله أراد أن يبين للمنصور انه أفضل ممن مدحه ذلك الشاعر، وان مادحه خير من مادح ذاك . والقصيدة فى غاية السبك وحسن البيان ، وهى من أجمل قصائده . تشبه الشعر القديم بما فيها من الروح البدوية التى تدل على أخلاق العرب من الشهامة وصدق العزيمة، وعزة النفس والجلد والصبر على تحمل الآلام، ومخاطبة النساء ووصف الوداع . حتى لقد يظهر من عباراتها انها من كلام أهل البدو لمتانة أسلوبها ونزعتها العربية الخالصة ، وكأنها صادرة من عربى يجوب القفار وتقطع الصحارى أعناق مطاياه . ويلفحه الهجير فيحرق وجهه . وتهب عليه النكباء فيستنشقها وكأنه يستنشق الموت . ويتلظى حرارة الرمضاء بقدميه وكأنما يطأ حظائر الجحيم . يقطع المفاوز طولا وعرضاً . وكأنه فى بحر يزخر . مياهه الرمال وأمواجه السراب

يكاد يلمح الانسان من كلامه صورة متقنة الصنع لتلك الصحارى التى يسمع بذكرها، ويظن انه أمام منظر من تلك المناظر البعيدة الرهيبة. فاذا امتلأت نفسه من هيبة هذه القفار وهول الاسفار وهبوب الرياح ، سمع فى كلامه ما هناك من زئير الاسود وأصوات الحيوانات المفترسة وكأنه يرى الشاعر يعانى الخلاص من تلك الأهوال ويحاول الفرار ، من مخالب الموت الزؤام. ولم ينس وهو يخوض غمار هذه الأخطار وصف الكواكب فى هذا الليل البهيم والقصيدة هى :

ألم تعلمى أن الثواء هو التوى — وأن بيوت العاجزين قبور
تخوفنى طول السِّفار وانه — لتقبيل كف العامرى سفير
ذرينى أرد ماء المفاوز آجنا — الى حيث ماء المكرمات نمير
فان خطيرات المهالك ضمن — لرا كبها ان الجزاء خطير

ومنها فى وصف وداعه لزوجه وابنه الصغير

ولما تدانت للوداع وقد هفا — بصبرىَ منه أنةٌ وزفير
تناشدنى عهد المودة والهوى — وفى العهد مبغوم النداء صغير
عَيىٌّ بمرجوع الجواب ولفظه — بموقع اهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت — له أذرع محفوفة ونحور
فكل مفدات الترائب مرضع — وكل محياة المحاسن ظِئر
عصيت شفيع النفس فيه وقادنى — رواح لتدآب السرى وبكور
وطار جناح البين بى وهفت بها — جوانح من ذعر الفراق تطير
لئن ودعت منى غيورا فاننى — على عزمتى فى شجوها لغيور
ولو شاهدتنى والهواجر تلتظى — علىَّ ور قراق السراب يمور

اسلط حر الهاجرات اذا سطا | على حر وجهى والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهى لوافح | واستوطئ الرمضاء وهى تفور
والموت فى عين الجبان تلون | وللذعر فى سمع الجرئ صفير
لبان لها أنى من البين جازع | وأنى على مض الخطوب صبور
ولو بصُر بى والسّرى جل عزمتى | وجرسى لجنان الفلاة سمير
واعتسف الموماة فى غَسق الدجى | وللاسد من غيل الضباب زئير
وقد حوَّمت زهر النجوم كأنها | كواكب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها | كؤوس مهى والى َ بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة انها | على مفرق الليل البهيم قتير
وقد أيقنت ان المنى طوع همتى | وانى بعطف العامرى جدير

هذا فى جملته أسلوب عربى صميم، من أمثلة الشعر العربى الخالص من شوائب التكلف . ولكنه يدل على أن ابن درَّاج لم يكن شاعراً فطريا يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسى ، وانما هو مقلد بارع ، حتى فى المعانى التى لم تشعر بها نفسه، وفى وصف الامكنة التى لم يرها الا فى كلام الشعراء . فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية ، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد

ومما قاله فى قصيدة مدح يذكر فيها حضور صاعد اللغوى من بغداد الى الأندلس قوله :

وأهدت لنا بغداد ديوان علمها | هدية من والى وتحفة من حيا
فكانت كمن حيا الرياض بزهرة | وأهدى الى صنعاء من نسجها وشيا
ويبكي ملوك الأرض من كان مفخرا | اذا امتثلوا من بعض أفعاله شيا
وحسب رواة العلم أن يتدارسوا | مآثره حفظا وآثاره وعيا

اذا لمعت زرق الأسنة حوله كاضرام نيران الهموم حواليا
وقد لاذ أبطال الجلاد بعطفه كما لاذ أطفال الجلاد بعطفيا
وما قصّرت عنه رماح عُداته كما قصرت عنهم رياش جناحيا
فيالك من ذكرى سناء ورفعة اذا وضعوا فى الترب أيمن شقيا
وناحت ليالى الدهر منى ميتا بآخر أيام دفنت بها حيا
وكان ضياعى حسرة وتندما اذا لم يفد شيئا ولم يغننى شيا
وأصبحت فى دار الغنى عن ذوى الغنى وعوّضت فاستقبلت أسعد يوميا
فياعبرتى سحى لعلى مبلل بجريك ما انزفت من ماء خديا

الى آخر ما قال

وقد أجاد فى أساليب المدح اجادة لا يقدر عليها الا من انقطع لها . فلقد تجده يمدح مدحاً يحرك الاطماع ويدفع الممدوح الى الغرور، ويجعله يعتقد فى نفسه ما ليس أهلا له . وهو يتظاهر له بالتواضع والحمد والشكر ، ويجله فوق كل انسان ، حتى كأنه ليس فى خلق الله من يدانيه أو يجاريه فى صفات الكمال . قال من كلام يمدح منذر بن يحيى :

فلئن تركت الليل فوق داجيا فلقد لقيت الصبح بعدك زاهرا
وحللت أرضا بدلت حصباؤها ذهبا يرف لناظرىّ وجوهرا
ولتعلم الأملاك انى بعدها ألفيت كل الصيد فى جوف الفرا
ورمى علىّ رداءه من دونهم ملك تخيرّ للعلا فتحيرا
ضربوا قبابهم علىّ فعاذنى من كان بالقدح المعلى أجدرا
وكأنما تابعت تبع رافعاً أعلامه ملكا يدين له الورى
وحططت رحلى بين نادى حاتم أيام يقرى موسراً أو معسرا
ولقيت زيد الخيل تحت عجاجة يكسو غلائلها الجياد الضمرا

وأتيت بجدل وهو يرفع منبرا　　للدين والدنيا ويخفض منبرا
تلك البدور تتابعت وخلفتها　　سعيا فكنت الجوهر المتخيرا

كل هذا من الكلام السهل الجميل الذى تتسابق الى الاسماع رنته وحسن سبكه . ولقد جعل ابن دراج كل أغراضه الشعرية المدح ، ولكنه ذكر فيه كل خواطره وأفكاره ، وكأنه اتخذه وسيلة للتعبير عن آرائه التى لاتخرج عن الشكوى والحقد على الأيام وبعض الآراء المعروفة ، ولقد كان يتأثر بالحوادث ، ونفسه توحى عليه بأخيلة مظلمة فيقول :

ومن دوننا آنسات الديار　　نهاب الحمى موحشات الطلول
مغانى السرور لبسن الحداد　　على لابسات ثياب الذهول
خطيبات خطب النهى والمهور　　مهارى عليها رحال الرحيل
فمن حرة حليت بالجـــــلال　　وعذراء نصت بنص الزميل
ولا حَلْى الا جمان الدموع　　تسيل على كل خد أسيل
فيبدلن من طول خفض النعيم　　بشق الحزون ووعث السهول
ومن قمر الليل تحت الحجال　　بهول السرى تحت ليل طويل

وقد جرى فى وصفه على الطريقة الخيالية المعروفة عند شعراء العرب . كما وصف أسطول المنصور بن أبى عامر . فقد كان يستطيع أن يتكلم عن عز الدولة ، وان ذلك من آثار تقدمها ، ومن وسائل حمايتها ، ومن المسائل الحيوية لصيانتها ، أو يذكر شيئاً من الآراء الجدية ، أو الاجتماعيـة أو السياسية . ولكنه لم يقل شيئاً من ذلك ولم يفكر فى هذا ، وانما كان يفكر فى مدح الأمير لا غير . ولو انه كان مدفوعاً بشعور صحيح وأراد أن يمدح عمل الأسطول وهو يعتبره من آلات الدفاع عن وطنه لكان له غير هذا الخيال . ولكنه قال :

تحمل منه البحر بحرا من القنا ... يروع بها أمواجه ويهول
بكل معالات الشراع كأنها ... وقد حملت أسد الحقائق غيل
اذا سابقت شأو الرياح تخيلت ... خيولا مدى فرسانهن خيول
سحائب تزجيها الرياح فان وفت ... أنافت بأجياد النعام فيول
ظباء سهام ما لهن مفاحص ... وزرق حمام مما لهن هديل
سوا كن فى أوطانهن كأن سما ... بها الموج حيث الراسيات تزول
كما رفع الآل الهوادج بالضحى ... غداة استقلت بالخليط حمول
أراقم تفرى ناقع السم مالها ... بما حملت دون الغداة مقيل

هذه نظرة تدل على أن ابن دَرّاج وان لم يكن من الشعراء المبتكرين ، أو من أصحاب الصفات الشعرية الممتازة ، فهو بارع فى صناعته متين ، فى أسلوبه ، مادح يجيد الاختيار فى اللفظ والمعنى . وله قصائد كثيرة وبعض رسائل نثرية ، ذكرها صاحب الذخيرة فى الجزء الأول . وكلها من باب الخيال ونقل معانى غيره فى نظمه ونثره . ومع ذلك يحسبه الأدباء من أكبر الشعراء .

المعتمد بن عباد [1]

نشأ المعتمد فى عز أبيه ، وترعرع فى أبهة الملك ، وورث كثيراً من صفات والده . فقد كان أبوه نبيل الطبع شريف النفس ، شجاعا مهابا داهية فى السياسة اتسع الملك على يده ، وصارت دولته أكبر دولة اذ ذاك ، وكان مع هذا أديباً فاضلا ، كريم الاخلاق ثاقب الذهن حاضر الخاطر ، شاعراً رقيق الذوق حسن

---

١ هو أبو القاسم محمد المعتمد على الله بن المعتضد بالله بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية وأشهر ملوك الطوائف

ولد المعتمد سنة ٤٣١ هـ بمدينة باجة وتوفى فى السجن بأغمات من بلاد البربر سنة ٤٨٨ هـ ومجمل خبره فى ذلك أنه تولى الامر والحال فى اضطراب وشقاق . والدولة فى ضعف : فقد كان تابعا لملك الافرنج يدفع اليه اتاوة سنوية ، حتى طمع ذلك الملك فى أخذ بلاد المعتمد وأبى قبول ضريبته . وأرسل الى المعتمد رسولا . فضرب المعتمد الرسول وقتل من معه . فتاهب ملك الافرنج للاغارة على قرطبة ، فلما علم كبار الناس اجتمعوا الى أحد القضاة هناك وتشاوروا فيما بينهم لينقذوا بلادهم من شر العدو ، واتفقوا على أن يستنجدوا بملك مراكش يوسف بن تاشفين . وأخبروا المعتمد بذلك وبينوا له خطورة الحال فوافق على رأيهم وطلب من ذلك القاضى أن يذهب بنفسه لقضاء ذلك . فتوجه وقابل ابن تاشفين وأخبره بخبر المسلمين هناك . فأرسل جيشا الى الأندلس . وتقابل هذا الجيش بجيش المعتمد بن عباد ثم تقابل جيش المسلمين بجيش الافرنج . فانهزم الافرنج وفر ملكهم هاربا . وقوى أمر المسلمين . وقد أبلى المعتمد فى هذه الموقعة بلاء حسنا ، وقاوم مقاومة الأبطال ، ولم يبال الموت حتى أنه أصيب بكثير من الجروح وهو ثابت ثبات الواثق بالظفر .

ولقد كان هذا لانتصار العظيم الذى سر به المعتمد بن عباد أعظم سرور فى حياته من أكبر الأسباب لشقائه : لان يوسف بن تاشفين ذلك البربرى طمع فى بلاد الأندلس ولا سيما عندما اطلع على ما هناك من الأموال والذخائر والمبانى والبساتين وأصناف الاموال وأسباب الترف التى لم يرها فى بلاده . وزاده طمعا فى ذلك تزيين حاشيته تلك البلاد وما فيها حتى كان يسيل لعابه عند ذكرها . واشتد به الطمع والحقد على المعتمد لما رأى من قوته هو وضعف ذاك وانتهزت بطانته هذه الفرصة فأغروا صدره على

الاختيار طلى العبارة ، جميل الصورة بهيج الطلعة ، جذابا بهيئته وشكله ، جواداً كريماً :

عاش المعتمد بن عباد فى هذه البيئة فاكتسب منها شيئاً كثيراً ، ومال بطبعه الى الأدب والمجون . فكان كأبيه فى كل صفاته . ولكنه كان أشعر منه وأرق ذوقا وأخف ظلا ، وأحب للأدب من أبيه ، حتى قالوا انه لم يجتمع الأدباء والشعراء عند أحد كما اجتمعوا عنده ، وناهيك بأمير شاعر من أفضل الشعراء ديباجة ، وأرقهم ذوقا ، وأحبهم الى مجالس الأدب . ألا يكون ذلك من الأسباب التى تساعد على نمو الأدب ورقة الشعور والاهتمام بالأدباء ؟[1]

وقد كان المعتمد يعيش عيشة ترف وثراء[2] ميالا لأن يصرف وقته فى اللهو الأدبى ومجون الشعر ومجاراة الشعراء فى قولهم . وكان يعجبه كثيراً أن يكون شاعراً وأديباً بين هؤلاء الأدباء والشعراء ، ويجتهد فى أن يقول

المعتمد حتى عزم على الانتقام منه . فحاصره وهو بأشبيلية . ولما علم المعتمد بذلك أخذ يدافع عن نفسه وبلده وجالد مجالدة لا تعرف . وأظهر من البسالة والشجاعة ما اشتهر به . ولكن ماذا يعمل انسان رقيق أمام هؤلاء الاجلاف ؟ على أنه ألقى بنفسه الى الموت وهو ثابت الجأش . والناس فى رعب وفزع يترامون فى الانهار من شرفات الاسوار . الى أن نزل القضاء بهذا البلد ودخلها البربر سالبين ناهبين آخذين كل شئ رأوه ووجدوه . وقبضوا على المعتمد وأهله بعد أن نالوا من أسرته وحاصروا ولديه المأمون والراضى وقتلوهما وأرسل المعتمد مقيداً مع أهله الى بلاد مراكش بعد أن شيعة أهل بلده وحيوه بالبكاء والنحيب وأرسله ابن تاشفين الى مدينة أغمات وبقى فيها الى ان مات سنة ٤٨٨ هـ

١ راجع سؤاله عن كلمة مسهب فى نفح الطيب طبع أوربا جزء ثانى صفحة ٤٧٣

٢ قالوا انه أمر بصياغة غزال وهلال من ذهب فكان وزنهما سبعمائة مثقال وأهداهما الى فتاتين . وحضر أبو العرب الصقلى عند المعتمد وقد حمل اليه حولة وافرة من قراريط الفضة فأمر له بكيس منها وكان بين يديه تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب واللآلئ فقال له أبو العرب معرضا ما يحمل هذين الكيسين الا جمل فتبسم المعتمد وأمر له به فارتجل شعرا فى ذلك وقالوا ان هذا الجمل بيع بخمسمائة مثقال

الشعر فكان حبه لقول الشعر وميله الى ذلك من الأسباب التى جعلت شعره رقيقاً .

وكان صافى الذهن نقى الذوق ، شريف الطبع عليه مسحة من الجلال ، عذب الحديث اذا تكلم ، حسن الاختيار فى نظم الألفاظ والمعانى ، فكان شعره في جمله رقيق الحاشية صادقا في معناه ، خاليا من التكلف ، أكثره مأخوذ من حوادث حياته .

فهو صورة من حياته وصفحة من صحفه اليومية . كانت تملى عليه الحوادث فيقول ، وتدفعه ميوله أو توخزه آلامه فينفتق لسانه بقول الشعر الجميل الخالى من كل تصنع ، أو معنى ليس له أثر في نفسه ، أو خيال لم ينشأ من شعور صحيح . فكان شعره أياماً من حياته يشمل أوقات سروره ولذاته وساعات محنته وبؤسه . وأجاد في كل ذلك اجادة تدعو الى الاعجاب برقة شعره ورق خياله .

أما مجونه فلم يخرج فيها عن الوصف الجميل والأدب اللائق بمثله . يشعر الانسان عند تلاوته بخفة روحه وحسن ذوقه ، وبراعته فى سهولة الكلام والتعبير عما يريد ، بدون تكلف وحسن فى الصناعة وافتنان فى التعبير . وهو كل جمال شعره وقد اكتسب أسلوبه من أساليب زمانه المعروفة عند أكثر الشعراء فى حسن الوصف ودقته .

فقد كان حلو الفكاهة فى جميع أوقاته تشمله الخمر أحياناً فتزيد من رقة أدبه . ولقد كانت تنزل به عواطفه النفسية من عظمة جلاله فتحمله على مدح جواريه ، وبديهته تملى عليه جميل القول . فقد جاءت اليه جارية تسقيه وكان كلفا بها ، اذ لمع البرق فارتاعت فقال :

يروعها البرق وفى كفها برق من القهوة لماع

كل ذلك كان له أثر عظيم فى شعره . واذا لم يكن المعتمد من كبار الشعراء الذين كانت صناعتهم الشعر وكل ميولهم فى الحياة قول الشعر ، ولا من المكثرين ، فهو وجه من وجوه الأدباء ، وصورة من صور الشعراء الظرفاء عشاق الشعر والأدب . ودليل على ما وصلت اليه حال الأدب فى تلك البلاد ، وعلى تأثير الحضارة فى النفوس وتهذيبها الاخيلة والتصور ، ورقة الشعور وجمال القول .

كما كتب الى أبى محمد المصرى يدعوه الى مجلسه :

أيها الصاحبُ الذى فارقتْ عيـ نى ونفسى منه السنا والسناء
نحن فى المجلس الذى يهَب الرا حةَ والسمع والغنى والغناء
نتعاطى التى تُسمى من اللـ ـذة والرقة الهوى والهواء
فأته تلف راحـــــة ومحيا قد أعدا لك الحيا والحياء

وقال فى ساق وذكر ذلك صاحب قلائد العقيان بقوله :

انه دخل عليه فى دار المزينة والزهر يحسد اشراق مجلسه ، والدر يحكي اتساق تأنسه ، وقد رددت الطير شدوها ، وجددت طربها وشجوها ، والغصون قد التحفت سندسها ، والأزهار تحيي بطيب تنفسها ، والنسيم يلم بها فتضمه بين أجفانها ، وتودعه أحاديث آذارها ونسيانها ، وبين يديه فتى من فتيانه ، يتثنى تثنى القضيب ، ويحمل الكأس فى راحة أبهى من الكف الخضيب ، وقد توشح وكأن الثريا وشاحه ، وأنار فكأن الصبح من محياه كان اتضاحه ، فكلما ناوله الكأس خامره سوره ، وتخيل ان الشمس تهديه نوره ، فقال المعتمد :

لله ساق مهفهف غنج قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته فى جامد الماء ذائب الذهب

وأما بؤسه وما ألم به فى آخر حياته فقدوصفه وقد نالت منه الآلام وأذابت مهجته، حتى لم يبق فى نفسه بقية من الصبر،واستولى عليه الجزع، وكأنما ينظر الى عزه الماضى، وملكه الزائل فيتملكه اليأس، ويكاد يقضى على كل مافى نفسه من شجاعة وبأس، وقد نحله الضعف وملكه البكاء، وذابت نفسه حسرة على ماهو عليه وما أصاب أهله وبنيه من الذل، حتى أصبحوا خدما لخدامهم، وقد كانت تذل لهم الجبابرة، وتخدمهم خاصة الناس .

يصف ابن عباد ذلك فى شعره ، وكأنك تراه فى أشد ما يكون الرجل من البؤس واليأس ، فلا يرجو الخلاص الا الى الموت . فقد بلغ من أمره ان أكرم بناته دعاها الحال الى أن تطلب غزلا من الناس تسد بأجرته بعض مالها. فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت شُرطة أبيها . واتفق ان السيدة الكبرى أم بنيه اعتلت وكان الوزير أبو العلاء زُهر بمراكش قد استدعاه ابن تاشفين لعلاجه ، فطلب اليه المعتمد راغباً فى علاج زوجته، فكتب اليه الوزير رسالة باجابة طلبه ، ودعا له فيها بطول البقاء . فقال المعتمد فى ذلك :

دَعا لى بالبقاء وكيف يهْوَى ... أسيرٌ أن يطولَ به البقاء
أليسَ الموتُ أروح من حياة ... يطولُ على الشقىِّ بها الشقاء
فمَن يكُ من هواهُ لقاءُ حِب ... فإن هوايَ من حتفى اللقاء
أأرغبُ أن أعيش أرى بناتى ... عوارىَ قد أضرَّ بها الحفاء
خوادمَ بنتَ من قد كان أعلى ... مراتبه اذا يبدو النداء
وطرد الناس بين يدى مَمَرّى ... وكفهم اذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال ... لنظم الجيش ان رفع اللواء
ولكن الدعاء اذا دعاه ... ضمير خالص نفع الدعاء

جزيت أبا العلاء جزاء بر ... نوى براً وصاحبك العلاء
سيسلى النفس عن ما فات علمى ... بأن الكل يدركه الفناء

ودخل عليه فى سجنه بناته يوم عيد فى أطمار بالية وحالة بؤس، وكن يغزلن للناس بالاجرة فى اغمات. فلما رآهن المعتمد فى اطمار رثة شعر كأنما تمزقت أحشاؤه وانصدع قلبه. فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد فى اغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة ... يغزلن للناس مايملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت فى العيد لاعادت إساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك فى ملك يسر به ... فانما بات بالأحلام مغرورا

وهكذا اعرف كيف يصدع القلوب بكلامه، وكيف يفتح قلبه ليرى مكنوناته وأبان لنا كيف أن الآلام تدفع بالقلوب الى الكلام وتجسم المعانى. «دخل عليه وهو فى تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساور السود، وهو لا يطيق اعمال قدم، ولا يريق دمعاً الا ممزوجاً بدم، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير، وفي وسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، فلما رآه بكي وقال:»

قيدى أما تعلمنى مسلما ... أبيت ان تُشفِقَ أو ترحما
دمى شرابٌ لك واللحم قد ... أكلته لا تهشِمِ الأعظما
يبصرنى فيك أبو هاشم ... فينثنى والقلب قد هُشِّما

ارحم طُفَيلاً طائشاً لبّه   لم يخش أن يأتيك مسترحماً
وارحم أُخيَّاتٍ له مثله   جرّعتهن السُّمّ والعلقما

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول فى نفسه من المعانى ، ويصف آلامه وصفاً قريباً من الحقيقة ؛ واستعان على ذلك بما رآه من البؤس وآثاره الظاهرة . فذكر حالته وماهى عليه ، وذكر أولاده ومايعانونه ، ولم يلتجىء الى الخيال ولا الى الاحلام . ولكن شعره جميل لأن الحقائق اذا ألبسها الشعراء ديباجة الشعر أصبحت شعراً جميلا . وليس الشعر الجميل الا حقائق شعرية .

ولقد كانت تملك ابن عباد عزة نفسه ورفعة شأنه ، فيستعذب هذه الآلام ويفضل الاستئثار بها على الخضوع لعدوه ، وتملكه الشجاعة وكرم المحتد فيستصغر كل شىء يلاقيه ، لأنه انما خرج الى القتال بهذه النفس التى يحملها بدون أن يتحصن بشىء سوى قوة بأسه ، عالم بأنه سيجود بها يوماً ما فى موقف يرى الموت فيه خيراً من الحياة . نظم ذلك كله بعبارة جميلة مؤثرة . فقال عند ما أخذ أسيراً .

لما تماسكت الدموع   وتنبّه القلبُ الصديعْ
قالوا الخضوع سياسة   فليبدُ منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع على فمى السم النقيع
ان تستلب عنى الدُّنا   ملكي وتُسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه   لم تسلم القلب الضلوع
لم أُستلَب شرف الطبا   ع أيسلبُ الشرفُ الرفيع
قد رمت يوم نزالهم   ألاّ تحصننى الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميص عن الحشا شىء دفوع
وبذلت نفسى كي تسيل اذا يسيل بها النجيع

أجلي تأخر لم يكن ‏ ‏ بهواى ذلى والخشوع
شيمُ الأولى أنا منهمُ ‏ ‏ والأصل تتبعه الفروع

وله فى الحنين الى شلب وقت ان كان يرتع فى بحبوحة العيش مع صديقه ووزيره ابن عمار كلام سهل رقيق ، صادر عن قلب مقروح ، وقد فارقه ابن عمار فأرسل اليه يقول :

ألا حىِّ أوطانى بشلب أبا بكر ‏ ‏ وسلهن هل عهد الوصال كما أدرى
وسلم على قصر الشراجيب عن فتى ‏ ‏ له ابداً شوق الى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم ‏ ‏ فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنحها ‏ ‏ بمخصبة الارداف مجدبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتى ‏ ‏ فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لهوا قطعته ‏ ‏ بذات سوار مثل منعطف البدر
نضت بردها عن غصن بان منعم ‏ ‏ نضير كما انشق الكمام عن الزهر

ومما قاله وهو يبكي على نفسه :

قد كان كالثعبان رمحك فى الورى ‏ ‏ فغدا عليك القيد كالثعبان
قلبى الى الرحمن يشكو بثه ‏ ‏ ما خاب من يشكو الى الرحمن
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ‏ ‏ ما كان أغنى شأنه عن شانى
هاتيك قينته وذلك قصره ‏ ‏ من بعد أى مقاصر وقيان
من بعد كل عزيزة رومية ‏ ‏ تحكي الحمائم فى ذرى الأغصان

كذلك كانت حسرته على أيامه الماضية ، وحالته الحاضرة منعباً من منابع شعره ، هو يتسلى عما ما يتدوق من الآلام . وليس فى البؤس معين غير الشكوى ولا للمنكوب ارتياح لنير أنينه ونظره الى أيامه الماضية ، والى تلك اللحظات التى كان ينعم فيها ، فترتاح نفسه الى ذكرها ، فيشعر كأنه لا يزال فى نعيمها ولذاتها .

فلقد تكون ذكرى السعادة سعادة أخرى فى أوقات البؤس، يتسلى بها البائس فى محنته ، فيرى انه كان وفير الحظ فيها ، وان الدهر يومان ، فاذا كان يوم السعادة قد انقضى فانه لا يزال يذكره .وهكذا تتناوبه الافكار فيستسلم للقضاء وتخف آلامه وهو يتغنى بحوادث الايام

هذه حال ابن عباد فى شعره الذى يبكي فيه ويندب حظه . كما فى قوله :

غريب بأرض المغربين أسير　　　سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا　　　وينهل دمع بينهن غزير
مضى زمن والملك مستأنس به　　　وأصبح منه اليوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد　　　متى صلحت للصالحين دهور
أيا ليت شعرى هل أبيتن ليلة　　　أمامى وخلفى روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورونة العلا　　　تغنى قيان أو ترن طيور
بزاهرها السامى الذُّرَى جاده الحيا　　　تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده　　　غيورين والصب المحب غيور

ولقد كان كل خاطر يمر به وكل منظر يراه يذكره شيئاً من آلامه أو حنينه الى أهله، فينفتق لسانه بقول الشعر الذى يمزق القلوب ويذيبها حسرة

ولما قتل المرابطون ابنه المأمون فى قصر قرطبة وألقوا بجسده على الارض، ومالوا الى رندة حيث ابنه الثانى الراضى وقضوا عليه ، قال المعتمد يرثيهما، وقد رأى قمرية تنوح ، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغماً

بكت ان رأت الفين ضمهما وكر　　　مساء وقد أخنى على الفها الدهر
وناحت فباحت واستراحت بسرها　　　وما نطقت حرفا يبوح به سر

فمالى لا أبكي ؟ أم القلب صخرة   وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحداً لم يشجها غير فقده   وأبكي لآلاف عديدهم كُثر
بنىّ صغير أوخليل موافق   يمزق ذا فقر ويغرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما   بقرطبة النكداء أو رندة القبر
عذرت اذا أن ضن جفنى بقطرة   وان لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى   لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

هذا بعض ما فى نفس المعتمد بن عباد ، وهذا بعض شعره المنبعث من قلبه المقروح . فكان شاعراً وجدانياً ولكن وجدانه امتزج بالحقائق وحوادث الحياة . فكان شعره جميلا له علقه بالقلوب ، لان الوجدان والحقيقة اذا تآلفا فى الشعر وامتزجا فى ساحة الخيال ، أظهرا الحقيقة شعرا جميلا ، والشعر حقيقة مزينة فى ثوب خيالى جميل .

الوزير ابن عمار [1]

كان ابن عمار فى أول أمره فقيرا خامل الذكر، فلم يرد أن يعيش عيشة العامة كغيره، فقصد الى تلك السوق الرائجة، سوق الأدب، وربح فيها، وكان أديبا يقول الشعر فأخذ يسأل بشعره، وكان من الأذكياء كثير المجون كجميع الادباء فى ذلك العصر فانفتح له باب آخر فى الشعر والخيال، وقال فى ذلك كما قال غيره،

---

١ هو أبو بكر محمد بن عمار من أسرة يقولون انها عربية الأصل. وقد عاش الى سنة ٤٧٩ حيث قتله المعتمد بن عباد بيده. ويظن أنه عمر ٥٠ عاما

تأدب على بعض علماء قرطبة ككل الادباء. لان رواج سوق الأدب فى تلك الايام وسهولة مواردها كانت تحمل أمثال ابن عمار على ورود ذلك المنهل. وقد أراد أن يعيش على متون القوافى ومصاريع القريض. فحمله ذلك على أن يجيد الشعر، وكان بطبعه ميالا الى ذلك فبلغ مبلغ غيره من مشهورى الشعراء

وقد كانت حياته حياة حركة واضطراب، فقد كان فى أول أمره يسأل بشعره ليعيش، ويفد على الكبير والصغير ويمدح الامير والصعلوك طالبا عطاياهم.

قالوا عنه: انه لم يزل يجول فى الأندلس مسترفدا لايخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لايبالى ممن أخذ ولا من مدح من ملك أو سوقة، وانه ورد فى بعض سفراته شلب لايملك الا دابة لايجد علفها، فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق: فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيرا ووجه بها اليه. فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز. ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت. وانتهى أمره الى أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها. فدخلها فى موكب ضخم وجملة عبيد وحشم. وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين دخلها أيام أبيه المعتضد بالله. فكان أول شئ سأل عنه صاحب المخلاة، فقال ماصنع الآن أهو حى؟ قالوا نعم، فأرسل اليه بمخلاته نفسها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل له لو ملأتها برا لملأناها تبرا

وما زال ابن عمار على هذه الحال فى كسب الاموال. يدفعه الطمع الى السير فى طريق الوصول الى مراكز العظماء. فشحذ من لسانه لانه هو السلاح الوحيد لديه. حتى علا ذكره بين الشعراء. واشتهر فى عالم الادب. ومدح المعتضد بن عباد بقصيدة أعجب بها اعجابا، وجعله

حتى أخذوا عليه الامعان فى المجون ، والادمان فى الشرب، فقال يدفع عن نفسه ذلك ويذكر مآثرها

نقمتم عليّ الراح أُدمن شربها   وقلتم فتى راح وليس فتى مجد
ومن ذا الذى قاد الجياد الى الوغى   سواى ومن أعطى كثيراً ولم يُكد
فديتكم لم تفهموا السر انما   قليتكم جهدى فابعدتكم جهدى

من أجل ذلك فى جملة شعرائه . ومنذ ذلك الوقت اندمج فى حاشية الامراء ، وخلع عن نفسه لباس البؤس. ثم اتصل بالمعتمد بالله بن المعتضد. وكان شابا أديبا يحب الشعر ويميل اليه فأحبه المعتمد لاتفاقه معه فى الميول والاهواء وفنون الادب والشعر والملاهى وأنواع السرور .
ولما تولى المعتمد ولاية شلب جعل ابن عمار وزيرا له هناك وترك له الحكم والأمر والنهى ، وهناك عاش مع المعتمد عيشة الاصدقاء ، وعيشة اللهو والطرب والمجون . وقد كان مجلس الامير هناك مجتمع الادباء والشعراء الذين كانوا يملأون الجو بكثرتهم . ولا يكاد يخلو مكان منهم وكانت مجالس الادباء هناك كل شيء فى الحياة . فانغمر ابن عمار والمعتمد بن عباد فى السرور واللهو انغمارا ، وصارا كأنهما شخص واحد . حتى غلب ابن عمار المعتمد على أمره ، وملك منه كل شيء . وساءت السمعة بينهما . فلما علم المعتضد بذلك فرق بينهما ، ونفى ابن عمار فى أقاصى بلاد الأندلس . وما زال فى منفاه الى أن مات المعتضد وتولى الامر بعد أبيه المعتمد فدعا اليه ابن عمار واختص به . وامتزج به امتزاجا لايكون بين رجل وأقرب الناس اليه ، حتى لقد كانا ينامان أحيانا على وسادة واحدة . ولكن ابن عمار على الرغم من ذلك كان سيء الظن غير مخلص فى وده . فكان يترقب من المعتمد الفتك به . رغم اخلاصه له . وقد ولاه المعتمد ولاية شلب ثم لم يقدر على بعده فدعاه اليه واستوزره ، وكان معه كما كان جعفر البرمكى مع الرشيد وسلم له كل شيء فى السياسة وأمر الدولة ، حتى أنه أصبح من قواد الجيش وانتصر على الاعداء فى وقائع معروفة ، وكان له حيل فى الخداع ومهارة فى التغلب على غيره . ولما رأى علو أمره خطر له ان يستبد بالملك وأن يكون ملكا . فاراد أن يأخذ بلنسية ويملكها بعد أن فتحها ويخلع طاعة المعتمد . ونسى كل ما كان بينهما . ولكن لم يتمكن من ذلك . وبلغ المعتمد أمره فهرب ولجأ الى سرقسطة . فخذفه هناك بنوهود . فأخرجوه . فالتجأ الى حصن ثم قبض عليه صاحب هذا الحصن وسجنه ثم بعث المعتمد من تسلمه ودخل ابن عمار قرطبة أشنع دخول على بغل بين عدلى تبن وخرج الناس جميعا لرؤيته على هذا الحال . بعد أن كان يهرع اليه الكبير والصغير لتقبيل يده . ولما مثل بين يدى المعتمد أخذ يعد أياديه عليه وابن عمار مطرق رأسه خجلا . ثم أمر به فدخل اشبيلية على الحال التى دخل بها قرطبة . وسجن فى غرفة فى قصر المعتمد . ومنذ هذا الحين كتب قصائده الشهيرة فى الاستعطاف حتى لان منها المعتمد ولكنه رجع عن عفوه وقتله بيده فى السجن سنة ٤٧٩ هجرية .

مع ذلك فقد برع فى المجون ، وكان شعره فيه أصدق منه فى غيره واجمل ديباجة وأسلوبا لانه صادر عن شعور صادق . وله فى ذلك خيالات ومعان جميلة .

وقد كلف بالغناء ومجالسه ، وكلف الناس بحضوره لأنه كان حلو الفكاهة عذب الحديث ، يهرع الادباء الى مجالسه ويسرون بحضوره . فقد رووا ان بعض الكتاب اصطبح يوماً والجو مسكي العوارف ، لازوردى المطارف ، والروض أنيقة لباته ، رقيقة هباته ، والنوْر مبتل ، والنسيم معتل ، ومعه قومه ، وقد راقهم يومه ، وصلاته تصافح معتفيه ، ومبراته تشافه موافيه ، والراح تشعشع ، وماء الامان ينشع ، فكتب الى ابن عمار وهو ضيفه :

ضمانٌ على الأيام أن أبلغ المنى ... إذا كنت فى ودى مسرا ومعلنا
فلو تسأل الأيام من هو مفرد ... بود ابن عمار لقلت لها أنا
فان حالت الأيام بينى وبينه ... فكيف يطيب العيش أو يحسن الغنا

فلما وصلت الرُّقعة اليه تأخر عن الوصول ، فقال أحد الحاضرين : انى لأعجب من ابن عمار ، كيف قعد عن هذا المضمار ، مع ميله الى السماع ؟ فلما كان من الغد ورد ابن عمار ومعه الجواب وهو :

هصرت لى الآمال طيبة الجنى ... وسوغتنى الأحوال مقبلة الدُّنا
وألبستنى النُّعمى أغض من الندى ... واجمل من وشى الربيع وأحسنا
وكم ليلة أحظيتنى بحضورها ... فبت سميراً للسناء وللسنا
اعلل نفسى بالمكارم والعلى ... وأُذنى وكفى بالغناء وبالغنى
سأقرن بالتمويل ذكرك كلما ... تعاورت الأسماء غيرك والكُنى
لأوسعتنى قولا وطولا كلاهما ... يُطوِّق أعناقا ويخرس ألسنا
وشرفتنى من قطعة الروض بالتى ... تناثر فيها الطبع وردا وسوسنا

م — ١٥

هذا كلام وجدانى جميل ، يسوغ للنفس تذوقه ، لأنه طلى العبارة ، عذب سهل فى لفظه ومعناه . مدح ولكنه ليس من المدح الجاف المقصور على ذكر الفضائل وجميل الأوصاف التى ربما لم يكن للمدوح حظ وافر فيها ، بل هو مدح ممزوج بوصف جمال أوقات السرور والسعادة وآثار النعيم فى النفوس وأثر النعمة على المنعم عليه . أو هو شكر يراد به المدح ، أوهو نوع من الافتنان فى المدح وأساليبه

وكانت له خفة روح تظهر فى كلامه ، وكأنه لا يبالى بما يقول ، ولا سيما اذا ذكرت الراح . فقد كان فى حضرة الرشيد بن المعتمد فلما دارت الكأس وتمكن الأنس ، وغنيت أصوات ، ذهب الطرب بابن عمار كل مذهب . فارتجل يخاطب الرشيد .

ما ضر ان قيل اسحق وموصله ... ها أنت أنت وذى حمص واسحق
أنت الرشيد فدع ماقد سمعت به ... وان تشابه أخلاق وأعراق
لله درك داركها مشعشعة ... واحضر بساقيك ماقامت بناساق

هكذا كان يفعل السرور فى رأس ابن عمار ،فكان لأثره فى نفسه وشعره شيء كثير ، وكان شعره فى اللهو والغزل من أحسن ما قيل فى نوعه ، وان كانت معانيه كـكل المعانى ، الا ان له بهاء فى أسلوبه كـكل الشعراء الفنيين . ولقد يقول المعنى فيخيل اليك انه شيء جديد . كما قال يتغزل :

قالوا أضرَّ بك الهوى فأجبتهم ... يا حبذاه وحبذا اضراره
قلبى هو اختار السقام لجسمه ... زيًّا نخلوه وما يختاره
عيرتمونى بالنحول وانما ... شرف المهند أن ترقّ شفاره
منْ قدَّ قلبى اذ تثنى قده ... وأقام عذرى اذ أطل عذاره
أمْ من طوى الصبح المنير نقابه ... وأحاط بالليل البهيم خماره

أما مدحه، فله أسلوب خاص في تصور المعاني وترتيبها : يعرض صورا مختلفة من الأخيلة التي كانت معروفة في الأندلس بعبارة سهلة رشيقة ، كما في قصيدته التي مدح بها المعتضد ، وهي تدل على مقدار ملكة الشعر وقوّتها في نفسه ، وانه شاعر بفطرته . يشعر بجمال القول، ويعرف كيف يصل الى اقتناص المعاني الجميلة ، ويضعها في أسلوب جميل ، وخيال جميل ، ورقة في الذوق ، وكأنك تقرأ كلاما منثورا لا شعراً منظوماً . أو كأنك تسمع نغمات الأوتار ، أورنات القوافي أو حفيف الأشجار والنسيم يمسحها ويملقها . أو انك في روض تفتحت فيه الأزهار ، ومالت عليك ظلال الاشجار ، أو كأنك ترى كتابا مفتوحاً سطرت فيه حياة المعتضد أو مرآة تنعكس فيها أعماله، أو مصوراً يرسم لك بالقلم والبيان لا بالريشة والألوان. كما قال :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره	لما استردّ الليل منا العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره	وشيا وقلده نداه جوهرا
أو كالغلام زهى بورد رياضه	خجلا وتاه بآسهنّ معذرا
روض كأن النهر فيه معصم	صاف أطلّ على رداء أخضرا
وتهزه ريح الصبا فتخاله	سيف ابن عباد يبدّد عسكرا
عباد المخضر نائل كفه	والجوّ قد لبس الرداء الاغبرا
علق الزمان الاخطر المهدى لنا	من ماله العلق النفيس الاخطرا
ملك اذا ازدحم الملوك بمورد	ونحاه لا يردون حتى يصدرا
أندى على الاكباد من قطر الندى	وألذ في الاجفان من سنة الكرى
يختار اذ يهب الخريدة كاعبا	والطرف أجود والحسام مجوهرا
قدّاح زند المجد لا ينفك عن	نار الوغى الا الى نار القرى

لاخلق أفرى من شفار حسامه   ان كنت شبهت المواكب أسطرا
أيقنت انى من ذراه بجنـــة   لما سقانى من نداه الكوثرا
وعلمت حقاً انّ ربعى مخصب   لما سألت به الغمام الممطرا
من لا توازنه الجبال اذا احتبى   من لا تسابقه الرياح اذا جرى
ماض وصدر الرمح يكهم والظبا   تنبوا وأيدى الخيل تعثر فى البرَى
قاد الكتائب كالكواكب فوقهم   ....
من كل أبيض قد تقلد أبيضاً   عضبا وأسمر قد تأبط أسمرا
ملك يروقك خَلقه أو خُلقه   كالروض يحسن منظرا أو مخبرا
أقسمت باسم الفضل حتى شمته   فرأيته فى بردتيـــه مصورا
وجهلت معنى الجود حتى زرته   فقرأته فى راحتيه مفسرا
فاح الثرى متعطراً بثنائه   حتى حسبنا كل ترب عنبرا
وتتوّجت بالزهر صلع هضابه   حتى ظننا كل هضب قيصرا
هصرت يدى غصن الندى من كفه   وجنت به روض السرور منوّرا
حسبى على الصنع الذى أولاه أن   أسعى بجدّ أو أموت فأعذرا
يا أيها الملك الذى حاز المنى   وحباه منه بمثل حمدى أنورا
السيف أفصح من زياد خطبة   فى الحرب ان كانت يمينك منبرا
ما زلت تغنى من عنى لك راجيا   نيلا وتغنى من عتا وتجبرا
حتى حللت من الرياسة محجرا   رحبا وضمت منك طرفا أحورا
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد   الا اليهود وان تسمت بربرا
أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم   لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء ملوكهم   لما علمت الحسن يلبس أحمرا
نمقتها وشيا بذكرك مذهبا   وفتقتها مسكا بحمدك أذفرا

من ذا يناغيني وذكرك صندل   أوردته من نار فكرى مجمرا
فلئن وجدت نسيم حمدى عاطرا   فلقد وجدت نسيم برك أعطرا
واليكها كالروض زارته الصبا   وحنا عليه الطل حتى نورا

وكان ابن عمار يتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن كل شيء، فلم تكن تمر به حادثة من الحوادث الا ذكرها فى شعره. فكان اذا أراد أن يكتب للمعتمد كتب له شعرا، واذا أراد أن يشكو، شكا فى شعره، واذا أراد أن يذكر خبرا ذكره فى شعره. وكأنما كان شعره صحفة من صحفه اليومية.

ويخيل الى من يقرأ كلامه أن المعانى كانت تنهال عليه انهيالا، أو أن الشعر صقل لسانه وتمكن منه، حتى أصبح لايقول الا شعرا، أو لايقدر على التعبير الا بنظم المعانى، أو أن الشعر عنده كالنثر فى سهولة التعبير. وأكثره خال من الخيالات الشعرية، ولكنه يحسب من صميم الشعر لأن به جمال الشعر: وهو امتلاك النفوس بهذه العبارات السهلة، واعجاب الانسان بزلاقة لسانه وتناسق ديباجته. اذ ليس كل شعر خيالا، وليست بهجة الشعر وصناعته محصورة فى الخيال: من تشبيه حسن أو كناية عجيبة أو مجاز غريب. فقد يكون الشعر معرفة التعبير عما فى النفس وكشف ما بها. وحسب الشاعر أن يصل بعبارته الى امتلاك الاسماع واعجاب النفوس بقوله. وليس الشعر غير ذلك. كقوله:

أأسلك قصدا أم أعوج عن الركب   فقد صرت من أمرى على مركب صعب
وأصبحت لا أدرى أفى البعد راحتى   فأجعله حظى أم الحظ فى القرب
اذا اقتدت فى أمرى مشيت مع الهوى   وان أتعقبه نكصت على عقبى
على اننى أدرى بأنك مؤثر   على كل حال مايزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمى   وأرجوك للحب الذى لك قلبى
أيظلم فى وجهى لذا قمر الدجى   وتنبو بكفى صفحة الصارم العضب

حنانيك فيمن أنت شاهد نصحه ... وليس له غير انتصاحك من حسب
وما جئت شيئا فيه بغى لطالب ... يضاف به رأى الى العجز والعجب
سوى أننى أسلمتنى لملمة ... فلات بها حدى وكسرت من قربى
وما أغرب الايام فيما قضت به ... تريني بعدى عنك آنس من قربى
أما انه لولا عوارفك التى ... جرت جريان الماء فى الغصن الرطب
لما سمت نفسى ما أسوم من الأذى ... ولا قلت ان الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحمى لديك ضراعة ... وأسأل سقيا من تجاوزك العذب

وكان لآلامه أثر عظيم فى شعره ، فكانت قصائده فى استعطاف المعتمد وسيلة من وسائل التعبير عن كل آرائه وخطرات نفسه . وليس أرق فى كلامه من استعطافه ، ولا أشد أثرا فى النفس من كلامه حين تضيق فى وجهه الدنيا على رحبها . فمن ذلك قوله للمعتمد

سجاياك ان عافيت أندى وأسمح ... وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطتين مزية ... فأنت الى الأدنى من الله أجنح
حنانيك فى أخذى برأيك لاتطع ... عداتى وان أثنوا علىّ وأفصحوا
وماذا عسى الاعداء أن يتزيدوا ... سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنب غير أن لحلمه ... صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
وانّ رجائى ان عندك غير ما ... يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة ... يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقبت أعمال مفسد ... أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضا ... له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم جنيته ... بهبة رحمى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم فكل اناء بالذى فيه يرشح
وما ذاك الا ماعلمت فاننى اذا تبت لاأنفك آسو وأجرح
وقالوا سيجزيه فلان بفعله فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا ان بطشا للمؤيد يتقى ولكن حلما للمؤيد أرجح
وبين ضلوعى من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام مجلح
سلام عليه كيف دار به الهوى الىَّ فيدنو أو علىَّ فينزح
ويهنيه ان مت السلو فاننى أموت ولى شوق اليه مبرّح

وقال يصف سجنه لصديق له وكأنما هى أنة من أنينه ، ولوعة من لوعاته ، وهى من الشعر المطبوع :

أدرك أخاك ولو بقافية كالطل يوقظ نائم الزهر
فلقد تقاذفت الركاب به فى غير موماة ولا بحر
طاحت صحابته بلا سنة وتساقطوا سكرا بلا خمر
بمعارج أدت الى جرد حى من الأنواء والقطر
عال كأن الجن اذ مردت جعلته مرقاة الى النسر
وحش تناكرت الوجوه به حتى استربت بصفحة البدر
قصر تمهد بين خافيتى نسرين من فلك ومن وكر
متحير سال الوقار على عطفيه من كبر ومن كبر
ملكت عنان الريح راحته فجيادها من تحتها تجرى
مأوى العزيز وقد نصحت فان يهمل فقد أبليت فى العذر
واصلت خدمة قاطع سببى وأطعت أمر مضيع أمرى
دع ذا وصلنا غير مؤتمر مستأثرا بالحمد والشكر

وله مدائح كثيرة فى المعتضد وابنه كلها من جميل القول .

هذا شيء عن ابن عمار وهذه صورة من حياته وميوله النفسية، يمكن بها معرفة مافى شعره من الرقة والمعانى الوجدانية، وما له من السهولة فى الأسلوب ولا سيما خلو كلامه من المعانى الجدية أو الفلسفية أو الاجتماعية،فقد قصر كلامه على الوجدانيات فى شكواه وبث آلامه.فليس هو من الشعراء المفكرين، ولا ممن كان للتربية العلميـة أثر فى نفوسهم، وكأنه لم يطلع على شيء سوى أوزان الشعر وعبارات البلغاء . حتى امتلأت نفسه من ذلك ، ومال الى قول الشعر. فأصبح من أكبر الشعراء الوجدانيين

عبد الجليل بن وهبون [١]

عاش عبد الجليل ابن وهبون فى حاشية المعتمد بن عباد، ومر بتلك الاحوال التى مر بها ابن عمار وغيره . من مجون ولهو وطرب ، فكان له نصيب فى ذلك . وقالوا عنه ماقالوا فى غيره من حب اللهو والميل الى الغلمان . وذكروا له شعرا كثيرا فى ذلك . وكأن كل نفسه كانت منصرفة لهذا ، وليس بعجيب أن ينغمس ابن وهبون فى هذه البيئة لانه عاش فيها ، ولأن كل الناس كانوا على تلك الحال.

---

١ لم نقف على تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته. ولكن عرف عصره الذى عاش فيه ورفاقه الذين عاشرهم .

عاش ابن وهبون فى عصر المعتمد بن عباد وكان من المقدمين فى حضرته. وصديقا للوزير ابن عمار . فهو اذاً من أهل القرن الخامس الهجرى ويقولون انه توفى فى أوائل القرن السادس قبل سنة ٥٣٣ . هاجر من بلاده كورة تدمير واستقر بأشبيلية حيث عزة الملك والمال كانت فى أوجها . وسوق الادب والعلم رائجة ، وكان من أصحاب الرحلات والنقلة . يفد على الملوك والامراء مع عزة فى نفسه . فقد إجتاز مرة بالمرية وقد ملكها المعتصم بن صمادح فاهتز له وعرض عليه مالا وافرا فلم يقبل وكان اليوم عيدا فقال :

دنا العيد لو تدنو به كعبة المنى ورکن المعالى من ذؤابة يعرب

فيا أسفا للشعر ترمى جماره ويابعد ما بينى وبين المحصب

وقد صاحبه ابن عمار وأخلص له ورفع قدره وأكرمه. وسبب ذلك أن ابن وهبون لما قدم شبيلية قصد الاستاذ أبا الحجاج الاعلم مؤدب أولاد ابن عباد . وكان فى نفس ابن وهبون أن يكون له بهذا الاتصال شيء من الرفعة. وعلق آمالا كثيرة على ذلك. وحدث أن مدح المعتمد بقصيدة من أحد كبار الشعراء الذين كان يستثقل ظلهم الاستاذ الأعلم ، وقالوا انه عرض فى هذه القصيدة به . فعرضها على ابن وهبون وولاه أمر الرد عليها. فقال فى ذلك قصيدة سمعها فجن بها وطار بذكره . وأعجب به . ولما علم المعتمد به أنزله منزلة عظيمة وقصره على هواه فلم يرحل الى ملك سواه . وبقى فى حضرة المعتمد . ولما بدت الفتنة هناك خرج هاربا ثم تلاقى بعصبة وجيش من جيوش الأعداء فاستشهد على أيديهم .

ولكنه مزج بين الجد والهزل فى شعره. فتراه تارة خليعا ماجنا ، حلو الكلام عذب العبارة ، منغمسا فى ملاذه ومسراته انغماس الرجل الذى تسيره أهواؤه ، وكأنه لاينظر الى الدنيا وما فيها غير نظر الماجنين . فاذا أتعبتك خفة روحه ، وأفعمت نفسك سرورا من خلاعته ومجونه ، ونظرت نظرة أخرى الى شعره ، رأيت ينابيع الحكمة تتفجر من غضونه ، وظننت أنك تقرأ فى كتاب حكمة وفلسفة ، لا فى ديوان شعر وخيال ، أو كأنما تقرأ كلام شاعر حكيم ، بلسان عربى مبين ، أو انه نفحة من نفحات المعرى ، أو حكمة من حكم المتنبى

لم يترب ابن وهبون تربية خاصة ، ولم يعش عيشة غير عيشة من كان معهم. ولكن آراءه ليست كآراء غيره ممن عاشوا معه ، بل ذلك شىء غير معروف عند أكثر شعراء الأندلس . فقد عهدنا الأندلسيين برعوا فى نوع جميل من الخيال ورقة الاسلوب وجزالة اللفظ ، والأوصاف التى دعتهم اليها آثار تلك المدنية الحديثة ولم يعهدها شعراء العرب. أما ابن وهبون فقد برع فى نوع آخر وهو الشعر الفلسفى على انه لم يقصر فى ذلك النوع ولم يتأخر عن السبق فى هذا الميدان

---

١ فمما رووا عنه انه ركب بأشبيلية زورقا فى ليلة مظلمة مع جماعة كان بينهم غلام جميل بيده شمعتان . فقال ابن وهبون فى ذلك :

أعجب بمنظر ليلة ليلاء تحيا بها اللذات فوق الماء
فى زورق يزهى بغرة أغيد يختال مثل البانة الغيناء
قرنت يداه الشمعتين بوجهه كالبدر بين النسر والجوزاء
والتاج تحت الماء ضوء جبينه كالبرق يخفق فى غمام سماء

وقال فى فتى وقد تابطه وزير جميل .

ياهلال استتر بوجهك عنى ان مولاك قابض بشمالى
هبك تحكى سناه خيرا بخير قم يحكى لقده بمثال

وقال متغزلا وقد أبدع ابداع المغرمين الفنيين .

زعموا الغزال حكاه قلت لهم نعم فى صده من عاشقيه وهجره
وكذا يقولون المدام كريقه يارب ماعلموا مذاقة ثغره

ميدان الخيال. حتى رموه بالمجون أكثر من غيره ، وقالوا ان ذلك حط من شأنه . ولكنه رغم ذلك من الشعراء المفكرين. وفى الحق ان ذلك لم يكن ناشئا من تربية فكريه أو اطلاع واسع على علوم الدين والفلسفة، ولكنه كان ذكياً مفكرا، وشاعرا صافى القريحة ، قادرا على نظم المعانى نظما شعريا . ولا بد أن يكون قرأ كثيرا من شعر المتنبي وأبى العلاء فأخذ يعارضهم فى أساليبهم ، أو يجاريهم فيما كانوا ينظمون من المعانى والموضوعات ، مع بلاغة عبارته. كما قال :

نفسى وجسمى ان وضعتهما معا — آل يذوب وصخرة خلقاء
لوتعلم الأجبال كيف مآلها — على لما امتسكت لها أرجاء
انا لنعلم مايراد بنا فلم — تعى القلوب وتغلب الأهواء
طيف المنايا فى أساليب المنى — وعلى طريق الصحة الا دواء
تتعاقب الأضداد مما قد ترى — جلبت عليك الحكمة الشنعاء
ماذا على ابن الموت من ابصاره — ولقائه هل عقت الابناء
أيغرنى أن يستطيل بى المدى — وأنا بحيث تواطت الغبراء
لم ينكر الانسان ماهو ثابت — فى طبعه لو صحت الآراء
ونظير موت المرء بعد حياته — ان تستوى من حسنه الاعضاء

هذه فلسفة منظومة . واذا كان هذا يحسب من الشعر الجميل فذلك لمعانيه وما فيه من الآراء التى تجذب النفوس اليها ، كما يجذبها الخيال الجميل ، والبلاغة الساحرة ، فهو من هذه الجهة شعر جميل أيضاً

ولكن الأدباء لم يفهموا هذا النوع من الشعر ، بل لا يقولون انه من باب الشعر . وقد ظنوا أن الشاعر الذى يحوم حول هذه المعانى انما دفعه العجز الى

ورودها، ورماه اليها ضيق التصور وجفاف الفكر [١].

قال ابن وهبون هذه القصيدة فى رثاء أبى الحجاج الاعلم، وأتمها فى مدحه. ورثاؤه يشبه فى جملته رثاء أبى العلاء من حيث معانيه. وقد يكون قرأ شعر أبى العلاء أو المتنبى. ولكن مهما كانت الحال فليس ادراك ابن وهبون كادراك غيره من الشعراء. وان كان جاراهم فى أساليبهم الشعرية، فانه ميزة ظاهرة فى المدح نفسه، الذى هو شكل معروف وطابع اتفق عليه فى الادب والخيال، من تعداد الفضائل والأوصاف الكريمة كما قال من قصيدة فى مدح ابن عمار قال:

قَتلتُ بنى الأيام خُبراً فباطنى ... مَشيب وما يبدو علىّ شبابُ
ولما رأيتُ الزورَ فى الناسِ فاشياً ... تخيل لى أن الشبابَ خضابُ
وآليت لولا ملك لخم محمــد ... لما كان ملك فى الأنام لباب [٢]
ولولا ابن عمار وفاضل سعيه ... لأصبحَ ربعُ المجد وهو خرابُ
وما كان يؤتَى الأمنُ من حيث يتقى ... ولا كان يدرى للحوادث باب
ولا أحرقت أرض العدو صواعقٌ ... ولا أمطرت أرض العفاة سحاب
وما كان هرون أصح وزارة ... لموسى وهل دون السحاب حجاب
نهوض ولو ان الأسنة مركب ... ورود ولو ان الحمــام شراب

---

١ قال صاحب الذخيرة فى ذلك:

وهذا معنى فلسفى قلما عرج عليه عربى. انما فزع اليه المحدثون من الشعراء حين ضاق عنهم منهج الصواب، وعدموا رونق كلام الاعراب. فاسرعوا الى هذا الهذيان اسراع الجبان الى تنقص أقرانه. واستجادة سيفه وسنانه. وقد قال بعض أهل النقد انه عجيب فى الشعر والنثر أن يأتى الشاعر أو الكاتب بكلمة من كلام الحكماء أو بألفاظ الفلاسفة القدماء. وانى لأعجب من أبى الطيب على سعة نفسه، وذكاء قبسه، فانه أطال قرع هذا الباب والتمرس بهذه الاسباب. وكذلك المعرى كثر به انتزاعه وطال اليه ايضاعه، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه وحسبك من شر سماعه.

٢ كذا فى الاصل

مضى مثل ما يمضى القضاء وهزه ‏ ‏ همام يهز الجيش وهو هضاب
كما اقترنت بالبدر شمس منيرة ‏ ‏ له عن سناها فى الخطوب مآب
أنافت به فوق السما كبن همة ‏ ‏ أناف عليها عنصر ونصاب
فلفظته يوم المباهاة خطبة ‏ ‏ ولحظته يوم اللقاء ضراب
له سنة فى الجد والهزل مثلما ‏ ‏ تدار كؤوس أو تدق حراب

وقد نزع أيضاً فى بعض شعره نزعة أبى العلاء والمتنبى فى الفخر بنفسه ومدحها ، لان تلك كانت الطريقة الجديدة أو بدعة الشعر فى ذم الناس والفخر بالنفس كقول المتنبى .

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ‏ ‏ والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وقول المعرى .

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا ‏ ‏ تجاهلت حتى ظن انى جاهل

فقد قال ابن وهبون:

أتخفى على الأيام غرُ مناقبى ‏ ‏ وقد بذ شأوى شأو كل نقاب
ويركبنى رسم الخمول وقد غدت ‏ ‏ خصال العلى والمجد طوع ركابى
سأرمى بهمّاتى قصارى مراتبى ‏ ‏ وان كان أدناها يطيل طلابى
لتعلم أطراف الأسنة اننى ‏ ‏ كفيل بها عند الصدى بشراب
وتشهد أطراف اليراعات اننى ‏ ‏ بهن مصيب فصل كل خطاب
وليس نديمى غير أبيض صارم ‏ ‏ وليس سميرى غير شخص كتاب
مضمخة لا بالخلوق أناملى ‏ ‏ مزعفرة لا بالعبير حرابى
ولكن بنفح يخجل الروض زاهرا ‏ ‏ ولكن بدغش فى كُلي ورقاب

وربما كانت تملأ نفسه حكم المتنبى وأسلوبه فينسج على منواله ، حتى لقد

يخيل اليك أنك تقرأ شعر المتنبى وقوافيه . ولعل ذلك كان من ضروب التقليد والمحاكاة أكثر منه من باب التفكير والابتكار . ولكنه يدل على ميل ابن وهبون الى التفكير وحب الكلام فى المعانى الجدية ، والبحث فى بعض أحوال الناس ووصف بعض الأخلاق ونقدها ، واظهار عدم رضاه عما يرى ويسمع فى الحياة وهو يتخذ الشعر وسيلة من وسائل التعبير وجمال القول. كما قال:

أطلتُ فى الدهر تصعيدى وتصويبى ... ودهر ذِى اللب مِضمار التجاريب
ورُبَّ أخرَ لا يُهدَى إلى فمه ... أصاب غرة مأمول ومرغوب
وآفتى أدب باد فضيلتـــه ... من حيث يشفع لى قد صار يغرى بى
كفى من الحظ أنى لا أنافس فى ... حظ ومخبرتى تكفى وتجريبى
وقد أرى صوراً فى الناس ماثلة ... أشيمها بين تحقيق وتكذيب
لمّا ملأت يدى منهـم لأخبرهم ... نفضت كفى باشباه اليعاسيب
بيض وجوههم سود ضمائرهم ... فما حصلت على عُرب ولا نوب
الصدق أولى بمن يبدى ضغينته ... لا تجعل الصدق من نعت الأصاحيب

مع هذا فكان ابن وهبون يجارى الشعراء فى صناعتهم من مدح صناعى وكلام صادر من غير شعور . وذلك لتمكن ملكة الشعر منه واحتياجه الى هذه المجاراة. ولكن ذلك لم يكن يخلو من نظراته وملاحظاته، مما يدل على انه كان كثير التفكير . ولقد يمزج بعض آرائه النقدية بعباراته الشعرية مع شيء من التهكم، فتجد كل ذلك جميلا. كما قال وقد توقف مرتبه عند العامل

ألستم معشر الاملاك طائفة ... تقفى بتخليدها هذى الأناشيد
فان تقصتم أناسا من نوالكم ... تحق منكم لأهل الشعر تزييد
لكُم خلقنا ولم نخلق لأنفسنا ... فانما نحن تحميد وتمجيد
ياصاحب المجد ان المجد سائمة ... تضل اذ لم يكن بالشعر تقييد
خذنى بماشئت من غراء شاردة ... يصغى الأصم اليها وهو مفؤود

واعذر بتقصيرها من لا يزال له	في ساقة الرزق ارقال وتوخيد
لا يدرك القوت مما أنت واهبه	حتى يطول من العمال تنكيد
وليس للشعر الا خاطر يقظ	يهزه منك ترفيد وتأييد
وما المدائح الا بالملوك وهل	يبدى سنا العقد الا النحر والجيد

وكم قال:

قل للرشيد وقد هبت نوافحه	أسرفت يادية المعروف فاقتصد
أشكو لديك الندى من حيث أحمده	لوفاض فيضاً على البحرين لم يزد
ياقاتل الشكر بالاحسان يغمره	مهلا أما لقتيل الجود من أود
عجبت من كرم فى راحتيك بدا	اسرافه كيف لا يعزى الى الفند
آثرت عندك من جاه ومن نشب	حتى وجدت الغنى فى همتى ويدي
ياواحداً تقتضى آلاؤه جملا	برحت بى و بنظم الشعر فاتئد
للناس بعدك فى العليا منازلهم	والواحد الفرد يحوى مبدأ العدد

وبرع فى الوصف وفى كل ما قال فيه، فقد وصف قصرا بقصيدة طويلة جيدة المعنى، ولم تخل من بعض الآراء لأنه لم يكن يسرد الكلام سرداً بدون فكر. قال فى هذه القصيدة:

وللزاهى الكمال سنا وحسنا	كما وسع الجلالة والكمالا
يحاط بشكله عرضاً وطولاً	ولكن لا يحاط به جمالا
تواصلت المحاسن فيه شتى	فوفد اللحظ ينتقل انتقالا
وقدر مثل ركز الطود ثبت	ومختال من الحسن اختيالا
تدافع من جوانبه ائتلافا	يكاد المستبين يقول مالا
فلو أدنوا حرام السحر منه	لأضحى يعبد السحر الحلالا
سماء ترتمى بعباب تبر	كأن بها اكاما أو تلالا

فقد كاد اللبيب يهاب منه ويحسب ان بحر الجوّ سالا
فما أبقى شهابا لم يصوب ولا شمساً تنير ولا هلالا

ومنها فى الحكم

تزاحمت الهموم خلال صدرى فما تركت لأنفاسى مجالا
وما خلت الزمان يكون ثقلا ولا نفحاته تأتى وبالا
كأنى كلما استنشقت منه أردُّ به الى كبدى نصالا
وكيف يصح ذو قلب أبىّ اذا كان الاباء له نكالا

هذا هو عبد الجليل بن وهبون . وهو وان لم يكن من الشعراء المعروفين بكثرة الكلام ، فان شعره صورة من صور الأدب فى الأندلس القليلة المثال. بل هو من الشعراء الذى كانوا يحاولون الانتقال بالشعر من الخيال الصرف الى المعانى العامة . أو الى نوع من فلسفة التفكير التى تدل على ان حسن الديباجة وجمال الأسلوب يجعلان الفلسفة شعراً ، والتفكير العميق فى باب الخيال الجميل

ابن حمديس الصقلى [١]

ولد عبد الجبار بن حَمْديس بجزيرة صقلية. ولم يكد يتنسم ريح الشباب حتى وقعت بلاده فى يد النُّرْمانديين، الذين لم تكد تطأ أقدامهم تلك الجزيرة حتى نكلوا بأهلها كل تنكيل، وأذاقوهم العذاب الأليم، وحملوهم على ترك دينهم، وفتكوا بأعراضهم، وأذلوهم وأهانوهم فى شرفهم. فشاهد ابن حمديس، ذلك ورأى بعينه كيف تسلب الأوطان من أهلها، وكيف يجرؤ القوى على سلب حقوق الضعيف، وينقضّ عليه كما ينقض اللص ذو القوة والطول، على الضعيف السليب من كل قوة وحول

لذلك آثر الهجرة على البقاء بين قوم اغتصبوا بلاده. وكان لهذا أثر عظيم فى نفسه وخياله الشعرى وأخلاقه حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة، وصدره من الصدور المنقبضة، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث.

فهاجر الى اسبانيا ونزل بأشبيلية، وعاش فى حاشية المعتمد بن عباد وصار فى جملة شعرائه، وتبعه فى منفاه. ولم يكن ابن حمديس معروفا عند قدومه الى أشبيلية. فقد قال:

«أقمت بأشبيلية لما قدمتها على المعتمد بن عباد مدة لا يلتفت الىَّ، ولا يعبأ بى، حتى قنطت لخيبتى مع فرط تعبى، وهممت بالنكوص على عقبى. فانى لكذلك ليلة

---

١ ولد أبو محمد عبد الجبار بن أبى بكر بن محمد بن حمديس الازدى الصقلى سنة ٤٤٧ هـ فى جزيرة صقلية وفى سنة ٤٧١ هـ هاجر الى أسبانيا وعاش فى أشبيلية وتوفى سنة ٥٢٧ بجزيرة ميورقة

من الليالى فى منزلى اذ بغلام معه شمعة ومركوب، فقال لى أجب السلطان. فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة فَنَك[١]، وقال لى افتح الطاق التى تليك ففتحتها، واذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى، فحين تأملتها. قال لى أجز.

انظر هما فى الظلام قد نجما . فقلت: كما رنا فى الدُّجُنَّة الأسد

فقال: يفتح عينيه ثم يطبقها . فقلت: فعل امرئٍ فى جفونه رمد

فقال: فابتزه الدهر نور واحدة . فقلت: وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمنى خدمته[٢]»

أما نفسه فنفس رجل ربته الحوادث ونالت منه الايام. وأذاقته مرها قبل حلوها. فثقلت عليه الحياة. ولوت من ظهره بعد ان أخرجته من وطنه وليس له الا لسانه وخياله. وقد كان لبلاده أثر طيب فى نفسه ومنزلة رفيعة وحب جم. فلما اضطر الى الهجرة والنزول فى غير أهله تعست نفسه، وأظلمت فى وجهه الدنيا وكثر حنينه الى بلده، وصار ذلك من أظهر صفاته النفسية مهما حاول الخروج منه الى وصف الملذات أو التظاهر بالمسرات. ولقد يلمح الانسان هذا فى كل شعره حتى فى الغزل والخمريات والمدح والوصف.

وأما عقله فكان ميالا الى ادراك الاشياء والمعانى ادراك من يحاول فهم ما يرى ويكفر. فقد كان يرغب دائماً فى تشبيه المحسوسات بالمعقولات، والمعقولات بالمحسوسات. وهذه طريقة من طرق المحاولة فى الادراك. وأكثر اهتمامه فى تشبيهاته موجه الى وصف المرئيات وادراكها. ولقد تظهر حركة عقله عند قراءة شعره بسبب انتقاله من معنى الى آخر، ومحاولة الخروج من طريق واحد الى طرق

---

١ دابة فروتها أطيب أنواع الفراء

٢ نفح الطيب جزء ٢ صفحة ٤١٦

متشعبة . أما قوته الشعرية التى بها تكوين هذه الاشياء ووضعها فى أسلوب خيالى جميل فتابعة لنفسه وعقله، وأ كثر اعتماده فى ذلك على مايكتسبه من التأثر بظواهر الأشياء، وما فيها من التشابه بالجمال .

ذلك أسلوبه فى شعره أوان هذه هى صفات شعره : يشكو الزمان و نصيب الحر منه وكثرة نوبه، ويأتى فى خلال ذلك بعبارات شعرية جميلة تدعو القارىء الى الشعور بما يشعر به هو

وعلى الرغم من صبغته الجدية فى شعره، فان كثرة كلامه فى الخمر ومجالسه والعشق وآثاره، تدل على انه كان يميل الى شىء من المجون ، ولكنه كان أقل من غيره فى ذلك فان الانسان لا يكاد يرى لتهتك أثراً فى كلامه . ولولا انه عاش فى هذا العصر وفى حاشية المعتمد بن عباد ،لقلنا انه كان بعيداً عن اللهو والمجون، ولحملنا شعره الذى جاء فى هذا على نوع من الصناعة والخيال ، اذ اننا نجده فى كثير من شعره يميل الى الكلام فى المواعظ والعبر، أو الى بعض الآراء التى تدل على انه كثيراً ما كان يدفعه الفكر الى خوض المعانى النفسية أو الخواطر الفلسفية ، ويمزج هذه الافكار ويصوغها فى أنواع شعره . ويظهر من شعره انه أنضج من غيره وأ كثر تأثراً بالمعانى الاجتماعية من سواه .ولهذا أيضاً نراه شاعراً مفكراً من أصحاب الملاحظات والنظر فى الحياة والاجتماع أ كثر منه شاعراً وصافا كما هو معروف عنه . ويمكن الاستدلال من هذا على تربيته العقلية وحالته الفكرية .

وقد أبدع فى هذا الشعر الجدى المملوء بالعبر والحكم . كما دل على انه مفكراً أ كثر منه خيالياً لاشتمال شعره على جولات فكرية مملوءة باحواله النفسية ، والآلام التى يشعر بها ، وكثيراً ما تظهر هذه الآلام آلاماً لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة ، كما تظهر آلام العاشق الشاعر آلاما لكل العاشقين. لذلك كان ابن حمديس شاعراً نفيساً ناقما على الحياة وما فيها . كما قال

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب		أو قال حسبى من اخمال ذى حسب
لا يلحظ الحر الا مثلما وقعت		على أخى سيئات عين ذى غضب
وكيف يصفو لنا دهر مشاربه		يخوضها كل حين جحفل النوب
ان الزمان بما قاسيت شيبنى		ولم أشيبه . هذا والزمان أبى
ولوخلا الدهر ذو الأنباء من عجب		أكثرت منه ومن أنبائه عجبى
قرأت وحدى على دهرى غرائبه		فما أعاشر قوماً غير مغترب
أحلت عزمى على همى فقطعه		كأن عزمى على صمصامتى الذرب
ماقر بى السير فى سهل ولا جبل		الا كما قر جارى الماء فى صبب
ولم أضق فى السرى ذرعا بمعضلة		قد زاحمتنى حتى ضاق مضطربى
وترتقى حر أنفاسى فابعثه		برداً وان كان مستبقى من اللهب
وأحر بالحر ان تلقاه ذا جلد		وان تبطن داء قابل الوصب

ولقد تنقبض نفسه فتحرك خياله حركة البائس الذى ينظر الى الأيام نظر الحاقد، ويعدد مساوئها ويندب أوقات الشباب، وكأنه واقف على أبواب الموت يودع الحياة ويطلب المغفرة من الله ذلك وهو فى حالة كآبة نفسه متأثرة بهذه الخواطر . كما قال :

وُعظت بلمتك الشائبة		وفقد شبيبتك الذاهبة
وسبعين عاماً ترى شمسها		بعينك طالعة غاربة
فويحك هل عبرت ساعة		ونفسك عن زلة راغبة
فرغت لصنعك مالا يقيك		كأنك عاملة ناصبة
وغرتك دنياك اذ فوضت		اليك أمانيها الكاذبة
أصاحبة خلتها ؟ انها		باحداثها بئست الصاحبة

اما سلبت منك برد الشباب	فهل يسترد من السالبة
وان دقائق ساعاتها	لعمرك آكلة شاربة
وان المنية من نحوها	عليك باظفارها واثبة
ألم ترها بحصاة الردى	لكل حميم لها حاصبة
كأن لنفسك مغتبطا	غدت للذنوب به جاذبة
فيا حاضراً ابدا ذنبه	وتوبته أبدا غائبة
أذب منك قلبا تجارى به	سوا كب عبرتك الساكبة
على كل ذنب مضى فى الصبا	وأتعب اثباته كاتبه
عسى الله يدرأ عنك العقاب	والا فقد ذمت العاقبة

وقد يكون ابن حمديس من أكبر شعراء العرب وأفضلهم، لان لشعره صبغة خاصة ليست معروفة كثيراً فى الشعر العربى : تلك الصبغة هى محاولة الخروج من الوجدانيات التى هى أكبر مظاهر الشعر العربى ، الى الكلام عما يجول بالنفوس، لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غير ، بل من جهة التفكير أيضاً وما يمر بنفس الانسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها ، وما يعتريه من حيرة وشك ويقين، وكراهة للوجود أحياناً، وميل الى البقاء تارة . ذلك بعرض صور الحوادث المؤلمة التى تزهد فى الدنيا وتنفر الانسان من رؤيتها وتلك بوصف أوقات الانس ولحظات السرور ، من حسن الذكرى ووصف مجالس اللهو والطرب والخمر ولذتها ، والجمال وأثره فى النفس وغير ذلك من أصفى وجوه الحياة وأجمل صورها .

فهو فى كل أنواع شعره جاد لا مازح . ولذلك تجد أثر فكره وحركة عقله فى كل كلامه ، وتشعر بنفسه المفكرة اذا قرأت شعره، كما تشعر بتلك الحيرة التى هى أصل كل تفكير ، وكما تشعر بسعة خياله الشعرى . واذا اجتمعت قوة الفكر

وسعة الخيال لانسان كان من أكبر الشعراء، فاذا كانت حاسته النفسية التي هي رقة شعوره قوية أيضاً كان في مقدمة الشعراء . كل ذلك في شعر ابن حمديس . فهو شاعر نفسي في مقدمة شعراء العرب المفكرين . بين في شعره ما تنطوي عليه نفسه ، ولكن لا بصفته الشخصية الفردية ، بل بصفته انسانا أمثاله كثيرون . واذ كان كثير التفكير في ظلمات الحياة ووجوهها العابسة وميالا الى التأمل في ذلك أكثر من التفكير والنظر في وجوهها النضرة الباسمة غلبت على شعره صبغة التشاؤم . أكان كذلك لأن نفسه كانت مريضة وأعصابه مضطربة ؟ قد يكون هذا . وربما كانت رقة شعوره تقود عقله وتملك منه ادراكه ، وكان اغترابه عن وطنه ونزوح الأعداء اليه ووقوعه في غير قبضة أهله من الأسباب التي أثرت في نفسه واستولت على عواطفه . فكان يشعر بضيق ويكره الحياة وينحي باللوم على نفسه وينهرها .ولكنه لم يكن في ذلك فيلسوفا ، بل كان يميل الى أمثال أفكار المتصوفة في لوم النفس والنيل منها. ولقد كانت تملكه هذه العاطفة أحيانا، عاطفة الندم أو توبيخ النفس، فيرى نفسه ذليلا حقيراً، وكأنه يبكي على ذنوبه وهو حزين كئيب . ولكن ما أجمل حزنه الشعري وأرقه في هذا الأنين . حيث يقول :

ياذنوبي ثقلت والله ظهري	بان عذري فكيف يقبل عذري
كلما تبت ساعة عدت أخرى	لضروب من سوء فعلي وهجري
ثقلت خطوتي وفودي تفرى	غيهب الليل فيه من نور فجري
ربَّ موتُ السكونِ في حركاتي	وخبا في رماده جمر جمري
وانا حيث مرت آكل رزقي	غير ان الزمان يأكل عمري
كلما مر منه وقت بربح	من حياتي وجدت في الربح خسري
يارفيقا بعبده ومحيطا	علمه باختلاف سري وجهري

هل بقلبي الى صلاح فسادي منه واجبر برأفة منك كسري
وأجرني بما جناه لساني وتناجت به وساوس فكري

أو كقوله وهو يفكر فى نفسه وحياته وكأنه متصوف ، ولكنه مع ذلك شاعر جميل القول :

كملت لي الخمسون والخمس ووقعت فى مرض له نُكس
ووُجدت بالاضداد من جسدي غصنا يلين وقامة تقسو
وتنافرت عنى الحسان كما لحظ المصور جآذر خُنس
وأبيض من فودى من شعري وحف كأن سواده النقس
والعمر يذبل فى منابته غرس ويلبس نضرة غرس

الى أن قال

وأقل ما يبقى الجدار اذا ما انهد تحت بنائه الأُس
يارب ان النار عاتبة ولكل سامعة لها حس
لا تجعلن جسدى لها حصبا فيه تُحرّق منى النفس
وارفق بعبد لحظه جزع يوم الحساب ونطقه همس

وكقوله فى الشكوى :

أسلمني الدهر للزرايا وغير الحادثات فقشى
وكنت أمشى ولست أعيا فسرت أعيا ولست أمشى
كأنني اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش

ومن دعاباته فى ذلك :

نومى على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تذاءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمى خمرا تداوم شربها مسترخصات منه مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا بربابة والبق تشرب والبراغث ترقص

وكانت تثور نفسه ثورانا وتغلى غليان المرجل فتنطق بالشعر وكأنه زاهد فى صومعة . أو ناسك فى دير أو تقى من كبار التقاة . فيقول :

يبتك فيه مصرعك ‏ ‏ وفى الضريح مضجعك
غرتك دنياك التى ‏ ‏ لها شراب يخدعك
همت بحب فارك ‏ ‏ وقلما تمتعك
يضرك الحرص بها ‏ ‏ والزهد فيها ينفعك
لا تأمنن منية ‏ ‏ ان عصاها تقرعك
مغربك القبر الذى ‏ ‏ يكون منه مطلعك
ان فرقتك تربة ‏ ‏ فالله سوف يجمعك
وللحساب موقف ‏ ‏ أهواله تروعك
كم جر ما أشفقت من ‏ ‏ لمسك منه أصبعك
فكيف بالنار التى ‏ ‏ من كل وجه تلذعك
يراك ذو العرش اذا ‏ ‏ ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن ‏ ‏ لغيره تضرعك

وقد تجول نفسه جولات فى ذكر أيامه الماضية ، فيذكر كل ما يخطر بباله ، ويسطر الماضى كما يسطر الكاتب مذكراته فى كتاب ، أو كما يرسم المصور صورة من ماضيه على اختلاف أحواله . وهو يخرج من معنى ليدخل فى معنى آخر بين جد وهزل ، ولكن كل ذلك بصبغة الرجل الجاد المفكر ، وكأنما تمر أمام القارىء سلسلة حوادث ، أو صور جميلة يتمتع بها ويتعظ منها . قال فى احدى هذه القصائد :

قضت فى الصبا النفس أوطارها ‏ ‏ وأبلغها الشيب انذارها
نعم وأجيلت قداح الهوى ‏ ‏ عليها فقسمن أعشارها

وما غرس الدهر فى تربة غراساً ولم يجن أثمارها
فأفنيت فى الحرب آلاتها واعددت للسلم أوزارها
كميتا لها مرح بالفتى اذا حث باللهو أدوارها
تناولها الكوب من دنها فتحسبه كان مضمارها
وساقية زررت كفها على عنق الظبى أزرارها
تدير بياقوتة درة فتغمس فى مائها نارها
وفتيان صدق كزهر النجوم كرام النجار أحرارها
يديرون راحاتفيض الكؤوس على ظلم الليل أنوارها

ثم أخذ فى وصف دير وصاحبة هذا الدير وما عندها من خمر، وأبدع فى وصف الخمر بابتكارات عجيبة، وخيالات غريبة. ووصف ملهى من الملاهى وفيه القيان ترقص وتغنى وهو يقص ذلك ويحكيه حكاية، وكأنك جالس فى ذلك الملهى ترى خطرات الراقصات وتسمع أصوات الغناء، ولقد تشعر بشدة تمكنه من صناعة الشعر ودقة وصفه وسهولة أسلوبه. قال.

وراهبة أغلقت ديرها فكنا مع الليل زوارها
هدانا اليها شذى قهوة تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمى فاجرت من الدن دينارها
تفرس فى شمها طيبها مجيد الفراسة فاختارها
فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمور وأعصارها
يعد لما شئت من قهوة سنيها ويعرف خمارها
وعدنا الى هالة أطلعت على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم تثور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الأسى قيان تحرك أوتارها

فهـذى تعانق لى عودها　　وتلك تقبـل مِزمارها
وراقصـة نقطت رجلها　　حساب يد نقرت طارها
وقُضب من الشمع مصفرة　　تريك من النار نُوَّارها
كأن لهـا عمداً صففت　　وقد وزن العدل أقطارها

الى ان قال

ذكرت صقلية والأسى　　يهيـج للنفس تذكارها
ومـنزلة للتصابى خلت　　وكان بنو الظرف عُمَّارها
فان كنت أخرجت من جنة　　فأنى أحـدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البـكا　　حسبت دموعى أنهارها

وشكى فى قصيدة طويلة آلامه فذكر صبره على ذلك، وذكر غربته، وهجر وطنه، وان ذلك كان من أكبر محنه. ثم ذكر شكاته من الناس وهو يضرب الامثال فى أثناء ذلك، وفيما لاقى من الأهوال بانفراده فى عزلته حتى عن خيال كان يزوره. ثم أخذ يتسلى بمدح نفسه ويتغنى بفضلها الجم وذكر لياليه الماضية، وعرج على ذكر وطنه ونكبة بلاده باستيلاء الاعداء عليها، وأخذ يصف أهل بلده، وما كان لهم من صفات الكمال والشهامة ومنازلة الحرب بافضل وأجمل ما يصف شاعر قوما يعتز بهم، ويشرف بالانتماء اليهم. وختم كلامه بالحنين الى وطنه، والبكاء على أهله. فقال :

تدرعت صبرى جُنة للنوائب　　فان لم تسالم يازمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم　　ورضت شَموساً لايذل لراكب
كأنك لم تقنـع لنفسى بغربة　　اذا لم أنقب فى بلاد الأغارب
فُطمت بها عن كل كأس ولذة　　وأنفقت كنز العمر فى غير واجب
يبيت رياش العضب فى ثنى ساعدى　　معاوضة من جيد غيداء كاعب
وما ضاجع الهندى الا مُثلَّماً　　مضاربه يوم الوغى فى الضرائب

فكم بت وقدّى فى الصبا مثل قده عهدت اليه أن منه مكاسبى
فان تك لى فى المشرفى مآرب فكم فى عصى موسى له مآرب

ثم أخذ يتكلم عما فى نفسه من ذكرى الحوادث الماضية ، وخيانة الناس والأيام ، وهو يتمثل أثناء الكلام ببعض الحقائق المعروفة للناس جميعاً ليثبت بها معانيه ويجسمها للقراء . ولم يخرج فى مجموع أسلوبه عن الأسلوب العربى المعروف من كثرة استعمال المجاز والغموض فى بعض العبارات ، وذكر الركب والرحل والنوى وركوبه القلاص وهزالها . كقوله

أتحسبنى أنسى ومازلت ذاكراً خيانة دهرى أو خيانة صاحبى
تغذى بأخلاقى صغيراً ولم تكن ضرائبه الاخلاف ضرائبى
ويارُبَّ نبت تعتريه مرارة وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
علمتُ بتجريبى أموراً جهلتُها وقد تجهل الاشياء قبل التجارب
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة قضى بخلاف الظن عند المشارب
ركبت النوى فى رحل كل نجيبة تواصل أسبابى بقطع السباسب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وعجيب تلك العادة التى ابتلى بها الشعراء فى مدح أنفسهم مدحا يخجل منه القارىء . فكيف بالشاعر وهو يضع نفسه فوق كل شىء ؟ هل هذا من الأساليب الشعرية ؟ لعله من وسائل التسلية ، على ما فيه من المبالغة والتغنى بمدح النفس .ولكن مهما يكن من شىء فى هذا فانها بدعة عجيبة فى الشعر العربى وأسلوب غريب .

وبينما الشاعر يكيل لنفسه المدح كيلا ، ولا يقنع بشىء منه تراه فاجأك بذكر الخمر ووصفها و مدحها . وانك لتكاد تثمل من ذلك ،واذا هو ينتقل الى الكلام فى وطنه ويذكر بلده ويمدح أهله . فيقول ،

ولى فى سماء الشرق مطلع كوكب — جلا من طلوعى بين زُهر الكواكب
متى تسمع الجوزاء فى الجو منطق — تُصخ فى مقالى لارتجال الغرائب
وكم لى به من صنو ود محافظ — لذى العيب من أعدائه غير عائب
أخى ثقة لا دسه الراح والصبا — له من يدى الأيلم غير سوالب
ممنقة دع ذكر أحقاب عمرها — فقد ملئت منها أنامل حاسب
اذا خاض منها الماء فى مضمر الحشا — بدا الدر منها بين طاف وراسب
ولو ان أرضى حرة لأتيتها — بعزم يعد السير ضربة لازب
ولكن أرضى كيف لى بفكاكها — من الاسر فى أيدى العلوج الغواصب
الا فى ضمان الله دار بتونس — ودرت عليها معصرات الهواضب
أمثلها فى خاطرى كل ساعة — وأمرى لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للوطن الذى — مغانى غوانيه اليه جواذبى
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل — تمنى له بالجسم أوبة آئب

هذا خلط فى تركيب القصيدة ، ولكنه خلط معهود عند شعراء العرب ، فالقصيدة من هذه الوجهة من الشعر العربى الجميل . على ان هذا شاعر عرف كيف يتكلم عن شعور ، وكيف يطيع نفسه حين تدفعه الى الكلام ليصور خفاياها ويبين مكنوناتها .

وله فى الوصف براعة معروفة ، واستحضار عجيب لصور الأشياء والتشبيهات ، ودقة فى جمع الاشياء وتنسيقها ، كأنما تراه يجمعها وينسقها بيده ، أو كأنه يغوص على المعنى الخفى فيأتى به ويضعه فى موضعه . ولقد يتكلف أحيانا جمع هذه المعانى ، حتى كأن كل كلمة اختطفت من مكانها لتوضع فى مكان آخر . ولكنك تراها كالعقد يؤخذ من عنق الحسناء الى عنق الغانية ، فلا يفقد قيمته ولا نضارته

وكأنك وأنت تقرأ كلامه ترى بعينك ما يصف وتحس ما يقول : لأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب . لا يكاد يشعر بشيء الا ذكره فى شعره ، ولا تكاد تمتلىء عينه بمنظر الا وصفه كأنه كان مملوءا بذلك ، أو كأن هذه كانت كل حياته ، لذلك كان يقول فى المعنى الطريف ، كما يقول فى المعنى المبتذل . ولكن الابتذال يضيع أمام شعوره بالجمال وحسن صناعته .

ولا تكاد تقف له على غور فى الوصف ، ولا على أسلوب واحد، لأنه يميل الى الاختراع : ويصف الصيد الليل ، ويذكر رفاقه ، ثم يعرج على السرور والكلام فى الخمر ، ثم يرجع الى الطبيعة ، فيحن اليها ، ويصف طلوع الصبح. ثم يصف الخيل وكلاب الصيد وحركاتها ووثباتها . وكثيراً ما يكون وصفه حقيقياً ، أكثر منه خياليا كأنما يرسم ما يرى . كما قال :

وليلة حالكة الازارِ | مدت جناحاً كسواد القارِ
تحجبُ عنا غرة النهارِ | عقرتُ فيها الهمّ بالعقارِ
بجسم ماء فيه روحُ نارِ | فى مجلس ضمّ بنى الفخار

كما فى قوله يصف شمعة

(١) قناة من الشمع مركوزة | لها حربة طبعت من لهب
تحرق بالنار أحشاءها | فتدمع مقلتها بالذهب
تمنى لنا ورها فى الدجى | كما يتمشى الرضى فى الغضب
عجبت لآكلة جسمها | بروح تشاركها فى العطب

وكما قال يصف ساقية

وساقيه تسقى الندامى بمدها | كؤوساً من الصهباء طاغية السكر
يعود غنيا كل جام كأنما | تضمن روح الشمس فى جسد البدر
اذا قصدت منا نديما زجاجة | تناولها رفقا بأنمله العشر
ويرسلها فى مائها يعيدها | الى راحتى ساق على حكمه تجرى

كهالة تضحك عن أقمارِ تزاحمت بأنجُمٍ دراري
من كل نمزٍ فى حمى الذمارِ مهيبِن مالٍ ومعزٍ جارِ
يُسقون من ساطعة الأنوارِ كثيرة الأسماء والاعمارِ

الى ان قال :

قمنا لننفى عرض الخمار عن جوهر الأنفس فى الصحارى
بكل طرف سلهب مطّار [1] موجه الاقبال والأدبارِ

الى ان قال :

فمر بى غيم من الغبار يشكل فيه أحرف الآثار
كأنما يطلبه بثار ماذا يريد الظبى بالفرار
يحذفه بيرمع صغار حذف المولّى باليد اليسار
من ابن ريح فى قميص نار وهومع الاجهاد والاضرار
فلو ترانا فى انتزاح الدار فى روضة كالغادة المعطار
نأكل من صيد أبى العقار ونشرب الصهباء بالكبار

ما كنت الا خالع العذار

ويصف مجلس أنس وما يدور فيه ، فتجده ينسى أحياناً نفسه المظلمة ، ويكب على اللهو والمجون وكأنه من أكبر رجاله ، ويذكر العبارات التى تدعو الى الخوض فى غماره ، والى انتهاز هذه الاوقات حتى بعد فوات الشباب الذى يبكي عليه بما لا يكون أرق منه ولا أدعى للحسرة وهو يتنفس الصعداء ، ويسلى نفسه بهذا الكلام ، ووصف هذه المجالس ، ثم يرجع على نفسه بالغيرة والعظة أو تعود اليه نفسه المتشائمة أثناء هذا الهرج والمرج فيفيق من نورة سروره ومجونه ، ويذكر انه وصاف وصانع من صناع الكلام ، وانه ليس من أهل

---

١ سلهب طويل عظيم ومطار عداء سريع السير

هذه المجالس ، ولا من شراب الخمور ، ويرجع الى التقوى والندم على الذنوب .

فيقول :

حبذا فتيانُ صدق عرسوا … بعذارى من سُلافاتِ الخمور
عربدَ الصحوُ عليهم بالأسى … فانفاه السكرُ عنهم بالسرور
عَمَّروا ربعَ الصبا من قبل أن … يتمشى فيه بالشيب دثور
ان الأعمار أعجازا إذا … بلغت لم تَثْنِ منهن صدور
كل نافي[1] العمر في شرَّته … للصبا نار وفي الوجنة نور
يقتنون العيش من قانية … ذات عمر كثرت فيها الدهور
أطلع الساقي عشاء منهم … أنجم الكاسات في أيدي البدور
عدِّ بالاكوابِ عني ان لي … في يد الآنس عنهن نفور
عمرَّ الشيبُ الدجى من لمتي … بنجوم طُلَّعَ ليست تغور
لا نشور لشبابي بعد ما … مات من عمري الى يوم النشور
وخضاب الشيب لا أقبله … إنه في شَعَري شاهد زور
أنا من وجدي بأيام الصبا … أذرف الدمع رواحا وبكور
فكأني ذو غليل تلتظي … لوعة منه الى ماء الثغور
أصفُ الراح ولا أشربها … وهي بالشدو على الشرب تدور
كالذي يأمر بالكر ولا … يصطلي نار الوغى حيث تفور
فسواء بين اخوان الصفا … وذوي اللهو مغيبي والحضور
أنا من كسب ذنوبي وجل … وان استغفرت فالله غفور

وقد اشتهر بوصف القصور ، كما قال :

كم شاخص فيه يطيل تعجبا … من دوحة نبتت من العقيان
عجبا لها تسقي الرياض ينابعا … نبعت من الثمرات والاغصان

[1] هكذا في الاصل

حصت بطائرة على فنن لها ... حسنت فأفرد حسنها من ثان
قُس الطيور الخاشعات بلاغة ... وفصاحة من منطق وبيان
فاذا أُتيح لها الكلام تكلمت ... بخرير ماء دائم الهملان
وكأن صانعها استبد بصنعة ... فخر الجماد بها على الحيوان
أوفت على حوض لها فكأنها ... منها الى العجب العجاب روانى [1]
فكأنها ظنت حلاوة مائها ... شهدا فذاقته بكل لسان

الى ان قال :

كم مجلس يجرى السرور مسابقا ... منه خيول اللهو فى ميدان
يجلو دماه على الخدود ملاحة ... فكأنه المحراب من غمدان
فسماؤه فى سمكها علوية ... وقبابه فلكية البنيان

وكقوله :

واذا نظرت الى غرائب سقفه ... أبصرت روضاً فى السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التى ... حامت لتبنى فى ذراه وكورا
وضعت به صناعه أقلامها ... فأرتك كل طريدة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة ... مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما للازورد مخرم ... بالخط فى ورق السماء سطورا
وكأنما وشوا عليه ملاءة ... تركوا مكان وشاحها مقصورا
يامالك الارض الذى أضحى له ... ملك السماء على العداة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدمت ... واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رئاسة ... منها ودمرت العدا تدميرا [2]

---

[1] كذا فى الاصل
[2] راجع القصيدة فى الديوان المطبوع فى رومه ص ٤٨٣

وقد يتغزل فيخاطب حبيبته بما فى نفسه من ألم، وما يلاقيه في سبيلها من شماتة الاعداء، وما يتمناه من الصبر في سبيل ذلك. ثم يستحلفها بما لها من الدلال أن تكف عن أسر قلبه . وهو يستعطفها ويُدل فى آن واحد . فيقول .

عذبت رقة قلبى ظلما بقسوة قلبك
وسمت جسمى سقما وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو رضيته لمحبك
من لى بصبر جميل على رياضة صعبك
فيالشوقَ بُعدى الى تنسم قربك
ووجنة غمستها فى الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسلمى كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زاد فى ملاحة عجبك
فُكى من الأسر قلبا عليه صابغ حبك
ونعميني بعتبي فقد شقيت بعتبك

ويمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب. وقد يطيل فى ذلك وربما لم يكن له ميزة فى غير الاسلوب، وربما كان مدحه كغزله، ولكنه مدح جميل على الرغم مما يشعر به القارىء من الثرثرة . غير أن المعانى تنهال عليه انهيالا فيعذب الكلام . كما قال .

غيَّرته غيرَ الدهر فشاب ورمته كل خود باجتناب
فغدا عند الغوانى ساقطا كسقوط الصفر من عد الحساب
وتولى عنه شيطان الصبا اذ رماه الشيب رجما بشهاب
وكأن الشَعر منه سعف يلتظى فيه شواظ ذو التهاب

أيها المغرى بتأنيب شجٍ ... سلط الوجد عليه هل أناب
هام لاهمت من الغيد بمن ... حبها عذب وان كان عذاب
لمت لا لمت عميدا قلبهُ ... عن سماع اللوم فيها ذو انقلاب
والهوى باقٍ مع المرء اذا ... كان من عصر الصبا عنه ذهاب
بأبي من أقبلت في صورة ... ليس للتائب عنها من متاب
كل حسن كامل في خلقها ... ليتها تنجو من العين بعاب
فالقوام الغصن والردف النقا ... والأقاح الثغر والطل الرُضاب
ظبية في العقد إما التفتت ... ومهاة حين ترنو في النقاب

ويذكر الخمر وكأن الناس جميعاً سكارى ، وفي كل رأس نشوة وحيرة . وكأن الخمر حلال لا حرام ، أو كأنها أكمل شيء في الوجود ، لانه يصفها بأكمل الصفات وأجمع سمات الكمال واللذات . ويخيل الى الانسان انه لم يبق كلمة تمتُّ الى الخمر بقرابة الا ذكرها ، أو معنى يدب في النفس بدبيبها الا قاله ، والقارئ يثمل بذكر الخمر كما يثمل بأسلوب الشاعر وعذوبته ، وكأن أحدا لم يقل مثله في ذلك كما قال:[1]

وجسم له من غيره روح لذة ... سليل ضروع أرضعت حَلَبَ السحب
اذا قبض الابريق منه سلافة ... تقسمها الشراب حواليه بالقَعْب
شربنا وللاصباح في الليل غرة ... تريد اندماجا بين شرق الى غرب
على روضة تحيا بحية جدول ... يفيء عليه ظل أجنحة القضب

أو كما قال الشاعر

١ أشهاب في دجى الليل ثقب ... أم سراج نارهُ ماء العنب
أم عروس فوق كرسي بدا ... يجتليها اللهو في عقد الحبب
يا شقيق النفس أنفاس الصبا ... بردت والصبح لاشك اقترب
قم امتعك بعيش لم تقع ... في صفاء منه اقذاء النوب

بازهر يجلو اللهو فيه عرائساً ‏ ‏ كراسيها أيدى الكرام من الشرب
كأن لها فى الخمر حمر غلائل ‏ ‏ مزررة الأطواق باللؤلؤ الرطب
وكم من كميت اللون تحسب كأسها ‏ ‏ لها شفة لعساء ذات لمى عذب
اذا مزجت لانت لنا وتحولت ‏ ‏ بأخلاقها عن قسوة الجامح الصعب
جرى فى عروق النار ماء كأنما ‏ ‏ رضى السلم منها يتقى غضب الحرب
وان نال منها ذو الكآبة شربة ‏ ‏ تسربت الارواح منه الى القلب

ولقد حان لضوء الفجر أن ‏ ‏ يضرب السرحان فيه بذنب
فأدرها تحت ليل سقفه ‏ ‏ ظلمة فيها من النور ثقب
أو على برق سماء ضاحك ‏ ‏ غيمه بالدمع منه منسكب
سكر الروض وغنى طيره ‏ ‏ أفلا ترقص قامات القضب
هات درا فيه ياقوت وخذ ‏ ‏ جسم ماء حاملا روح لهب
قهوة لو سقيتها صخرة ‏ ‏ أو رقت باللهو منها والطرب
يجذب الروح اليه روحها ‏ ‏ ألطف الشيئين عند ما انجذب
ولدت بالشيب فى عنقودها ‏ ‏ وهى اليوم عجوز لم تشب
كلما موجها المزج أرت ‏ ‏ حبب الفضة فى ماء الذهب
مادرى خمارها عاصرها ‏ ‏ فحديث الصدق فيها كالكذب
خندريس عتقت فى أجوف ‏ ‏ من دم العنقود مملوء نخب
ومليح الدل ان عل بها ‏ ‏ قات نجم فى فم البدر غرب
شعشع القهوة فى صوب الحيا ‏ ‏ وسقانى فضلة مما شرب
فتلاقى فى فمى من كأسه ‏ ‏ ماء كرم وغمام وشنب

ابن برد الاصغر [١]

بنو بُرْد أسرة معروفة بالأدب كبنى شُهيد وبنى حزم. وكانت هذه الأسر جماعات وأحزابا أدبية تستخدم عمالا للملوك والأمراء، يكتبون لهم ويساعدونهم فى أغراضهم . والأمراء أنفسهم أدباء وشعراء، فكانت تربطهم بهؤلاء صلة الأدب، للاستعانة بهم فى مسائل السياسة والكتابة فيما يكون من أمر الدولة والاستفادة بآرائهم، ولاحتياجهم اليهم فى أوقات الطرب ومجامع اللهو والمسامرة والشرب والحديث والأسفار . ولذلك كان الوزراء جميعاً كتاباً وأدباء وشعراء ورجال جد ولهو . وكانت هذه المجامع تحتوى على كثير من الناس المختلفى المذاهب والعقائد فى كثير من المسائل ، كما كانت مسرحا للدسائس والملق ، ومثاراً لغضب الملوك والأمراء ، وباعثاً من بواعث الرضى ، وجد الناس بالحظوة عند الرؤساء .

بهذا وغيره رقى الأدباء الى مراكز الوزارة ، وقبضوا على أزمة الامور ، كما سبق وتكلمنا عن بعضهم . وقد انتشرت هذه المجالس الأدبية وكثر الأدباء فيها ، وانتمى الى الأدب والكتابة كثير ممن كانوا يرون أنفسهم أهلا

---

١ : هو حفيد أبى حفص الاكبر كاتب يحيي بن على بن حمود الذى خرج على عمه القاسم بن حمود وأسره ستة أعوام ثم قبض عليه ستة عشر سنة ثم قتله خنقاً سنة ٤٣١ هجرية . وكان بين يحيي هذا وعمه حروب ومنافسات طالت زمنا وانتصر كل منهما على صاحبه مرات وخذل مرات (راجع المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) ولم يكن هناك وقت أكثر اضطرابا من هذا الوقت الذى خرجت منه السلطة من بنى أمية ثم رجعت اليهم ثم خرجت منهم نهائيا الى ملوك الطوائف وكان أبو حفص الاكبر من أشهر الادباء

لان يجولوا فى هذه الميادين . وعرّف بنفسه من لم يكن معروفا ، واستعان على ذلك بالحاجة الى أمثاله . وكان ذلك وقت أن كانت الفتن يدب دبيبها فى جسم الدولة هناك ، والفُرقة بين الناس تعمل فيهم ، والأمة آخذة فى التدهور ، وسلطان بنى عامر قد قام على دعامة من الدسائس والخداع ، والمنصور يحاول هدم ملك بنى أمية ، وكانت بقية العلوم والآداب من عصر عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم لا تزال وافرة . فاندس فى هذه الفئة نفر من الأُدباء أرادوا أن يعيشوا من ألسنتهم . فقصدوا الأُمراء والملوك ، فرحب هؤلاء بهم وافسحوا لهم صدورهم . فكان من جرّاء ذلك انتعاش حركة الأدب فى عصر كانت الدولة مائلة فيه الى السقوط ، والدسائس تتطلب مثل هؤلاء الكتاب والشعراء . فطال عمرهم بطول الحاجة اليهم . وهذا سر بقاء الأدب فى الأندلس حافظاً شكله ومكانته الى أواخر الدولة هناك . ومن الذين عاشوا فى هذه البيئة وتربوا فيها وكانوا يرتعون فى ساحتها بنو برد . وأشهرهم أبو حفص الأكبر وحفيده أحمد أبو حفص الأصغر

كان أبو حفص بن بُرْد الأصغر من كبار الكتاب والأُدباء ومن النبهاء الأذكياء ، ومن الشعراء أصحاب الديباجة الحسنة وأهل الظرف فى الشعر . أخذ عن جده أبى حفص الاكبر وسلك مسلكه . وكان يفخر به وبالانتماء اليه [1]

(توفى سنة ٤٢٨ بسرقسطة) ومن كتاب ديوان الانشاء فى دولة العامريين وكتب للمظفر بن أبى عامر . وكان من أقطاب البيان وله عدة رسائل شهيرة تدل على طول باعه فى السياسة .

(ومن رسائله الشهيرة ما كتبه لعبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر وكان قد استبد بالامر وحجر على الخليفة هشام الاموى وأراد أن يستأثر بما بقى من رسوم الخلافة . فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده فأجابه وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد فكان يوما مشهودا فكتب عهده من انشاء أبى حفص بن برد

١ حيث يقول

من شاء خبرى فأنا ابن برد   حد حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناء جدى   من نظم الالفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد   وكف بالاقلام ايدى الاسد

وهو من المقدمين بين الادباء والشعراء ذكره ابن بسام بقوله

« كان أبو حفص بن برد الأصغر فى وقته فلك البلاغة الدائر . ومثلها السائر . ينفث فيها بسحره . ويوردها بناصع نظمه وبارع نثره

وكان يفخر بامتلاك أعنة البلاغة [1] . فقد كان الأدب ولا سيما الشعر والنثر أشبه بما يسمونه الآن فنون الجمال ، التى تقاس بها أذواق الأمم الفنية ودقة الادراك لديهم ، وفهمهم أسرار الوجود الخفية

وأسلوبه النثرى هو فى جملته أسلوب خطابى ، يسلك فيه مسلك توارد الجمل والمترادفات ليملك الأسماع ، ويؤثر فى نفس القارئ . وان كان كثير من هذه الجمل مكررا خاليا من معنى جديد . وهذا طريق طويل . ولكنه أحد طرق البلاغة الذى يسمونه بالأطناب ، ويريدون أنه فى نهايته يصيب الغرض المقصود من التعبير ، ويوصل الى ما يؤدى اليه الايجاز : من معرفة مواقع الكلام الدال على المعنى تواً . وقد يكون هذا الأسلوب آنق فى لفظه ، لكثرة اختيار الكاتب الجمل الفصيحة وأثبت فى الذهن ، لكثرة تردد المعنى الواحد فى ذهن السامع بعبارات مختلفة .

---

١ كتب يقول فى كتاب سماه (سر الادب وسبائك الذهب) ... وأصبحنا بعد نرمى أغراض الكلام بأسهم أزرها شديد . وتعقد مناظم القول بألسن برىء منها التعقيد . ونسيل من المنثور جداول النطاف . ونجيد من المنظوم جواهر الاصداف . وكان جدى احمد بن برد رحمه الله لطول ممارسته هذه الصناعة برخاء اللهب . ونهمة الطالب . ودعة الزمان واقبال السلطان ... كأنه وقد أقبسنى من مصابيح وصاياه فيها .. وصرف لى ضوأ من هداياته ما أفاء الله به نفعاً وأوسع معها ارشادا . ثم ان الايام اثر مصابه . وبعد ذهابه . باكرتنى بصروفها . وشغلتنى .. برقع خروقها . ومكابدة ضيقها ؛ وسوق الأدب قد كسدت . والعى أمضى من البيان . والاساءة أحد من الاحسان . وأقلامنا يومئذ فى عطلة . ومحابرنا فى عقلة . وكتبنا فى رقدة .. الخ ...
راجع الجزء الاول من الذخيرة

وأدل على قدرة الكاتب وسعة خياله ، لكثرة ما يجد من هذه الألفاظ ذات المعنى الواحد ، وعلى الافتنان فى معرفة الفرار من ملل التكرار ، وعلى ابراز هذه الجمل المتحدة المعنى كأنها مختلفة الدلالة ، مما لا يقدر عليه الموجز بايجازه المملوء بالعبارات الدقيقة والمعنى الكبير فى الألفاظ القصيرة لعدم ضلال الفكر فى كثرة الجمل وادراك معانيها .

أما أبو حفص فانه من أصحاب الأطناب ، الذين يميلون الى قرع الأسماع بنغمات البلاغة فى كثرة الجمل وتعاقبها على المعنى الواحد . وهذا كثير فى نثره ، وربما كان ميالا الى زينة اللفظ أكثر من ذكر المعانى . ولكنه فى جملته حسن الديباجة ، وأسلوبه من أحسن ما يكون فى نوعه

والظاهر انه كان يعشق هذا الأسلوب . فان نثره يكاد يكون كله من هذا النوع مفصلا ، جملا جملا ، وكأنما كل جملة مستقلة عما قبلها وما بعدها ، كالحكم والأمثال .[1] وله كثير من النثر الصناعى المتكلف ، وكأنه ضرب من اللعب بالألفاظ والعبث بصناعة الكلام .[2]

وليس أدل على التكلف من مثل هذا الكلام ، ولا أغرب من هذه الأساليب التى يحسبونها من سعة الخيال وغنى اللغة . على أن ذلك لا يخلو أحيانا من أثر فى النفس ونغمة لذيذة فى السمع . تمر مر النسيم العليل . كقوله فى الاستزارة .

---

١ من ذلك قوله فى وصف القلم والمداد والكتاب ، ويقولون انه أول من ابتكر الكتابة فى هذا الموضوع . المداد كالبحر . والقلم كالغواص . والالفاظ كالجوهر . والقرطاس كالسلك والدواة كالقلب . والقلم خادم له . ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة . ويلفظ نورا

٢ كقوله : أظلم لى جو صفائك . وتوعرت على أرض اخائك ... فليت شعرى ما الذى أقصى مهجة الود . وأذبل زهرة ذلك العهد ... وان رغم أنف القلم . واتزوت أحشاء القرطاس ... الخ

« اليوم يوم بكت أمطاره . وضحكت أزهاره . وتقنعت شمسه . وتعطر نسيمه . وعندنا بلبل أرج وساق غنج . وسلافتنا سلافة أخدان . وسلافة دنان قد تشاركنا فى الطباع . وازدوجنا فى اثارة السرور . فاخرق الينا سرادق الدجى . تجد مرأى لا يحسن الا لك . ولا يتم الا بك . الزيارة بالليل أحق . وبالزائر والمزور أخق . وقد سدل حجابه . ووقع قرابه . وتبرقعت نجومه بغيومه . وتلفعت كواكبه بسحائبه . فاهتك الينا ستراً . وخض الينا بحراً ... »

ومن هذه الاساليب الفنية فصول كتبها فى تفضيل الورد على غيره من الازهار وقالوا انه مخترع هذا النوع ، وأول من كتب فى هذا الموضوع[1]

---

١ وقد عارضه فى هذه الرسالة الأديب أبو الوليد اسماعيل بن محمد المعروف بحبيب . وكان أبو الوليد حبيب هذا من المتازين بالكتابة فى زمنه ، أديباً مشهوداً له بالفضل ، تلميذاً لابن الأبار أحد شعراء المعتضد بن عباد . وقالوا انه كان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق ، وينثر النثر الرائق . واستوزره جد المعتمد بن عباد وكان يصغى الى مقاله ويرضى بفعاله ، وهو ما جاوز العشرين (نفح الطيب طبع أروبا جزء ٢ صحيفة ٢٩٠) وكان شاعراً أكثر شعره فى الازاهر ولم يذكر ابن بسام من رسالته التى عارض بها ابن برد الأصغر الا طرفاً صغيراً . قال فيه « وأما رسالة أبى الوليد فخاطب بها المعتمد يومئذ قال فيها : فأول من رأى نور ذلك الكتاب وعاين الخطاب ... نواوير فصل الربيع . هى خيرة الورد فى الوطن . وسحابته فى الزمن . ولما أن قرأته أنكرت ما فيه . وبنيت على هدم مبانيه ، ونقد معانيه . وعرفت الورد بما عليه فيما نسب اليه . من استحقاقه ما لا يستحقه ، واستئثاله ما لا يستأهله . وعلمت ان مخاطبته من أخطأ تلك الخطيئة وأدنى من نفسه تلك الدنيئة . تدبير دبرى . ورأى غير مرضى . فكتبت الى الاقحوان والخيرى الاصفر كتاباً . قالت فيه لو استحق الورد امامة ، واستوجب خلافة . لبادرتها آباؤنا ولعقدها أوائلنا التى لم تزل تجاوره فى مكانه . وتجىء فى أوانه . ولا ندرى لأى شىء أوجبت تقديمه . ورأت تأهيله . بما غيره أشكل له وأحق به . وهو نور البهار والبادى فضله بدو النهار . والذى لم يزل عند علماء الشعراء وحكماء البلغاء . مشبهاً بالعيون التى لا يحول نظرها . ولا يحور حورها ، وأفضل تشبيه الورد بحمرة الخد عند من تشيع فيه . وأشرف الحواس العين اذ هى على كل متول عون وليس الخد حاسة فكيف تبلغه رئاسة

أين الخدود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد

وأصح تشبيه الورد وأقربه من الحق ، قول ابن الرومى فى الشعر الطائى ، ولقد وافق ووفق وشبه فحقق » وطول أبو الوليد فى رسالته هذه وختمها بمبايعة الازهار البهار ورجع عن تقديم الورد فى خبر طويل

أما رسالته فى ذلك فهى رسالة نادرة فى موضوعها وأسلوبها، تدل على سعة خيال كاتبها ، وحسن ذوقه فى اختيار الألفاظ ومعرفة مواقع الكلام، وانه كان من الكتاب الذين يميلون الى الأساليب القصصية .وربما لم يكن لهذه الأساليب نظير فى بلاغة المشرق ، لأن أهل الأندلس هم الذين اخترعوا الكلام فى الأزهار على هذا النحو .

تصور ابن بُرْد أن الأزهار والرياحين قد اجتمعت فى مجلس واحد، وقام أحدها يتكلم ويخطب بين أبناء جنسه . وقد دل الكلام على عقل الكاتب وانه من أصحاب المعتقدات ، أو انه فى كلامه هذا يمثل ميول العقول فى عصره . وذلك انه افتتح كلامه بما يشبه الحمد أو ما يشبه التفكير فى الوجود والمخلوقات فقال :

« ان صنوفا من الرياحين ، وأجناساً من البساتين ، جمعها فى بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها، وهاجس هجس فى ضمائرها لم يكن له بد من التفاوض فيه ، والتحاور والتحاكم من أجله والتناصف . وأجمعت على ان ما ثبت فى ذلك من العهد ، ونفذ من التحالف ماض على ما غاب شخصه ولم يأن منها وقته فقام منها قائمها فقال : يامعشر الشجر ، وعامة الزهر، ان الله تعالى لطيف خبير ، خلق المخلوقات البريات ، بَايَنَ بين أشكالها وصفاتها ، وباعد بين منحها وأعطياتها ، فجعل عبداً وملكا، وخلق قبيحاً وحسناً، فضل بعضاً على بعض، حتى اعتدل بعدله الكل، واتصل على لطف قدرته الجميع ، وان لكل واحد منها جمالا فى صورته ، ورققا فى محاسنه ، واعتدالا فى قده، وعبقا فى نسيمه ومائية فى ديباجته »

ثم تطرق من ذلك الى الكلام فى الزهور وما لها ، وما اختصت به من الجمال والمنزلة فى الاجتماع ونفوس الناس فقال :

« وقد عطفت علينا الأعين ، وثنت الينا الأنفس ، وزهت بحاضرنا

المجالس ، حتى سفرنا بين الأحبة ، فوصلنا أسباب القلوب ، وتحملنا لطائف الرسائل ، وصيغ فينا القريض ، وركبت على محاسننا الأعاريض »

ثم عمل على نقد الصفات والأخلاق الغير المحمودة بقوله :

« نطفح بنا العجب ، وأزدهى بنا الكبر ، وحملنا تفضيل من فضلنا ، وايثار من آثرنا ، على ان نسيم الفكر فى أمرنا والتمهيد بعواقبنا ، والتطبيب لأخبارنا »

وقد اقتبس ذلك من أخلاق الانسان . وهى طريقة جميع أصحاب الأمثال والأساطير ، الذين يتكلمون على ألسنة الحيوان أو النبات . ولكن الظاهر ان الكاتب لم يكن يقصد بذلك الا الوصف أو سعة الخيال ، لا العبرة والعظة . غير ان هذا باب من أبواب الأساليب الاجتماعية ، أو القريبة من ذلك وخروج من الدائرة المعروفة ، دائرة الرسائل والمكاتبات ، ودليل على رقى الفكر ، وترك القديم ، وباب جديد من أبواب المنثور ، الذى يدخل منه الكتاب الى القصص والحكايات .

ثم أخذ بعد ذلك فى تفضيل الورد وبيان مزاياه . فقال :

« وادعينا الفضل بأسره ، والكمال بأجمعه ، ولم نعلم ان فينا من له المزية علينا ، ومن هو أولى بالرئاسة منا : وهو الورد ، الذى ان بذلنا الانصاف من أنفسنا ، ولم نسبح فى بحر عمانا ، ولم نمل مع هوانا ، دنا له ، ودعونا اليه ، فمن لقيه منا حياه بالملك ، ومن لم يدركه زمن سلطانه ، ودولة أوانه ، اعتقد ما عقد عليه ، وولى ما دعا اليه ، فهو الاكرم حسبا ، والأشرف زمنا ، ان فقد عينه ، لم يفقد أثره ، أو غاب شخصه لم يغب عرفه ، وهو أحمر ، والحمرة لون الدم ، والدم صديق الروح ، وهو الياقوت المنضد ، فى أطباق الزبرجد ، وعليها فوائد العسجد ، والأشعار من محاسنه حسنت ، وباعتدال جماله وزنت »

وقد دل على أوصاف الكمال التى فى الورد ، وأخذ ينمقها بدقة أسلوبه ومهارته. ثم استرسل فى الكلام على هذا النمط ، وذكر أنواعا أخرى من الزهر وانطقها بالكلام . فقال :

« وكان ممن حضر هذا المجلس ، من رؤساء الأنوار والأزهار ، النرجس الاصفر ، والبهار والبنفسج ، وانا بيرى النمام . فقال النرجس الاصفر : والذى مهد لى حجر الثرى ، وأرضعنى ثدى الحيا ، لقد جئت بها أوضح من لبة الصباح ، وأسطع من لسان المصباح ، ولقد كنت أسير من التعبد له ، والشغف به ، والأسف على تعاقب الموت دون لقائه ، ما أنحل جسمى ، ومكن سقمى ، واذ قد أمكن البوح بالشكوى ، فقد خف ثقل البلوى . ثم قام البنفسج فقال على الخبير سقطت ، انا والله المعتبد له ، والداعى اليه ، المشغوف به ، وكفى ما بوجهى من ندوب ، ولكن التأمى بك آنس . ثم قام البهار فقال : لا تنظروا الى غضارة منبتى ، ونضارة رونقى ، وانظروا الىّ وقد صرت حدقة باهتة تشير اليه ، وعينا شاخصة تندى بكاء عليه

ولولا كثرة الباكين حولى   على اخوانهم لقتلت نفسى

ثم قام الخيرىّ فقال : والذى أعطاه الفضل دونى ، ومد له بالبيعه يمينى ، ما اجترأت قط اجلالا له واستحياء منه ، على أن أتنفس نهارا ، أو أساعد فى لذة صديقا أو جارا ، فلذلك جعلت الليل سترا ، واتخذت حوائجه كنا » وجعلها تتناقش وتتنافس . ثم تم بعد ذلك اتفاقها فى مجلس عام ، وكتبت بذلك صكا اعترافا منها بفضل الورد ، واطاعته ، وجعلته رئيسا لها ، تطيع أمره وتخضع له ، فقال :

« فلما استوت آراؤها ، قالت أن لنا أصحابا ، وأشكالا وأترابا ، لا تلتقى بها فى زمن ، ولا تجاورها فى وطن فهلم فلنكتب بذلك عقدا ، ينفذ على الاقاصى والادانى فكتب رقعة ، ونسختها : هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر ، وضروب الزهر ،

وسميها وشتويها، ربيعها وقيظيها، ما نجمت من تلعة أو ربوة، وتفتحت من قرارة أو حديقة، عند ما راجعت من بصائرها، وألهمت من مراشدها، واعترفت بما سلف من هفواتها، وأعطت للورد قيادها، وملكته أمرها، وعرفت أنه أميرها المقدم لخصاله فيها، والمؤمر لسوابقه عليها، واعتقدت له السمع والطاعة، والتزمت له الرقة والعبودية، وبرئت من كل زهر نازعه المباهاة له، والانتداء عليه في كل وطن، ومع كل زمن . فانه زهرة قضى عليها لسان الأيام هذا الخلف، فلنعرف ان ارشادها فيه، وقوام أمرها به »

ذلك من الأساليب الجديدة فى اللغة العربية، وليس أدل على سعة الخيال ومتانة البلاغة ورقى الآداب من هذه الأساليب القصصية . لان كل أدب أو بلاغة لا تحتوى على القصص وتمثل وتبين نفوس الكتاب وغيرها من الأسرار الانسانية، التى لا تظهر الا فى مثل هذه الموضوعات، تكون آدابا ناقصة أو بلاغة مقصورة على كتابها وشعرائها. ولا تكون هذه الأساليب الا فى أمة تربت أخيلتها وعقولها تربية علمية فنية . ولقد ظهرت بوادر ذلك فى بلاد الأندلس عند بعض الكتاب، وخصوصاً فى القرن الخامس حيث انفتحت أمام العقول أبواب من الخيال، بسبب ما وجد هناك من الترف والبذخ وأبهة الملك . ولقد كان هذا الباب الذى ولجه الكتاب فى الأندلس يصل بهم الى طريق جديد لم يسلكه كتاب العرب فى المشرق ، غير ان هذا الابتداء لم يستمر، ولم يجد له أنصارا كثيرين، لعدم اعتيادهم هذا النوع من الكتابة، ولان الكتاب والادباء لم يتسن لهم بعدُ اقتباس هذه الأساليب القصصية . فكانوا يحتاجون الى زمن طويل لصقلها فى عقولهم والتعود على فهمها . ولقد كان أيضاً من الأسباب التى لم تدفع الكتاب الى السير فى هذا الطريق ان الدولة لم تدم طويلا، والملوك الأدباء ابتدؤا يختفون وقت ظهور هذا الأسلوب.

ويلاحظ ان هذا الأسلوب القصصى بدأ يظهر بشكل خيالى أكثر منه بالحقائق التى تلمس النفوس . وكان لا بد أن يبتدئ بذلك لدى أمة ليس لها عهد بهذا . وقد كانوا يريدون الدخول فى الموضوعات الاجتماعية، فلم يجدوا أمامهم نماذج يقفُون أثرها ، غير ما ابتكره أبو العلاء فى رسالة الغفران من جمع الأُدباء والمناقشة مع بعضهم بعضاً فى مسائل اللغة والأدب . ولكن يظهر من كثير من المكاتبات والرسائل أن الأسلوب القصصى كان يتسرب اليها شيئاً فشيئاً، وان رسائل العتاب وغيرها تحتوى كثيراً من الملاحظات الفكرية المتصلة بأحوال الناس والاجتماع. وهذا على ضعفه وقلته يعد من الأطوار التى تخطاها النثر فى اللغة العربية. وكل ذلك يدل على تحرك العقول وميلها الى حب الجديد. والأساليب التى كتب بها هؤلاء الكتاب. أساليب حسنة التركيب، جميلة العبارات، تدل على ابتكار الكاتب وشدة عارضته . وانه وجه من وجوه الأُدباء فى ذلك العصر

وقد كان ابن برد شاعراً أيضاً، وربما كان شعره أفضل من نثره ، لانه ميال الى الصناعة فى الكلام ، والصناعة أمرأ على النفس فى الشعر منها فى النثر . وكل شعره أو جله قطع صغيرة فى الغزل . وشعره خفيف الروح ، عذب التذوّق كأنه نغمات موسيقية ، أو فكاهات أو مسامرات . وله معانى ظريفة أخذها وتصيدها ونظمها ، وألبسها لباسا من صناعته . كقوله .

أبداً تأتى بعتب ... دونَ أن آتى بجُرم
بيننا فى الحبِّ قربى ... سُقمُ عينيكَ وجسمى [١]

ومن قوله

يا كثير الجفاء لى ... ومُضيعاً وَسائلي
طال حُبي ولم تفز ... منك نفسى بطائل

---

١ قال ابن بسام وهذا كقول ابن الرومى

ياعليلا جعل العلة مفتاحا لسقمي ... ليس فى الارض عليل غير جفنيك وجسمي

أنتَ لِي هاجرٌ وان كنتَ في ثوب واصلي
أنتَ ان زرتَ منهلاً كانَ أحلى مناهلي

وجرى خياله في هذه المعاني شوطاً بعيداً ، وأخذ يتصيد ما فيها ويبثه في كلامه وشعره : كطيب ريح فم الحبيب ، واحتراق فؤاده بنار الحب ، وغرقه في دموعه . وله أبيات رقيقة في وزنها وقافيتها من الشعر المرقص الخفيف على النفس ، الذي تلذ قراءته بخفة وزنه ونغماته الموسيقية أكثر مما فيه من المعاني التي هي معروفة لكل عاشق . كقوله :

بخداع عللّوه وبهجر وصلوه
لم يُبالوا يوم صدّ أي وجد حمّلوه
أخرجوه من محلّ للتسلي أدخلوه
بلغت منه الاعادي أيَّ شيء أمّلوه
رُبَّ ستر للتصابي فوقه قد سلوه
كلما سقوه كأساً إثر كأس قبّلوه
وهلالٍ بشرىً بنجوم كلّلوه
في بهيم من ظلام بسناه أخجلوه
نشطوه ثم لما لان عطفا نبطوه
عزلوه عن وصال حسداً ثم ولّوه
انما جي فيكم مثلا قد أرسلوه

وقال ابن بسام انه أخذ هذا الوزن والروي من قطعة لشاعر من شعراء بغداد . وهكذا كان يسطو على المعاني وينظمها وعلى خيالات غيره وينسجها على منواله . كقوله في معنى معروف .

والبدر كالمرآة غير صقلها   عبث العذارى فيه بالأنفاس
والليل ملتبس بضوء صباحه   مثل التباس النقش بالقرطاس

فكان فى كل شعره يميل الى زينة اللفظ والتشبيهات البديعة ككثير من الشعراء مثل قوله :

سقانى وجفن الليل يغسل كحله   بماء الصباح والنسيم رقيق
مذابا كذوب التبر أما بخارها   فضخم واما جسمها فرقيق

وكل شعره من هذا النوع وهو من الخيال الصرف يقلد المعانى ويضعها فى أوزان العروض ، غير ان هذا لا يحط من قدره ولا يغمط من حقه فى ميله الى قول الشعر وذوقه الفنى . وله قصائد ذكرها صاحب الذخيرة فى الجزء الأول

الاعمى التطيلى [١]

عاش أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى التُّطِيلى فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس وكان من أشهر الأدباء فى عصره [٢]

أما نثره فهو نثر مسجوع من طبقة النثر الممتاز بسهولة العبارة وجودتها ووضوحها ، وعدم التعمق فى البحث عن الجمل والألفاظ مع حسن الاختيار والافتنان وأشعار القارئ بأن للكاتب روحا تدب دبيباً بين جمله وألفاظه ، وان له قوة يظهر أثرها فى تلاوة كلامه .

وأما معانيه فأقل ما فيها انك تراه يحاول الاَّ يقتصر على اختيار اللفظ

---

١ تطيله بالضم ثم الكسر وياء ساكنة مدينة بالاندلس فى شرق قرطبة (راجع معجم ياقوت) وهو معروف بالاعمى التطيلى نفح الطيب ج ٢ ص ٢٣٥ وفى القلائد والذخيرة الطليطلى

٢ لم نقف له على ترجمة وافية . وقد حملنا على ذكره شهرته وماله فى عالم الادب . وقد مدحه الادباء كعادتهم فى كتبهم عند الكلام على الكتاب والشعراء فقال عنه ابن بسام :

له أدب بارع . ونظر فى غامضه واسع . وفهم لا يجارى . وذهن لا يبارى . ونظم كالسحر الحلال . ونثر كالماء الزلال

وقالوا عنه انه نظم أخبار الامم المختلفة فى لبة القريض . وعبارة الذخيرة تكاد تكون هى بعينها عبارة القلائد . ولست أدرى أيهما أخذ عن الاخر لان الفتح بن خاقان وابن بسام عاشا فى عصر واحد (فقد مات ابن بسام فى سنة ٥٤٢ ومات الفتح سنة ٥٣٢ أو ٥٢٩) والظاهر ان عبارة قلائد العقيان كانت أشهر لان الضبى صاحب كتاب « بغية الملتمس فى رجال أهل الاندلس » أشار اليها بل ذكرها ولكنه نسبها الى المطمح فأخطأ فى هذه النسبة . لانها ذكرت فى قلائد العقيان . واختصر الضبى على عبارة الفتح بعد ان أوجزها وأورد له شيئا من شعره للاستدلال على فضله . ولقد نبهنا هذا الأسلوب الى صعوبة دراسة كثير من الكتاب والشعراء الذين لم يعن أصحاب التراجم والادباء بالكلام عنهم . ولم أجد عن الاعمى التطيلى هذا شيئا فى ابن خلكان ولا فى فوات الوفيات ولم يتكلم عنه المقرى فى نفح الطيب بما يدل على شىء من حياته . لذلك نقتصر على شىء من ذكر منظومه ومنثوره والكلام على ذلك

وبلاغة العبارة . بل يريد أن يكشف شيئاً من أحوال النفوس ، ويضم ذلك الى جمال القول وبهجة المعانى . لذلك تجده فى رسائله ينتقل من معنى الى آخر ، ويتكلم عن نفسه وغيره ، ويذكر المعنى العام والخاص، ويتواضع ويفخر ، ويتملق ويتكبر ، ويستصغر نفسه ويستكبرها . كل ذلك فى رسائل يرسلها فى العتب أو التقرب أو الشكوى . وقد كان هذا هو الميدان الوحيد الذى يجوب فيه الكتاب ويظهرون خفايا نفوسهم ، وينشرون على العالم مطويات أفكارهم . وكان نوع الرسائل كل ما يعرفونه من أساليب الكتابة لبث شكواهم ، والتعبير عن آرائهم الشخصية . وكأنما هناك حجاز منيع بينهم وبين العالم الخارجى . فاذا تكلم أحدهم لا يتكلم الا عن نفسه ، واذا شكا لا يشكو الا آلامه ، واذا مدح مدح لحصوله على خير ، واذا ذم ذم لوقوعه فى شر ، واذا وصف وصف ما يحيط به لا غير . ويكفى دليلا على ذلك ان أنواع النثر عندهم انحصرت أو كادت تنحصر فى كتابة الرسائل الأخوية ، وان هذه كانت الصبغة الغالبة على النثر ، التى امتلأت بها بطون الكتب الأدبية . ولا يكاد يعثر الانسان على رسالة من نوع آخر . غير ان هذه الرسائل القصيرة وان خلت من معان اجتماعية عامة ، فانها مملوءة بنماذج الأساليب العربية البديعة ، والعبارات البليغة ، والأمثال الحكيمة ، والتراكيب المتينة ، والأفكار الناضجة ، وصور نفوس الكتاب ، ودقة ادراكهم وجل معلوماتهم . وهذه رسالة صغيرة فى العتاب التطيلى :

« شاكرك أو شاكيك ، بل لائمك ولائم الأيام فيك ، ياسيدى كناية عن ذكره ، لا توخياً لبره ، وأخى رغبة فى انصافه ، لا طمعاً فى استعطافه ، الذى عاطيته كأس الوداد فأمرَّها ، ورفعت اليه بنت الوداد فأضر بها وأضرها ، ومن أطال الله بقاءه ممتعا بظل السلطان ، واقبال الزمان . فان الرجل بسلطانه ، لا باخوانه ، وباقبال زمانه لا باحسانه . انى أعزك الله وان كان الدهر وضعنى ورفعك ، وضاق

عنى ووسعك ، فبين جنبيّ نفس عصام ، وبين فكيّ صارمٌ بسطام ......
«الشجو شجوى والعويل عويلى» لا أستعير عينا للبكاء ، ولا أبتغى بكبدى كبدا
سليمة من الارزاء . وانك أعزك الله لما تكلمت بلسان سهل بن هارون، وجلست
مجلس الفضل من المأمون ، وخدمك الدهر ، وانثالت فى يديك الأنجم الزهر ،
قلت احمِ وعلىّ، وان لم يكن فشبع وِرىّ . وعلى رِسْلكَ ، ما كنت أنا الغط فى مثلك ،
انى أبيت طيّان ، ولا أبيت .. ، واحتمل الحرمان . ولا أحتمل الهوان ،
وليت هذا الأمر وقلبك بى معمور ، وأنت بزعمك لى فقير ، وأنا أظن انى
سأولىّ وأعزل ، وأُحدث فى كنفك وأعدل ، فما هو الآن ثبتت قدمك ، وخفق
علمك ، وابتل قرطاسك وقلمك ، اختصرت شطر الاسلام[1] ، ودفعت فى صدر
القيام ، عزلت فلانا قبل الولاية ، واقتصرت بأبى الأصبع دون الغاية . هينمة أنا
كنت معناها ، وكاس لى شعشت حمياها . وولايتك خطر وفى عملك نظر ،
انما هو ظل غمامة ، وبيض حمامة . ثم تعود الى استخلاص البيت ، وأكل الخبز
بالزيت .

وقال فى رسالة أخرى :

«ولم أزل منذ تخيل جنانى ، وتقوّل لسانى ، وأدبر مَلَكي او شيطانى ،
ألتمس من أهل هذا الشان ، ما أسمى باسمه ، وأحفل وأقيس على حكمه ، وأقل
وأحل ... وأعقد ، والناس كثير ، والناقد بصير ، والأُمور أعجاز
وصدور . فكيف ترانى اتخذتك خليلا ، وأخذتك على الأيام عهداً مسئولا ،
وبايعتك على الطاعة والسمع ، وشايعتك مجرى الاستطاعة والوسع ، فعولت
عليك كعبة أُولىّ وجهى شطرها ، وأسندت اليك هضبة أرعى سوامى وعرها ،
لا كون قد قدرت هذه الطاعة قدرها، وأبلغت نفسى فى طلبها او التعلق بسببها . الخ»

---

١ هكذا فى الاصل

اما نظمه ففى بعض قصائده كلام من الشعر الممتع ، مع طول لا يمل ، وأراء تدل على فكر جوّال وعقل ناضج . وكأنه حكيم يتكلم أو ينظم الحكم . وهو مع ذلك شاعر بليغ متقن ، عالم بأساليب النظم البليغ والاسلوب الخطابى ، الذى يجذب الاسماع والقلوب ، ويملأها حكمة وعظة ، واعجابا وجمالا . قال من قصيدة فى المدح

عتابٌ على الدنيا وقلَّ عتابُ   رضِينا بما ترضى ونحنُ غضابُ
وقالت وأصغينا الى زُورِ قولها   وقد يستفزُّ القول وهو كِذابُ
وعمت على أبصارنا وقلوبنا   فطال عليها الحوْمُ وهى سرابُ
ودانت لها أهواؤنا وعقولُنا   وهل عندها الاّ العناء ثوابُ
نَلَذُّ ونلهو والأعزة حولنا   رفاة ونبنى والديار خرابُ
ويَخدعنا عما يُرادُ بنا مُنى   لبحر المنايا دونهن عُبابُ
وتغتنم الأيام وهى مصائب   لهن علينا جيئة وذهاب
بكت هند من ضحك المشيب بمفرقى   أما علمت أن الشباب خضاب
وقالت غراب ما أرى وتجاهلت   وليس على وجه النهار نقاب
هل الشيب الا الرشد حل غوايتى   فأصبحت لا يخفى علىّ صواب
أأغفو لصرف الدهر عن هفواته   على حين لا يأبى علىّ عقاب
وأتركه يمضى على غلوائه   وقد عز اعتاب وطال عتاب
أيغضب حسادى قيامى الى العلا   وقد قعدوا عما ظفرت وخابوا
همُ حسدونى لا لوفر ورثته   ولكن شهدت المكرمات وغابوا

وما أجمل مدحه فى هذه القصيدة ، فقد يرى الانسان فيها الممدوح وعظمته وسمو قدره ، وقد يصرفه جمال القول وسبك العبارات وبلاغة الكلام عما فى الشعر من المبالغة . بل قد يتجه فكره الى تذوق المعانى . وليس أنبل ولا

أشرف من انسان يتصف بهذه الصفات . ولا أشعر من شاعر يحمل القراء على صدق قوله ببلاغة كلامه وحسن أسلوبه . اذ يقول :

سجايا على مر الليالى كأنما هى المزن فيها رحمة وعذاب
موارد فيها سم كل معاند ولكنها للمستفيد عذاب
مخوفتى ريب الزمان وقد حدت برجلى الى ابن الحضرمى ركاب
اذا الله سنى لى لقاء محمد تفتح دونى للسماحة باب
فتى لم تسافر عنه آمال آمل وكان لها الا اليه اياب
له همم فى الجود والبأس لم تزل لها فوق أثباج النجوم قباب
وأقسم لولا ماله من مآثر لأصبح ربع المجد وهو يباب

ولقد تدب فى نفسه صناعة الشعر ، وتلعب برأسه ، كما تلعب الكأس ، فيثمل ويقول فيثمل السامع معه ، وكأنه يترنح من صدق قوله ، والسامع يترنح معه من عذوبة هذا المقال :

وهل أنا الا عبد أنعمك التى هى الشهد اذ كلُّ الموارد صابُ
وهل شهد المجد الذى أنت سره فانك بحرٌ والكرام عُباب
وهل أنا يارضوان باسمك هاتف وهل لى الى دار المقامة باب
اذا قايسوك المجد كنت غضنفراً اذا زار لم يثبت عليه ذئاب
وما أحمر الا من صيالك معرك ولا أخضر الا من نداك ثياب

وما أقدره على طول الكلام، وأصبره على الجرى وراء المعانى حتى يدركها . ولقد مدح الوزير أبا الحزم ، فعرف كيف يمدح الوزراء . وبدأ قصيدته بشىء من الغزل، ولكنه غزل غير مبتذل ، وأسلوب عشق غير ظاهر فيه السطو على المعانى ، وكأنما هو من مبتكراته، على أنها معانى غيره ، وأسلوب سواه . كما قال

غداة وقفنا نقسم الشوق بيننا على ما اشترطنا وانقضت سنة القسم
وقد اطلعت تلك الهوادج أنجما تركن جفونى فى الكرى أسوةَ النجم
فأُبت بدمعى لؤلؤا فوق نحرها وآبت بما فى مقلتيها من السقم
خليلىَّ هل بعد المشيب تعلَّة لذى الجهل أو فى الحب شغل لذى العلم
وهل راجع عيش لَمسْناه آنفاً كيوم لذيذ فى بيوت بنى حزم
وهل لى حظ من مواتاة صاحب له قدرة القاضى ومَوْجدة الخصم
بدت رقة الشكوى على عطفاته ورابتك فى أعطافه قسوة الظلم

ثم أخذ فى المدح بما يحمل القارئ على الاهتمام بالكلام وكأنه قيل فيه أو أو كأنه كلام لم يسمعه. وليس ذلك لحسن الاسلوب وجماله لاغير، بل لأن الشاعر يعنى بذلك، حتى يحمل القارئ على الاهتمام بما يقول. كما قال:

أبا جعفر هذى المكارم والعلا دعاء بحق او دعاء على غُنم
أرى الناس قد باعو المروءة فاشترَ وقد ضيعوا ما كان من حسَبٍ فخم
وأنت أحق الناس بالحزم فأنه وحق العلا بالمال أشبه بالحزم
وأنت بعيد الهم مقترب الجدى كريم السجايا ماجد الخال والعم
وأحفى بألباب الرجال من الهوى وأخفى وراء الحادثات من الدهر
وأحمى لحوزات المعالى من الردى وأسخى بآمال النفوس من الحلم

وكل قصائده فى المدح متينة جميلة (راجع الكلام عنه فى الجزء الثانى من الذخيرة) وربما كان فى رثائه أجمل منه فى مدحه. كقوله فى قصيدة تشبه قصيدة مالك بن الريب وكأنه ملهم بأبياتها

على مثلها فلتبك ان كنت باكيا فقد عهد الاحباب الا تلاقيا
أفى كل يوم أو دع الارض صاحباً أريق به فى الترب ماء شبابيا
وأحسب أنى لو رجوت مكانه يعز عليه أن يكون مكانيا

ولو أننى أحببتــه الحب كله ... لاتبعته نفسى وأهلى وماليا
خليلى من يطمع بشئ فاننى ... نفضت به لا بل نفضت فؤاديا
وليس حياتى غير شجو مرددٍ ... عهـدت له الا ألذ حياتيا

وهذه القصيدة هى تقليد للشعر القديم المعروف، ولكنها جميلة فى بابها تدل على ذوقه وحسن سبكه فى التقليد

وله فى الغزل شعر يمتاز بطريقته وأسلوبه أكثر منه ببلاغته وجماله . فقد ساق قصيدة يتغزل فيها بفتاة تسمى لديمة جعلها حديثاً بينه وبين امرأة تجيبه وتسليه وهذا الاسلوب ليس من الاساليب الشائعة عنـد العرب . وهو أشبه بالمناظرة بين عاشقين . وكأنما أراد أن يكشف فى حديثه عن نفس العاشق بما أودعه فى كلامه من الآراء ، وعما عسى أن يلاقى من الوسائل الناجحة بما فى أراء تلك الفتاة فقال :

لما التقينا وقد قيل المساء دنا ... وغابت الشمس أو لاذت ولم تغب
وأضلعى بين منقض ومنقصف ... وأدمعى بين منهـل ومنسكب
وأملتنى أم المجـــــد قائلة ... بمن أراك أسير الوجد والطرب
فقلت قلبى مَسْبيّ وأنك لو ... كتمت سري لما كتمك كيف سبى
وأعرضت ثم قالت قد أسأت بنا ... ظناً أيجمل هذا من ذوى الأدب
فقلت انى امرؤ لما لقيتـكم ... والمرء وقف على الارزاء والنوب
سبت فؤادى ذات الخال قادرة ... ولا نصيب لها منه سوى النصب
ألهو بها وهى تلهو فى بلَهْنِية ... شتان والله بين الجد واللعب
أصابت القلب لما ان رمته ولو ... ولو رمتْهُ أخرى إذَنْ لا شك لم تُصب
فقالت اشكوا اليها مالقيت ولا ... ترهب فلم تبلغ الآمال بالرهب
عسى هواك سيُعـديها فينصبها ... وقد يكوب الهوى أعدى من الجرب

فقلت أعظمها بل ما أكلمها   الا أشار الىّ الموت من كثَب
قالت أنا أنولى ذاك فى لطَف   فقد أؤلف بين الماء واللهب
فقلت مثلك من يرجى لمعضلة   لا زلت فى غبطة ممتدة الطُنُب
حليه أو فاقتليه فالحمام له   خير من الهجر فى جهد وفى تعب
فلو ترانى قد استسلمت مرتقبا   منها حنان الرضا أوجفوة الغضب
حتى اذا ما ألانت تلك جانبها   والقلب مهما أرم تسكينه يَجُب
طفقت ألثم كفيها وقد جنحت   اليك تضحك بين العجب والعجب
لله مثلى ما أدنى سجيته   من المعالى وأناها عن الريب
كم مأثم مستلذ قد هممت به   فلم يدعنى له دينى ولا حسبى

ولقد ينظم الكلام المعروف فيغير من صبغته فى النفس، ومن معناه فى الفؤاد، فيكون جديداً لان روح الشاعر غالبة على معانيه. كما فى كلامه عن لذيذة حبيبته. وله أبيات حكيمة بثها مدحه كقوله:

كم مقلة ذهبت فى الغى مذهبها   بنظرة هى شان أولها شان
رهن بأضغاث أحلام اذا هجعت   وربما حلمت والمرء يقظان
فانظر بعقلك ان العين كاذبة   واسمع بقلبك ان السمع خوان
ولا تقل كل ذى عين له نظر   ان الرعاة ترى مالا ترى الضان
دع الغنى لرجال ينصتون له   ان الغنى لفضول الهم ميزان
واخلع لبوسك من شح ومن أمل   لا يقطع السبق الا وهو عريان
وصاحب لم أزل منه على خطر   كأننى علم غيب وهو حسان
أغراه حظ توخاه وأخطأنى   أما درى ان بعض الرزق حرمان
وغره ان رآه قد تقدمنى   كما تقدم باسم الله عنوان

ولقد ينظم الحكم والعبر فى كلامه فتجده حكيما وشاعرا معا. كقوله:

تنافس الناس فى الدنيا وقد علموا   ان سوف يقتلهم لذاتها بدلا
قل للمحدّث عن لقمان اولبد   لم يترك الدهر لقمانا ولا لبدا
وللذى همه البنيان يرفعه   ان الردى لم يغادر فى الثرى احدا
ما لابن آدم لا تفنى مطالبه   يرجو غدا وعسى أن لا يعيش غدا[1]

---

١ ووصف سداً يمج ماء من فمه

أســد ولو أنّى أنا   قته الحساب لقلت صخره
وكأنه أســد السما   ء يمج من فيــه المجره

ومن قوله فى الحكمة

واذا عجبت من الزمان لحادث   فتتابع يبكى على متبوع
واذا اعتبرت العمر فهو ظلامة   والموت منها موضع التوقيع

(راجع بغية الملتمس للضبي صحيفة ١٨٦)

وقالوا انه اجتمع مع كثير من الادباء فبرز عليهم فى موشحته التى يقول فيها

ضاحك عن جمان   سافر عن بدر   ضاق عنه الزمان   وحواه صدرى

ابن عبدون [١]

كان ابن عبدون كاتبا ناثراً وشاعراً بليغاً . أما نثره فهو نثر أدباء عصره : كلام أشبه بالنظم منه بالسجع ، أو سجع مُتَعَمَّل غير ظاهر فيه التكلف ، اذا قيس بنيره أو عورض بسواه ، أو معنى قصير فى سلسلة من ألفاظ طويلة ، أو هو من نوع البراعة فى الاحاطة باللغة وتنسيق الألفاظ ، أو ضرب من الافتنان الدقيق فى اخفاء ابتذال الموضوعات والمعانى المعروفة تحت ستار من الصناعة .

ولقد يخيل الى الناقد ان الكتّاب فى ذلك العصر كان يقلد بعضهم بعضاً ، وان هذه هى الصفات التى تظهر فيها ميزة الكاتب ، وانه لا فضل لمن اكتسب هذه الملكة بكثرة مايقرأ ويعلم من أساليب معاصريه ومعانيهم . ولقد يظهر لنا ان هؤلاء الكتاب والشعراء سائرون فى طريق واحد متشابه الارجاء والنواحى ، وأنهم يضربون على نغمة واحدة، من حيث الكلام فى الموضوعات المعروفة لهم ، وانه ليس لأحدهم فضل فى غير الانفراد بالأسلوب واختيار الألفاظ واتباع

---

١ عاش ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون فى أزهى عصر من عصور الادب زمن ملوك الطوائف ، وعاشر أذكى ملوكهم وأعلمهم باللغة والادب والتاريخ وهم بنو الافطس الذين اشتهر علمهم وفضلهم وعرف حبهم للادباء وأكرامهم اياهم

وكان كاتباً للمتوكل على الله بن المظفر وناهيك بمن يكون فى حضرة هؤلاء ويكتب لهم وهم العلماء والشعراء . وقد قالوا عنه انه كان أعجوبة فى النظم والنثر ، من كبار حفاظ اللغة والادب فى وقته . ورووا عنه وعن قوة حفظه انه أديب الاندلس وامامها وسيدها فى عالم الآداب وان أيسر محفوظاته كتاب الاغانى . ومهما بالغوا فى نسبة هذا اليه فذلك يدل على مقدار معلوماته وقوة ذاكرته . وهو فهرى من أصل عربى وتوفى سنة ٥٢٠ هجرية مدة سلطة المرابطين وقد اتصل بعد سقوط ملوك الطوائف بيوسف بن تاشفين وكتب له ولابنه .

الطرق التى يختارونها اقتفاء لآثار غيرهم . ولكن أليس من البراعة أن يشبه الكاتب جميع الكتاب ويعرف كيف يمتاز عنهم بمعانيه وأسلوبه ؟ ان العصر الذى يغص بالأدباء لمن أشق العصور وأصعبها على الكتاب والشعراء الذى لا يمتازون بشىء فى مواهبهم ، وحتى على الكبار منهم ، الذين يحملهم ذكاؤهم وقدرتهم على أن يمتازوا ويظهروا على معاصريهم . ان ميزة الصناعة الأدبية والافتنان لا يكونان فى اختلاف الموضوعات والأسلوب لا غير ، بل ذلك شىء كامن فى نفس الكاتب لا يظهر الا على شبا قلمه ولا تمليه قريحته الا لشخصه .

قد يظهر للقارئ ان الكتاب أو الشعراء يشبه أحدهم الآخر هذا يمدح ويذم ، ويعتب ويعشق ، وهذا يأخذ من لفظه ويسير على نهجه . ولكننا لانعدم أن نرى فى خلال هذه الصحف المتشابهة عبارات ومعانى جديدة ، وأساليب تدل على شخصية الكتاب والشعراء فى هذه الألفاظ . وقد نجد جملة واحدة أو كلمة واحدة يستريح اليها الفكر وتطمئن اليها النفس

ربما كان ابن عبدون من هؤلاء . فان له رسائل طويلة أكثرها مملوء بالألفاظ المعروفة ، والعبارات المأخوذة من كلام غيره والاطناب الذى يذهب بصبر القراء . وعلى الرغم من اعتباره من أكبر كتاب أهل زمانه ، ليس فى كتاباته غير الطول الممل والسجع المتكلف [1] ولكن كان هذا الأسلوب من أفضل الأساليب . ولابن عبدون فى أسلوبه أحيانا شبه بأسلوب ابن زيدون ، من ذكر الحوادث وأسماء الرجال [2]

أما شعره فأفضل من نثره . ومن قصائده القصيدة التى رثى فيها بنى الأفطس وذكر فيها أشهر حوادث الملوك وأشهر الدول البائدة الى ايامه . وهى قصيدة ممتازة فى أسلوبها ومعانيها . قد احتوت على كثير من المعانى الدقيقة والملاحظات العامة . بدأها بالتفجع والشكوى من الايام فقال :

---

١ ورسائله كثيرة فى الذخيرة والمعجب ٢ راجع قلائد العقيان ص ١٤٨

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وأن أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما سجية عينيها سوى السهر
ما لليالى أقال الله عثرتها ... من الليالى وخانتها يد الغير
فى كل حين لها فى كل جارحة ... منا جراح وان زاغت عن النظر
تسر بالشىء لكن كي تغر به ... كالأيم ثار الى الجانى من الزهر

ثم أخذ فى سرد أصحاب الدول البائدة والملوك الماضية فقال:

كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدار وفلّت غرب قاتله ... وكان عضبا على الاملاك ذا أثر
واسترجعت من بنى ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبنى يونان من أثر
وألحقت أختها طسما وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقص المِرَر
وما أقالت ذوى الهيئات من يمن ... ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
ومزقت سبأ فى كل قاصية ... فما التقى رائح منهم بمبتكر

والقسم الثالث منها وهو رثاء بنى المظفر أبلغها، لما احتوى عليه من الموعظة، والاعتبار والتذكير بالأيام الماضية، أيام العز والمجد الرفيع. وفيها كثير من المعانى المبتكرة التى خالف بها سنة الرثاء المعهودة. وفى هذا يقول:

بنى المظفر والأيام لا نزلت ... مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوما ولا حملت ... بمثله ليلة فى غابر العمر
من للأسرة أو من للاعنة أو ... من للأسنة يهديها الى الثغر
من للظبا وعوالى الخط قد عقدت ... أطراف ألسنها بالعى والحصر

وطوقت بالمنايا السود بيضهم | فاعجب بذاك ومامنها سوى الذكر
من للبراعة أو من للبراعة أو | من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع رادفة | أوقمع حادثة تعيى على القدر

وله شعر كأنه هو من مبتدعيه رقيق المعانى والحاشية . كقوله فى مدح المتوكل.

وافاك من فلق الصباح تبسم | وانجاب عن غسق الظلام تجهم
والليل ينعى بالأذان وقد شدا | بالفجر طير البانة المترنم
ودموع طل الليل تلحق أعيناً | يرنو بها من ماء دجلة أرقم
ياصاحبى بين الفرات ودجلة | ودع علاقة مسعد ومتيم

وهو فى مدحه من عشاق المتنبى وحفظة اسلوبه . ومع هذا التقليد ميزته ظاهرة وروحه جذابة فى كلامه، جلية فى ان هذا له . كقوله يمدح أيضاً .

مضوا يظلمون الليل لا يلبسونه | وان كان مسكي الجلابيب ضافيا
يؤمون بيضا فى الأكنة لم تزل | قلوبهم حبا عليها جآجيا
وأغربة الظلماء تنفض بينهم | قوادمها مبلولة والخوافيا
اذا مرقوا من بطن ليل زقت بهم | الى ظهر يوم عزمة هى ماهيا
وان زعزعتهم روعة زعزعوا الدجى | النبا سماتاً والرياح مذاكيا
ولو انها ضلت لكان أمامها | سنا عمر فى فحمة الليل هاديا
وصلت بها الهيجا عليه وسلمت | .....
همام أقام الحرب وهى قعيدة | وروّى القنا فيها وكانت صواديا

ومن أساليبه فى تقليد المتنبى قصيدته التى يقول فيها :

هيهات لا ابتغى منهم هوى بهوى | حسبى أكون محبا غير محبوب.
فما أراح لذكرى غير مؤلمة | ولا ألذ بحب دون تعذيب.

والا أصالح أيامي على دخـــل ليس النفاق الى خلق بمنسوب

يادهر ان توسع الاحرار مظلمة فاستثنني .....

ولا تخل انني ألقاك منفرداً ان القناعة جيش غير مغلوب

ما كل من سيم خسفا عاف مورده ان الاباء لظهر غير مركوب

وكم تأزرت الغيطان بي كرما واستنشقتني أنفاس المناخيب

وله كثير من الشعر الجيد غير انه مقلد لشعراء المشرق . ولذلك لا تجد له ديباجة واحدة ، ولا اسلوباً معروفاً ، ولا معاني مبتكرة.

ابن هانیء [1]

كان محمد ابن هانیء من أصحاب الظرف والخلاعة ، ذا أدب جم ، لا يبالى بما يفعل ولا بما يقول ، حتى قالوا عنه انه كان فى كلامه كثير من الافراط والغلو فى المدح المفضى الى الكفر ، وكان ينتجع أماكن الرزق لدى الخلفاء والامراء كغيره من الشعراء ويعيش على متون القوافى . وكانت حياته كحياة الأدباء التنقل والرحلة وانشاد الشعر وحفظه ، والاطلاع على الأدب واللغة

١ فاتنا أن نذكر ابن هانیء فى مقدمة الشعراء لتقدمه فى الزمن عمن ذكرنا ، ولكننا أخرناه لذلك . على ان الادب فى الأندلس لايظهر فيه اختلاف المذاهب الادبية ظهورها فى المشرق وهو أبو القاسم محمد بن هانیء الازدى الأندلسى . من أكبر شعراء الأندلس وأشهرهم . ذاع ذكره فى المشرق والمغرب وتقدم على غيره من الشعراء . وعاش فى أرغد أيام دولة بنى أمية فى الأندلس . فقد مات فى سنة ٣٦٢ بعد أن عاش ستاوثلاثين سنة . فيكون مولده على هذا القول فى نحو ٣٢٦ وهذه الأيام هى أزهى أيام دولة الأمويين وأبهى أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (مات الناصر سنة ٣٥٠ ومات الحكم سنة ٣٦٦) فى هذا العصر عاش ابن هانیء . وظهر على الشعراء ولكنه لم يكن من بين شعراء الناصر ولا من حاشية ابنه .

واصل أبيه هانیء من أفريقية . وكان هو أيضاً شاعراً مشهوراً وأديباً معروفاً فانتقل الى الأندلس فولد له محمد هذا بمدينة أشبيلية . واذ كان أبوه أديباً وشاعراً رأى صنعته الاب يعيش منه ويرحل فى طلب السؤال به . كان ابنه أيضاً من عشاق الشعر . وكانت أشبيلية اذ ذاك أخصب بلاد الاندلس علماً وأدباً . فنشأ بها وبرع فى الادب واندمج فى صف الشعراء لما كان له من الميل الى ذلك . وقد ورث الذوق الادبى عن أبيه وتربى على حب الشعر . وعرف منزلة الشعراء وادرك ماكان لهم من رفعة الشأن والافاضة عليهم بالمال والثراء . وكان ذكياً نبيهاً ميالاً للخلاعة والدعارة . وكانت بذرة الترف واللهو نبتت فى تلك البلاد فاندفع فى هذه البيئة تدفعاً واتصل بصاحب أشبيلية ونال حظوته وانهمك فى الملاهى والملاذ ولم يكن له رادع نفسى ولا دينى . ثم جاهر بشیء من الآراء الممقوتة هناك فغضب عليه أهل أشبيلية وساءت المقالة فى حق الملك بسببه واتهم بمذهبه . فأشار الملك عليه بالغيبة مدة ليلس فيها خبره فخرج من أشبيلية وعمره سبعة وعشرون عاما ورحل الى عدوة المغرب فلقى جوهر القائد (الذى فتح مصر للمعز)

وشيء من تاريخ الأدباء وحياتهم ، ومعرفة أقوال الشعراء ، ووعي أشهر كلامهم وأساليبهم وطرق التصور لديهم ، وموازنة الكلام بعضه ببعض ، والامعان في معرفة الجيد والردىء منه. لان ذلك كان لهولأمثاله المرجع الوحيد الذى يستمد منه أفكاره ومعلوماته وتصوراته ، التي هي كل شيء لديه .

هذه كانت حياته العقلية وحياة أمثاله من الأدباء الخلص الذين لم يشتغلوا بالعلوم ، ولم يتجهوا الى الاستفادة منها . ولم تكن لابن هانيء نزعة أدبية في غير الشعر . فقد اتجه اليه بكل قواه العقلية وحصر جميع ادراكاته فيه . لذلك ظهرت مواهبه في الشعر ، وكان له شأن رفيع بين كبار الشعراء .

أما شعره فهو في جملته من الكلام الجيد . ونريد بالجودة هنا اختيار المعاني الداعية الى التفكير وحمل الذهن على البحث فيها ، ليدركها القارىء ادراكاً صحيحاً يتعظ به،أو يستفيد منه شيئاً جديداً في حياته العقلية ، أو يذكره برأى نافع ، أو مسألة صحيحة من مسائل الحياة والاجتماع ، كما هي الحال عند كبار الشعراء المفكرين . فشعر ابن هانيء به كثير من ذلك تطمئن اليه النفس وتميل الى آرائه وتصديقها.وبه أفكار عامة في الحياة والمجتمع الانساني.وأكثر كلامه مملوء بهذه الآراء والخيالات الحكيمة . وقد يجد الانسان روح المتنبي تدب دبيبا في كلامه أحيانا . وكأنه لا يحسب من الشعراء الخياليين الذين جاؤا بعده بأنواع الخيال وتفرغوا لذلك ولم يلجوا باب الحقائق الانسانية في شيء

أحد ملوك أفريقية ثم اتصل بيحيي بن على بن بحر أحد ملوك طنجة وأخيه جعفر صاحب فبالغا في اكرامه . ثم علم به المعز العبيدى أحد ملوك أفريقية فأجرى عليه كثيرا من العطايا وأكرمه اكراما عظيما وكان محباً للعلم والأدب وسافر المعز هذا الى مصر فشيعه ابن هانيء ورجع الى المغرب لأخذ عياله.ولما وصل الى برقة أضافه شخص هناك وبقى عنده اياما في هناء وسرور ومجون بلغ اشده وقالوا انه خرج من تلك الديار وهو سكران فنام في الطريق فأصبح ميتاً ولم يعرف سبب موته وقيل عربدوا عليه وقتلوه .ولما بلغ المعز خبر موته أسف أسفاً شديداً وقال كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك

ولا طرقوا أبواب الحكمة ، بل اقتصروا على الأوصاف والتشبيهات . على ان ابن هانئ رغم طريقته المعروفة التي نسبت اليه، كان يظهر عليه انه ناقل ومقلد في تلك المعاني التي حدث في زمن المتنبي ، وفي الأساليب العربية التي كانت قبل ذلك . فان منهجه في كلامه وأسلوبه لا يدل على غير ذلك . غير أنه بارع في جمع المعاني الغريبة ونظمها ، واقف على كثير منها ، مستجمع لطائفة عظيمة من الآراء الحكيمة والأمثال والمواعظ ، يذكرها لمناسبة ولغير مناسبة . وله في كلامه آراء تشبه الناقد البصير للاجتماع والناس ، ولعل هذا هو الذي حمل على القول بانه كانت له آراء ممقوتة وسموها آراء فلسفية .

ولقد جرى في أسلوبه على الاسلوب القديم : بالبدء بالغزل والاسترسال فيه ، وذكر المعاني القديمة المعروفة عند الشعراء ، ولعل ذلك جاءه من تمكنه من الشعر القديم وحفظه كثيراً منه . ويأتي في قصائد المدح بكثير من الآراء والافكار المختلفة وهي طريقة المتنبي بعينها . وبعض هذه القصائد مملوء باوصاف الحروب وتمجيد الامراء . وأسلوبه أسلوب رشيق سهل . حتى ان أبا العلاء المعري قال فيه : « ما أشبهه الا برحى تطحن قرونا لاجل القعقعة التي في ألفاظه »

وقال الضبي صاحب بغية الملتمس .«وهو كثير الشعر ، محسن مجيد، الا ان قعقعة الألفاظ أغلب على شعره ». وربما كان أسلوبه دليلا على قول من يدعى ان شعراء الأندلس رغم ما كان لهم من الامتياز في الفكر والأساليب كانوا يقفون أثر البدو القدماء .

وأول شيء يشعر به الانسان عند قراءة شعر ابن هانئ انه شاعر لا كغيره من الشعراء ، شاعر ممتاز عن سواه ، وكفى بذلك دليلا على ملكة الشعر لديه . ان الصبغة الخاصة التي تدل على أثر الشاعر أو الكاتب أو على شيء من شخصيته في كلامه هي علامة من علامات الافتنان التي من أجلها يحسب من بين الفنيين وليس الافتنان غير ابراز الجمال وكشف دقائق ما فيه

وما هو جمال الشعر ؟ أليس هو ذلك الدبيب الذى يدب فى النفوس فيملأها بهجة وارتياحا، ويحملها على الاعجاب بالكلام وما فيه ؟ أليس جمال الشعر فى تلك الرنات التى تطرب النفس وتحركها كما تحركها رنات المزاهر والأغانى ؟ أليس جمال الشعر فى الألفاظ والمعانى وتنسيقها وتناسبها وتقابلها وترتيبها، ونظمها وجمعها بأسلوب يتحايل به الشاعر على أن ينال من نفس غيره وشعوره ،وأن يتقرب الى فؤاده وامتلاك عقله، وأن يحرك القلوب والعواطف، ويحكم على العقول بالاصغاء اليه، والتصديق لما يقول ؟ . هذه حقيقة جمال الشعر كما ان ذلك هو سر كل فنون الجمال.وأكثر جمال الفنون هو فى معرفة تصوير الاشياء أو المعانى مع دقة الفنى فى ذلك .ولقد يكون الافتنان تقليداً متقنا لشىء معروف. هذا التقليد المتقن هوما يراه الانسان جميلا. فليس من لوازم الافتنان فى الشعر ابتكار المعانى، بل الاحاطة بها مع دقة ابرازها .

وهذا مايشعر به القارئ فى أكثر شعر ابن هانىء، يشعر بسعة خياله، ودقة ادراكه، وحسن اختياره ،وتنسيق صناعته، وافتنانه الخاص، الذى يدل على ان الكلام كلامه، والاسلوب أسلوبه. يتغزل ابن هانئ كما يتغزل غيره . ولكنه غزل غير غزل غيره، تشعر عند قراءتك له انه شاعر ممتاز، له صفة خاصة وذوق خاص . يغرب فى غزله ويتعجب من جمال محبوبته، ويخاطبها ويصفها بما يدعو الى الاعجاب بها ويحرك العواطف اليها . وكأنما ذلك كله أثر غرامه الصحيح ، وحبه الصادق، وربما لم يكن شىء من ذلك . أرأيت كيف يتغزل فى قصيدة مدح :

فتكاتُ طرفكِ أمسيوفُ أبيكِ ... وكؤوسُ خمرٍ أم مراشفُ فيكِ
أجلادُ مرهفةٍ وفتكُ محاجرٍ ... ماأنتِ راحمةٌ ولا أهلوكِ
يابنتَ ذى البردِ الطويلِ نجادُهُ ... أكذا يجوزُ الحكمُ فى ناديكِ

قد كانَ يدعونى خيالك طارقاً حتى دعانى بالقنا داعيك
عيناك أم مغناك موعدنا وفى وادى الكرى ألقاك أم واديك
منعوكَ من سنة الكرى وسروا فلو عثروا بطيفِ طارق ظنوكِ
ودعوكَ نشوى ماسقوك مدامة لما تمايل عطفك اتهموكِ
حسبوا التكحلَ فى جفونك حلية تالله ما بأكفهم كحلوكِ
ولوى مقبلك اللثام وما دروا ان قد لثمت به وقبل فوك

قد يكون تشبيه العيون بالسيوف معروفا ، وقد يكون تشبيه الريق بالخمر والاشارة الى ان التكحل غير الكحل معروفا أيضاً ، ولكن ما ليس معروفا هو ذلك الأسلوب ، هى روح الشاعر التى لبست هذه المعانى ، وكأنما اقيست عليها أو كانت من مبتكراتها. ولقد يأتى فى أثناء كلامه بمعان وتشبيهات بديعة مع أسلوبه المعروف فى البدء بالغزل . كقوله :

امسحوا عن ناظرى كحل السهاد وانفضوا عن مضجعى شوكَ القتاد
أو خذوا منى ما أبقيتموا لا أحب الجسمَ مسلوبَ الفؤاد
هل تجيرون محباً من هوى أو تفكون أسيراً من صفاد
أسلوا عنكمُ من هجركم قلما يسلو عن الماء الصواد
انما كانت خطوب قيضت فعدتنا عنكمُ إحدى العواد
فعلى الأيام من بعدكمُ ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مزارُ منكمُ يدنو سوى أن أرى أعلام هضب أو نجاد
قد عقلنا العيسَ فى أوطانها وهى انضاء ذميل ووخاد
وحديث عنكمُ كثره عن نسيم الريح أو برق الغواد
لم يزدنا القرب الا هجرة فرضينا بالتنائى والبعاد

واذا شاء زمان رابنا | برقيب أو حسود أو معاد

ثم دخل على المدح بهذا الأسلوب والاطناب الذى لا يمل، مع اختياره جميل الصفات وتعدادها، حتى انه ليخيل الى الانسان انه أفضل مدح، أو انه ليس وراء ذلك من اطراء . فقال :

من امام قائم بالقسط أو | منذر منتخب للوحى هاد
أهل حوض الله يجرى سلسلا | بالطهور العذب والصفو البراد
أسواهم ابتغى يوم الندى | أم سواهم ارتجى يوم المعاد
هم أباحوا كل ممنوع الحمى | وأذلوا كل جبار العناد
واذا ما ابتدر الناس العلى | فلهم عاديُّها من قبل عاد
ولهم كل نجاد مرتدى | ولهم كل سليل مستجاد

ولقد يرق فى كلامه فيأتى بالمرقص والمطرب ، حتى لانعرف أهو شاعر أم مادح أم عاشق أم مبتكر المعانى أم موحى اليه بها كقوله :

قد مررنا على مغانيك تلك | فرأينا فيها مشابه منك
عارضتنا المها الخرائد أسرا | باً بأجراعها فلم تَسلُ عنك
لا َبرح للمهَا بذلك سربٌ | فلقد أشبهتك ان لم تكنك
لحنين مرجّع كحنينى | وتَشك مردد كتشكّى
فاتئد تسكب الدموع كسكبى | ثم لاتسفك الدماء كسفكي
لأرى كابن جعفر بن علىّ | ملكاً لابساً جلالة ملك
تتفادى القلوب منه وجيباً | فى مقام على المتوج ضنك
وطويل النجاد فرج منه | جانب السجف عن حياة وهلك

وقد يصف فيبدع فى الوصف ، وتظهر ميوله المجونية فى شعره ، فيكون

أصدق ما يكون، وأرق انسان، عذب الالفاظ رشيقا، خفيف الروح، مبدعا جذابا :

قمن في مأتم على العشاق	ولبسن الحداد في الأحداق
وبكين الدماء بالعنم الرط	ب المقنا وبالخدود الرقاق
ومنحن الفراق رقة شكوا	هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دم	ع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى	آذنوا بالفراق قبل التلاقي
ودنوا للوداع حتى تر الأجي	اد فوق الأجياد كالأطواق
يوم راهنت في البكاء عيونا	فتقدمت في عنان السباق
أمنع القلب أن يذوب ومن ي	نع جمر الغضى عن الاحراق
رب يوم لنا رقيق حواشي الد	هو حسنا جوال عقد النطاق
قد لبسناه وهو من نفحات ال	مسك درع الجيوب درع التراق
والأباريق كالظباء العواطي	.....
مصغيات الى الغناء مطلا	ت عليه كثيرة الاطراق
وهي شم الأنوف يشمخن كبرا	ثم يرعفن بالدم المهراق
قدمتها السقاة كي يوقروها	صمما عن سماع شاد وساق
فهي اما يشكون ثقلا من الوق	ر واما يبكين بالاماق

ويمزج أسلوبه بشيء من أساليب غيره، كتقليده المتنبي، حيث يبث الحكم، أو شيئا من التهكم، بينما هو يتكلم في المدح او في الغزل. ولقد يسبق الى فكره شيء من المبالغة فيجري به لسانه فكأنه يقول ذلك عن غير قصد. كقوله في المدح

وما الجود شيئا كان قبلك سابقا	بل الجود شيء في زمانك حادث

وفي هذه القصيدة يقول

عبثت زماناً بالليالى وصرفها　　فهاهى بى لو تعلمون عوابث
لئن كان عتق النفس للنفس قاتلا　　فانى على حتفى بكفى باحث
وان كان عمر المرء مثل سماحه　　فان أمير الزاب للارض وارث
اذا نحن جئناه اقتسمنا نواله　　كما اقتسمت فى الأقربين الموارث
وان حراماً أن نؤمل غيره　　كما حرمت فى العالمين الخبائث
تبسمت الأيام عنك ضواحكا　　كما ابتسمت حو الرياض الدمائث
وسد ثغور الملك بعد انثلامها　　وقد أظلمت تلك الخطوب الكوارث
فما زاد فى بحبوحة الملك رائد　　ولا عاث فى عرِّيسة الليث عائث

وكثير من قصائده هى من نوع مزج الغزل بالحماسة والمدح. وينتقل من معنى الى آخر، ويميل دائماً الى الوصف الغزلى. كقوله

قمر لهم قد قلدوه صارما　　لو أنصفوه قلدوه كوكبا
صبغوه يوما بالشقيق وبالرحيـ　　ـق وبالبنفسج والاقاحى مشربا
وكأنما طبعوا له من لحظه　　سيفا رقيق الشفرتين مشطبا
قد ماج حتى كاد يسقط نصفه　　وأذيل حتى كاد أن يتسربا
خالسته نظرا وكان موردا　　فاحمر حتى كاد أن يتلهبا

فاذا مدح وصف وذكر صورا كثيرة من الحوادث التى مرت فى حياة الممدوح فبنت مجده ورفعت قدره . وقصائده فى ذلك كثيرة.

وهو فى رثائه جيد أيضاً ، يأتى بالعظة والعبر . وذلك هو الاسلوب الفلسفى المعروف فى المشرق . ومن كلامه فى ذلك قصيدته التى يقول فيها .

وهب الدهر نفيسا فاسترد　　ربما جاد بخيل فحسد
كلما أعطى فوفى حاجة　　بيد شيئا تلقاه بيد

كاذب جاء جهاما زبرجا بعد ما أومض برق ورعد
انها شنشنة من أخزم قلما ذم بخيل لمحمد
خاب من يرجو زمانا دائما تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نمى واذا ما طيب الزاد نفد
فلقد أذكر من كان سها ولقد نبه من كان رقد
ابدا يعجم مني نبعة وقناة ليس فيها من أود

واستقصاء الجيد من شعره يدعو الى الخروج من مثل هذه الملخصات، فعلى من يريد الاطلاع على شعره أن يرجع الى ديوانه المطبوع بمصر سنة ١٢٧٤ ه

ابن الحداد [١]

كان ابن الحداد من أهل الجد وأصحاب الاطلاع وأهل الذوق فى الادب واللغة ، لان نثره نثر فنى مملوء بالمعانى،وأسلوبه سهل متين، هو أسلوب أديب مطلع على أحوال الاجتماع ونفوس الناس ، هادىء فى كلامه ، جزل فى ألفاظه واضح غير متكلف فى معانيه ، يلمح المعنى فى ذهنه كما يلمح اللفظ اللائق به وكأنما يتقابل المعنى واللفظ فى خاطره فيلبس أحدهما الآخر ويمتزج هذا بهذا ، أو كأنما قيس كل منهما على سمت صاحبه . فاذا أراد أن يكتب أزدحمت أمامه المعانى ، وتراكمت عليه الأمثال والحكم والتراكيب العربية التى تمر بذهنه وذاكرته ، فيأخذ منها ما سبق الى لسانه، وما علق بذاكرته . لذلك تجد فى رسائله المعنى الطريف واللفظ الظريف ، وكلام غيره وصناعة سواه ، من مناهج الادباء وأساليب الشعراء . وهو كأنه نقاد يختار منها الجياد . لا يخرج عن المعنى

---

١ هو الاديب أبو عبد الله محمد بن الحداد . عاش فى دولة ابن عباد وتوفى سنة ٤٨٠ وكان ملازماً للمعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف الذى كان معاصراً للمعتمد بن عباد أيام دخول يوسف بن تاشفين فى الأندلس . وقد عاش ابن الحداد فى كنف ابن صمادح وابنه معن وخصهما بمدحه . وعرف كيف ينزل من نفس المعتصم بن صمادح منزلة الشرف والوقار وكيف يمدحه غير متبذل ولا متغال .وكان لا خلاقه أثر فى ذلك لأنه كان كبير النفس مبجلا محترمامن جميع الناس .

وذكره الادباء والنقاد ببعض الآراء الفلسفية فى شعره وميزوه عن بقية الشعراء والكتاب من أصحاب الأساليب الخيالية . وقد حسبوه من أصحاب الآراء الفلسفية لابتعاده فى كثير من شعره عن المجون الذى كان سمة لأكثر الشعراء هنالك، وكانوا يحسبون الكلام الجدى الخالى من المزح والهزل فلسفة كما نسبوا اليه الفلسفة فى قوله

لزمت قناعتى وقعدت عنهم ... فلست أرى الأمير ولا الوزيرا
وكنت سمير أشعارى سفاها ... فعدت الفلسفيا فى سميرا

الذى يريد ، ولا عن الرأى الذى اليه قصد . ويقفو أثر المعانى أكثر من اقتفاء الألفاظ . وقلمه جواب ، ونفسه طويل ، وكلامه فيه كثير من الأطناب ولكنه غير ظاهر ظهوره فى كلام غيره . وجملة القول ان أسلوبه النثرى من الأساليب الأدبية التى تساعد على تقويم الالسنة مما اعتراها من العجمة . وهذه رسالة له

«لمّا كان الكتاب أعزك الله جلاء الاقذاء ، وصقال الاصداء ، وعقال الادواء ، وسمتنى منه بوسام ، ولفحتنى منه بسموم ، وأسررت حسواً فى ارتغاء ، وأدمجت ذماً فى ثناء ، والحر يأنف من الضيم ، ويشمئز من الذم ، ولا يقتصر على الاجتزاء ، بغير الجزاء ، ولو ترك القطا ليلا لنام ، وفى العتاب حياة بين أقوام ، فاصطبر لشرب صبره ، وانتدب لتسوغ مره ، فمن الحُكم العدل ، والقضاء الفصل ، أن ألذعك بما لذعتنى ، وأجرّعك بما جرعتنى ، غير آفك فى حال ، ولا مُباهتٍ بمحال ، والتمويه ليس من خلق الكريم ، والحر على ما أساء يُصِر ، وكل مُجرٍ فى الخلاء يُسِر ، والفضل لمن حواه ، لا لمن زخرف دعواه ، وتحقيق البرهان ، غير تنميق البيان ، والسؤدد فى محاسن الخلال والفعال ، لا فى امكان الزمان ، واقبال السلطان ، وقيمة كل امرىء ما يحسن . أمثال اضربها عليك ، واضحة المناهج ، ومقدمات أنشأتها معك ، صادقة النتائج ، وجمل تشتمل على تفصيل حالينا ، ونبذ تشير الى مافيه جرينا ، وقد همنى عتابك واجلابك بريح تعصف ، ورعد يقصف ، واستقبلنى خطابك واطنابك ، بويل يخسف ، وسيل ينسف ، بلغ الزبى وزاد ، وغمر الربا والوهاد ، لوأم الجلالى لاقتلع أزهاره وطمس أنواره الخ [1] .....»

أما طبقته بين الشعراء ، فهو من الشعراء المفكرين أكثر منه فى صف الخياليين الذين يصفون الأشياء وصفاً أو يذكرونها كما يرونها . وحتى فى كلامه الوجدانى

---

١ راجع بقية الرسالة فى الجزء الأول من الذخيرة

له أسلوب خاص ، يدل على أن فكره هو الذى يرشده ، ويحرك لسانه ، ويملى عليه بيانه . ومع انه كان من أهل الفكر ورجال العلم المحترمين، كان له شعر فى الغزل ووصف عواطفه، ظهرت فيه مواهبه فى هذا النوع .

واشتهر عنه انه أحب فى صباه فتاة نصرانية ذهبت بلبه ، وكان يسميها نويرة قد اتخذ عشقها وسيلة للتكلم فى أوصاف المسيحية والقسس والكنائس والصلوات ، من الأشياء النادرة فى الشعر العربى ، تخرج عن عادة الشعراء فى الاقتصار على أوصاف النفوس وآلامها عند الكلام على العشق . وهذا يدل على شىء من الابتكار ، وسعة الخيال ، وتأثر الشعر وعقول الشعراء بما يرون فى الحياة . وكلام ابن الحداد فى النصرانية وأهلها وان كان قليلا فهو جديد فى الشعر العربى ،ألمح اليه بعض الألماح المتنبى وأبو العلاء وغيرهما،مع ان كثيراً من الشعراء كان يعيش مع هؤلاء الناس ويرى أعمالهم الدينية ، ولكن لقصر فى خيالهم وجمود فى عقائدهم ، لم يحوموا حول هذه الموضوعات فى الكلام على من كانوا يعاشرون من الامم التى تدين بغير دين الاسلام ،وما كانوا عليه فى أعمالهم الدينية المملوءة بالالهامات الشعرية والخيالات

وليس ابن الحداد أول من أحب نصرانية من الشعراء حتى كان ذلك سببا من أسباب طرق هذا الموضوع لديه . ولكنه كان يرى مالا يراه غيره . قال فى حبيبته :

فان لى بالروم رومية	تكنس ما بين الكنيسات
أهيم فيها والهوى ضلةٌ	بين صواميع وبيعات
وفى ظباء البدو من يزدرى	بالظبيات الحضريات
أفصح وجدى يوم فصح لهم	بين الاريطى والدوحات
وقد أتوا منه الى موعد	واجتمعوا فيه لميقات

موافف بين يدى أسقف ممسك مصباح ومنسات
وكل قيس مظهر للتقى مبد لانصات واخبات
وعينه تسرح فى عينه كالذيب يبغى فرْس نعجات
أى امرئ سالم من هوى وقد رأى تلك الظبيات
وقد تلوا صحف أناجيلهم بحسن الحان وأصوات
يزيد فى نفسه يعافيره عنى وفى ضغط صباباتى
والشمس شمس الدجن من بينهم تحت غمامات اللثامات
وناظرى مختلس لحظها ولحظها يضرم لوعاتى
ففى الحشا نار نويرة عاقبتها منذ سنيات
لا تنطفى وقتا وقد رمتها بل تتلظى كلّ أوقاتى
حييا عنى رشا بالحنا وان أبى رجع تحياتى

قلنا ان هذا شىء جديد فى الشعر العربى أو من نوادر أشعار العرب . جاء هؤلاء الشعراء من اختلاطهم بغيرهم . وقد رأينا رسالة نثريه لابن شُهيد تشبه هذا وهذا الكلام جديد أيضا فى أسلوبه ، لانه تكلم فى حبيبته ثم فى القسس ، ووصف الصلاة والغناء ، وكل هذا جديد ، لان شعراء العشق قلما يخرجون عن الكلام من وصف النساء الى شىء آخر . على ان هذه العبارات طريفة . وقال فى هذه الفتاة وهو من نوع هذا الشعر :

فان الحسن ولاّ لـا احيائى واهلاكي
وأولعنى بصلبان ورهبان ونساك
ولم آت الكنائس عن هوى فيهن لولاك
وها أنا امنك فى بلوى ولا فرح لبلواك
ولا أسطيع سلوانا فقد أوثقت اشراكي

وكم أبكي عليك دما ولا ترثين للباكي
فهل تدرين ما تقضى على عينيّ عيناك
دما يذكيه من نار بقلبي نورك الذاكي
حجبت سناك عن بصري وفوق الشمس سيماك
وفى الغصن الرطيب وفى النقا المرتج عطفاك
وعند الروض خدا ك وفى رياه رياك
نويرة ان قليت فاء نى أهواك أهواك
وعينـاك الشهيدا ن بانى بعض قتلاك

وقد أفتن فى معانيه وفى كلامه فى هذه النصرانية ، واجتهد فى مزج أوصافها ومسائل عقائدها فى شعره ، فأخذ شعره لونا جديدا باهراً غير مألوف فى العربية . ففيها يقول :

وبين المسيحيات لى سامرية بعيد على الصب الحنيفى أن تدنو
مثلثة قد وحد الله حسنها فثنّيَ بها من قلبي الوجدُ والحزن
وتحت الخمار الجون حسن كأنما تجمع فيه البدر والليل والدجن
وفى معقد الزنار عقد صبابتى فمن تحته دعص ومن فوقه غصن

وفى هذا المعنى يقول أيضاً :

وفى شِرعةِ التثليث فرد مُحاسن تنزل شرع الحب من طرفه وحيا
وأذهل نفسى فى هوى عيسوية بها ضلت النفس الحنيفية الهديا
فمن لجفوتى بالتماح نويرة فتاة هى المأوى النفيس أو المحيا
سبتنى على عهد من السلم بيننا ولو انها حرب لكانت هى السبيا

واصطبح مع المعتصم يوما ومعه ندماؤه وأظهر صبية متصرفة فى أنواع اللعب والطرب، وحضر أيضاً لاعب مصرى هناك فارتجل ابن الحداد :

كذا فلتلح قمرا ظاهرا ... ونجنى الهوى ناظرا ناضرا
وسيبك سيب ندى مغدق ... أقام لنا هاملا هامرا
وان ليومك ذا رونقا ... منيرا لنور الضحى باهرا
صباح اصطباح باسفاره ... لحظنا محيا العلا سافرا
وأطلعت فيه نجوم الكؤوس ... وما زال كوكبها زاهرا
وأسمعتنا لاحنا فاتناً ... وأحضرتنا لاعبا ساحرا
يرفرف فوق رؤوس القيا ... ن فننظر مايذهب الناظرا
ويخطفها ذيل سرباله ... فتبصر طالعها غائراً
فظاهرها ينثنى باطنا ... وباطنها ينثنى ظاهرا
وثناه ثان لألعابه ... دقيق تثنى الحجى حائرا
وفى سورة الراح من سحره ... خواطر دلهت الخاطرا
اذا ورد اللحظ أثناءها ... فما الوهم عن وردها صادرا
ومن بدع نعماك أبداعه ... فما أنفك عارضها ماطرا
وسمعك يجتذب المغربات ... ويجعل غائبها حاضرا

ولقد كان يمزج هذه الخيالات الجميلة بالمدح . كقوله فى مدح بنى هود وقد أكرمه المقتدر وأعلا من شأنه فمدحه بقوله :

أسالت غداة البين لؤلؤ أجفانى ... وأجرت عقيق الدمع فى صحن أجفانى [1]
وألقت حلاها من أسى فكأنها ... أطارت شوادى الورق من فنن البان
وأذهلها داعى الهوى عن تنقب ... فحيا محياها بتفاح لبنان [2]

---

١ و٢ كذا الاصل

وقد أطبقت فوق الأقاحى بنفسجا . . . . .

وليـل بهيـم سرته ونجومه ازاهر روض أو سواهر أجفان
كأن الثريا فيه كاس مدامة وقد مالت الجوزاء ميلة نشوان
وما الدهر الا ليلة مدلهمة وشمس ضحاها أحمد بن سليمان

وقصائده كثيرة فى الجزء الأول من الذخيرة ،وفيها جملة من نثره،وذكره صاحب فوات الوفيات فى الجزء الثانى .وابن خاقان فى مطمح الأنفس .وفى فهرس الجزء الثانى من نفح الطيب طبع أوروبا المواضع التى ذكره فيها المقرى

ابن خفاجة الاندلسى

هو أبو اسحق ابراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة الأندلسى الشاعر الأديب المشهور . ولد ببلدة شقر ، ويطلق عليها العرب جزيرة شقر . وكانت ولادته سنة ٤٥٠ وتوفى بها سنة ٥٣٣ . عاش فى عصر المرابطين بعد زوال دولة بنى أمية والدولة العامرية ، وبعد انتهاء دولة بنى عباد ، أى فى عصر كان نضج اللغة والأدب بلغ أو كاد يبلغ منتهاه ، وكان الادباء فى لهو ومجون ، وكانت الملاهى والاشتغال بالملذات صرفت اليها العقول ، وجذبت اليها الافكار ، فهذبت منها قليلا أو كثيراً . واذا استولى اللهو على النفوس عشقت الجمال ، ومتى عشقت الجمال مالت الى نهمه ، وانغمست فى ادراك أسرار الطبيعة وما فيها من روعة وابداع . فاذا كانت النفوس قد تهذبت بالعلوم والفنون المختلفة ، أدركت جمال الكون ادراكا عميقا — كما يقولون — وبحثت عن خفاياه بحث الفيلسوف عن الحقائق ، وكان الشاعر فيلسوفا فنيا وشاعرا فيلسوفا ، يظهر الفلسفة فى ثوب شعرى ، ويظهر الشعر فى ثوب فلسفى . أما اذا كان فنيا بطبعه ، ولم يكن له نصيب من العلوم ، فانه يكتفى بالنظر الى الأشياء ، وفهم جمالها ، على حسب ما بها من التناسق الظاهر ، والمناظر الباهرة ، وجمال الألوان ، وكل ما توحيه الطبيعة الى النفس من الأعجاب . ولقد يؤثر هذا الشاعر فى النفس بجمال قوله ، كما يؤثر الفيلسوف بحكمه وصدق ادراكه .

ومثل ابن خفاجة مثل ذلك الشاعر الذى وقف كل مواهبه لادراك الجمال ، وفهم ظواهره الرائعة المبثوثة فى أنحاء الكون . فهو من الشعراء الذين

ربتهم الطبيعة بجمالها ، وهذب ادراكه جمال الوجود ، فاتجه بجميع قواه العقلية والخيالية الى معالجة التعبير عن هـذا الجمال ، وانغمس انغماسا فى ذلك ، حتى أصبح لا يكاد يدرك غير هذا النوع ، ولا يفهم غير المعانى الجميلة . فقد كان يخرج الى البرارى ليسمع خرير المياه ، ويتمتع بهذه الاصوات والمشاهدات. وكان له ولع بهذا ، وبكل مايقال فيه ، حتى لقد كان يجارى الشعراء ويعارضهم فى مثل هذه المعانى التى شغلت عقول كثير من الادباء والشعراء . وكان الكلام فى مناظر الطبيعة اذ ذلك من بدع البلاغة والأدب . فقد قالوا « ركب بعض الادباء مع أصحاب له فى نهر اشبيلية فى عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا ، وطارت زواريقها فى سماء النهر عقبانا ، وأبدى نسيمها من الامواج والدارات سررا وأعطانا ، فى زورق يجول جولان الطَّرْف ، ويسود أسواد الطَّرف ، فقال بديها :

تأمل حالنا والجو طلق ... محياه وقد طفل المساء

وقد حالت بنا عذراء حبلى ... تجاذب مرطها ريح رخاء

بنهر كالسجنجل كوثرى ... تعبس وجهها فيه السماء

واتفق ان وقف أبو اسحق بن خفاجة على القطعة فاستطرفها واستطابها . فقال يعارضها :

الا ياحبـذا ضحك الحيا ... بحانتها وقد عبس السماء

وأدهم من جياد الماء نهر ... ينازع جله ريح رخاء

اذا بدت الكواكب فيه غرقى ... رأيت الماء تحسده السماء »

فكان شغف ابن خفاجه بمثل هذا الكلام عظيما ، وكانت له ميول للمجون. فاجتمعت هذه الميول النفسية ، الى حبه لجمال الطبيعة وكونت ملكته الشعرية وخيالاته وتصوراته ، حتى لقد كان يملأ نفسه المجون فيملى عليه من المعانى ما يرسم شيئا من أخلاقه وميوله فى الحياة . كما قال :

وما الانس الا فى مُجاج زجاجة ولا العيش الا فى صرير سرير
وانى وان جئت المشيب لمولع بطرة خل فوق وجه غدير

كذلك كانت ميول ابن خفاجه ، وهكذا كانت أخلاقه ، فكانت كأخلاق كل الفنيين وميولهم : خفة وطيشا . ولكنها خفة روح تدعو الى حبه وحب كلامه . وهذا كله فى شعره ونثره . وكأنه لم يكن يرى من الحياة الا ما يتفق مع أهوائه من بهجة وجمال ، حتى انه وصف الأندلس وقال :

يا أهلَ أندلس لله دَرّكُمُ ماء وظل وأنهارٌ وأشجار
ما جنة الخلد الا فى دياركمُ ولو تخيرت هذا كنت اختار

هذا السرور النفسى كان يغمره ولا يفارقه ، فانه كان يحب بلاده ، لانها جميلة تشبه ما يحب فى حياته من الجمال ، اذ يقول :

ان للجنة بالأندلس مُجْتلى عين وريّا نَفَسِ
فَسنَا صبحتها من شنب ودجا ليلتها من لعس
فاذا ما هبت الريح صبا صحت وا شوقى الى اندلس

هذه أخلاق ابن خفاجة وميوله النفسية فى جملتها وأثرها ظاهر فى حياته العقلية، وفى رسائله النثرية وقصائده الشعرية .

لذلك كان صاحب مذهب كتابى ، وأسلوب أدبى ، يوازن بأبى تمام فى شعره ومذهبه ، وبابن العميد أو الهمذانى فى النثر والكتابة . فانه يشبه أبا تمام من حيث الميل الى تنميق عباراته الشعرية والتعمل قليلا أو كثيراً فى ذلك ، والعناية بذكر أنواع البيان والبديع . ولكنه مع هذا غير ظاهر التكلف كأن ذلك جاءه عفوا أو كأنه سليقة له . وهو على ما يظهر من شعره من المتشعين لطريقة أبى تمام ، المعجبين بها . كما ان غيره من الشعراء كان يقفو أثر المتنبى فى أسلوبه ويتشبه به فى آرائه الفلسفية . ولكننا لم نر أحدا فاق المتنبى فى

فى أسلوبه الفلسفى ، بل كانوا جميعاً مقلدين أو مغترفين من بحره . حتى انهم لم يبلغوا شأوه ، ولكن ابن خفاجة أخذ عن ابى تمام وجاراه وفاقه فى أسلوبه ، لانه غير متكلف كأبى تمام . بل جاءه ذلك من باب الميل النفسى والسجية . حتى لقد يذكر المعنى ونفس الخيال الذى ذكره أبو تمام ، ولكنه خال من كل كلفة أو تعمل ظاهر . ذلك لان ابن خفاجة كان يشعر من الجمال بما لم يكن يشعر به أبو تمام . ويكفى أن يتكلم الانسان عن شعور ليمتاز فى كلامه ويلمس القلوب بعباراته

ويظهر من عبارات ابن خفاجة انه كان متمكنا من صناعته، عارفا بها، سائراً على منوال واحد فيها ، فى نظمه ونثره . وليس نثره غير شعر منثور ، ولا شعره غير نثر منظوم . فان رسائله القليلة التى عثرنا عليها ، هى من قبيل النثر السهل المتكلف ، سهل فى ألفاظه وفهم معانيه ، متكلف فى اتباع طرق علوم البيان . وهو مع ذلك رشيق الاسلوب . ولقد غير من نثره عبث الطبيعة وجمالها بعقله، وامتلاكهما قوة الخيال منه.

كتب رسالة يصف فيها منتزها وكأنما قلمه ريشة مصور ماهر ، تكاد ترى ذلك رأى العين وكأنك تجول فى أنحائه ، فترى كل ركن من أركانه ، وكل ناحية من أنحائه ، وكل زهرة ووردة ، وكل شجرة وغصن وكأنما يلمسك نسيمها العليل ، وتجرى أمامك الجداول والانهار . ذلك الى أسلوبه الخاص المسجوع وكأنما هو مرسل . وتجد الجملة الطويلة المسجوعة ، على حين انك تجد كلمة واحدة شطر سجعة أو سجعة كاملة قال « ... ذهبت فى لمّة من الاخوان نستبق الى الراحة ركضا ، ونطوى التفرج أرضا ، فلا ندفع الا الى غدير نمير قد استدارت منه فى كل قرارة سماء . سحائبها غمّاء ، وانساب ، فى كل تلعة حُباب ، جلده حَباب ، فترددنا بتلك الاباطح نتهادى تهادى

أغصانها ، وتتضاحك تضاحك أقحوانها ، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم تراسل مشى ، على بساط وشى . فاذا مرَّ بغدير نسجه درعا ، واحكمه صنعا . وان عثر بجدول شطب منه نصلا ، وأخلصه صقلا . فلا ترى الا بطاحا ، مملوءة سلاحا ، كأنما انهزمت هنالك كتائب فألقت بما لبسته من درع مصقول ، وسيف مسلول ، ..... فاحتللنا قبة خضراء ممدودة أشطان الاغصان سندسية رواق الاوراق . وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل ، ونشتمل عليه برداء نسيم عليل ، ونجيل النظر فى نهر صقيل ، صافى لجين الماء ، كأنه مجرة سماء . مؤتلق جوهر الحباب ، كأن من ثغور الاحباب . وقد حضرنا مُسمع يجرى مع النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهواها ، ويغنى لها مقترحها ومناها ، فصيح لسان النقر ، يشفى من الوقر ، كأنه كاتب حاسب تمشق يمناه ، وتعقد يسراه ، يحرك حين يشدو ساكنات ، وتبعث الطبائع للسكون . »

أما اذا خرج عن هذا النوع الوصفى الخيالى الفنى فقد يضيق الطريق فى وجهه ، وقد يثقل كلامه ويتكلف فى عبارته . كما فى رسالة يعاتب فيها .[١]

---

١ قالوا كانت بين أبى اسحاق وبعض اخوانه مقاطعة فاتفق ان ولى ذلك الصديق عملا فخاطبه أبو اسحق برقعة منها : « أطال الله بقاء سيدى النبيهة أوصافه ، النزيهة عن الاستثناء المرفوعة أمارته الكريمة بالابتداء ، ما انحذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت واو يغزو لموضع الضم كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة ، ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة . وأنا أستنهض طولك الى تجديد عهدك بمطالعة الف الوصل وتعدية فعل الفصل . والى عدولك عن باب الف القطع الى باب الوصل والجمع ، حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت ، ويدخل الانتقال حال الصمت . فلا تتخيل أعزك الله ان رسم أخائك عندى ..... قد درس عفاء ، ولان صدرى دارمية أمسى من ودك خلاء . وانما أنا فعل اذا ثنى ، ظهر من ضمير وده ما بطن ، وبدا منه ما كمن . وهيئا أعزك الله ان فعل وزارتك حاضر لا يلحق رفعه تغيير . وان فعل

وكان ابن خفاجة كثير النظر والتأمل فى المشاهدات ، ولا سيما المناظر الطبيعية ، متأثراً بالمنظورات ، يحرك دقيق نظره . للالوان وتناسق سلطان عظيم عليه ، وكل معلوماته جاءته من طريق النظر الى الاشياء ، فكان يرى ويلاحظ ويعرف كيف يرى وكيف يلاحظ . ولم يكن له الا أن يلبس هذه المنظورات عبارات وألفاظ بليغة فصيحة . واذ كان بطبيعته فنيا كان اختياره للألفاظ والجمل حسنا جيداً ، كما يختار المصور الماهر الالوان الجميلة اللازمة له . لذلك ، كان أسلوبه جميلا ، وعباراته سهلة ، وكلامه سائغاً للنفس ، بعيداً عن كل تعقيد أو تركيب ركيك ، أو غموض فى اللفظ أو المعنى . ويكاد يكون ديوان شعره من أوله الى آخره على نسق واحد فى المتانة وحسن العبارة ، وكله من نوع واحد من حيث الصور العامة . ولكن تكرار المعانى لا يكاد يجد له القارئ أثراً لبراعة الشاعر واختياره المعانى التى كلما مرت بالنفس أو بالسمع تجدد أثرها بتجديد ألفاظها ، وتتغير آثارها بتغير تراكيبها .

واقد يصف فيخيل اليك انك تنظر فى لوحة مصور ، أو كأن كل معنى فى كلامه « كائن حى » يتحرك أمامك . قال يصف طيفا ألم به فى الليل الطويل ،

سيفك ماض مابه للعوامل تأثير . وأنت بمجدك جماع أبواب الظرف . تأخذ نفسك العلية بمطالعة باب الصرف . ودرس حرف العطف . وتدخل لام التبرئة على ما حدث من عتبك . وتوجب بعد النفى ما سلف من عتبك . وتدع الف الألفة أن تكون بعد من حروف اللين . وترفع بالاضافة بيننا وجود التنوين . وتسوم ساكن الود أن يتحرك . ومعتل الاخاء أن يصح . وكتابى هذا حرف صلة فلا تحذفه حتى تعود الحال الاولى صفة . وتصير هذه النكرة معرفة . فأنت أعزك الله مصدر فعل السرور والنبل ° ومنك اشتقاق اسم السودد والفضل ° وانك وان تأخر العصر بك كالفاعل وقع مؤخرا . وعدوك وان تكبر كالكميت لم يقع الا مصغرا . وللايام علل تبسط وتقبض ° وعوامل ترفع وتخفض . فلادخل عروضك قبض . ولا عاقب رويك خفض . ولا زلت مرتبطا بالفضل شرطك وجزاؤك . جاريا على الرفع سروك الكريم وسناؤك ° حتى تخفض الفعل . وتبنى على الكسر قبل ° ان شاء الله » راجع نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٢

وأخذ خياله يتصور ما يمكن أن يكون فى هذا الموقف من وصف ملاقاته لحبيبه ، والتمتع به فى حضرته . والليل يحيط بهما وهو على وشك الانصراف ، وأخذ يشبه محبوبه بأنواع الرياحين ، وهو تشبيه سهل الادراك صعب التركيب. وليس هذا الكلام فى طاقة كل شاعر ، ولا امتلاك البيان بمثل هذا فى طوع كل فتى تكلم فى الليل ثم فى الطيف ووصفه بأرق ما يصف به حبيب حبيبه ، وأحسن ما ينال عاشق من عشيقه، وقد دام ذلك الى طلوع الفجر ، وعيون الليل تتجسس أخبارهم ، وضوء الصبح يرقبهم :

ورداء ليل بات فيه معانقى ... طيف ألم لظبية الوعساء
فجمعت بين رُضابه وشرابه ... وشربت من ريق ومن صهباء
ولثمت فى ظلماء ليلة وفرة ... شفقا هناك لوجنة حمراء
والليل مُشْمَطّ الذوائب كَبْرَةً ... خَرِفٌ يدب على عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه ... ويجر من طرب فضول رداء
تندى بفيه اقحوانة أجرع ... قد غازلتها الشمس غب سماء
ويميس فى أثوابه ريحانة ... كرعت على ظمأ بجدول ماء
نفاحة الانفاس الا انها ... حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناق حسبها ... فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء غمامة ... عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنورة ... أغرى بها بنفسج الظلماء

ولقد يصف الليل والسير فيه وظلمته الحالكه المنبعثة من كل ركن من أركان الفضاء . وما قد توحيه الى النفس من الخوف والرهبة . وما يلاقيه السارى من حيوان كاسر . وكأنما يظن القارئ نفسه فى جوف الفلاة ومخاطر الليل . كل ذلك بتشبيهات جميلة مختارة . كما قال :

ومفازة لا نجم في ظلمائها ... يسري ولا فلك بها دوار
تتلهب الشعرى بها وكأنها ... في كف زنجي الدجى دينار
ترمي به الغيطان فيها والربى ... دولا كما يتموج التيار
قد لفني فيها الظلام وطاف بي ... ذئب يلم مع الدجى زوار
طرّاق سادات الديار مساور ... ختال أبناء السرى غدار
يسري وقد نضج الندى وجه الصبا ... في فروة قد مسها اقشعرار
فعشوت في ظلماء لم تقدح بها ... الا لمقلته وبأسي نار
ورفلت في خلع عليّ من الدجى ... عقدت لها من أنجم أزرار
والليل يقصر خطوه ولربما ... طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق ... فيها ومن خط الهلال عذار

وكما قال:

وليل كما مد الغراب جناحه ... وسال على وجه السجل مداد
بهمن وميض البرق والليل فحمة ... شرار ترامى والغمام زناد
سريت به أحييه لا حية السرى ... تموت ولا ميت الصباح يعاد
يقلب مني العزم انسان مقلة ... لها الأفق جفن والظلام سواد
بخرق لقلب البرق خفقة روعة ... به ولجفن النجم فيه سهاد
سحيق ولا غير الرياح ركائب ... هناك ولا غير الغمام مزاد
كأني وأحشاء البلاد تجنني ... سريرة حب والظلام فؤاد
أجوب جيوب البيد والصبح صارم ... له الليل غمد والمجر نجاد
وفي مصطلى الآفاق جمر كواكب ... علاها من الفجر المطل رماد

ووصف نارا هبت عليها ريح فأضرمتها وكأنما يتغازلان . أو كأن النار

والريح فى موقف طرب يتمايلان من نشوته . أو كأن الريح عاشق متيم يلثم خد اللهب الخجل . أوكأن فى موقد النار ماء عليه من نجوم حبب . فقال

لاعب تلك الريح ذاك اللهب ... فعاد عين الجد ذاك اللعب
وبات فى مسرى الصبا يتبعه ... فهولها مضطرم مضطرب
ساهرته أحسبه منتشيا ... يهز عطفيه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لمادرى ... ألهب منقد أم ذهب
تلثم منه الريح خدا خجلا ... حيث الشرار أعين ترتقب
فى موقد قد رقرق الصبح به ... ماء عليه من نجوم حبب
منقسم بين رماد أزرق ... وبين جمر خلفه يلتهب
كأنما خرت سماء فوقه ... وانكدرت ليلا عليه شهب

ووصف ساقيا جميلا ، فوصف الخمر أيضاً ومجلسه ، وكأنما السرور يسيل بين ألفاظه ، والنعيم والسعادة يتمثلان فى كلامه. فقال:

وأغيد فى صدر الكلام لحسنه ... حلىّ وفى صدر القصيد نسيب
من الهيف أما ردفه فمنعم ... خصيب وأما خصره فجديب
يرف بروض الحسن من نوروجهه ... وقامته نوارة وقضيب
جلاها وقد غنى الحمام عشية ... عجوزا عليها للحباب مشيب
وجاء بها حمراء أما زجاجها ... فنور وأما موجها فكثيب
تجافت بها عنا الحوادث برهة ... وقد ساعدتنا قهوة وحبيب
وغازلنا جفن هناك كنرجس ... ومبتسم للاقحوان شنيب
فلله ذيل للتصابى سحبته ... وعيش باطراف الشباب رطيب

وكل شيء يراه كان يوقظ خياله ، وينبه من ادراكه ، ويدفعه الى ابتكار المعانى الجميلة . فقد رأى رجلا أسود أحدب يسقى خمراً فقال فى ذلك :

رب ابن ليل سقانا والشمس تطلع غره
فظل يسود لونا والكأس تسطع حمره
كأنه كيس فحم قد أوقدت فيه جمره
وللمدام مدير يشب جمرة خمره
تضاحكت عن حباب يقبل الماء ثغره
فظلت آخذ ياقو تة واصرف دره
حتى تثنيت غصنا واصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف به من السقم فتره
يجول للغيم كحل فيه وللقطر عبره

والهد يفكر فى شعره فيأتى بافكار جميلة ، وملاحظات جميلة ، ويخرج من معنى الى آخر . وقد تكون المعانى معروفة وجديدة معا ، لأنه يبدع ويبتكر فى التعبير . كقوله :

وليل اذا ماقلت قد باد فانقضى تكشف عن وعد من الظن كاذب
سحبت الدياجى فيه سود ذوائب لاعتنق الآمال بيض ترائب
فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس تطلع وضاح المضاحك قاطب
رأيت به قطعا من الفجر أغبشا تأمل عن نجم توقد ثاقب
وأرعن طماح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالى مفكر فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت اليه وهو أخرس صامت فحدثنى ليل السرى بالعجائب
وقال الا كم كنت ملجأ قاتل وموطن أواه تبتل تائب

وكم مر بى من مدلج ومأوب ... وقال بظلى من مطىّ وراكب
ولاطم من نكب الرياح معاطفى ... وزاحم من خضر البحار غواربى
فما كان الا ان طوتهم يد الردى ... وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وكما فى قوله فى المشيب .

أرقت على الصبا الطلوع نجم ... أسميه مسامحة مشيبا
كفانى رزء نفس ان تبدى ... وأعظم منه رزاء أن يغيبا
ولولا أن يشق على الغوانى ... للاقيت الفتاة به خضيبا
فلم أعدم هناك به شفيعا ... الى أمل ولم أبرح حبيبا
غريبة شيب فود ان تراخت ... حياتى آل اسوده غريبا
شنئت بمجتلاها النور حتى ... شنئت بمجتلى النور القضيبا
وعفت كراهة للشئ شيئا ... يكون له شبيها أو نسيباً
واية شيبة الا نذير ... وهل طرب وقد مثلت خطيباً

ويمدح فلا ينسى جمال الكون ، وفى كل مدحه يميل الى أن يكون جميلا فى كلامه وأوصافه ، ولعله لا يقصد الى ذلك ، وانما هذه هى طبيعته ونوع ادراكه . قال

لقد ضحك الصباح بمجتلاه ... وراء الليل عن ثغر شنيب
وظاهرنى بمستترنى حسام ... أنست به ونعم أخو الغريب
أشيم به سنا برق يمان ... يخفرنى الى المرعى الخصيب
الى جذلان وضاح المحيا ... سليم القلب والصدر الرحيب
الى يقظان وقاد العوالى ... مريش السعى بالرأى المصيب
يساور منه طورا ليث غاب ... ويمسح تارة عطفى أديب
اذا استمطرت منه غمام رحمى ... أو استنصرت فى يوم عصيب

ولقد يجمع كثيراً من الصور والألوان فى أبيات قليلة وهو يبدع التصوير ويسيل كلامه رقة . كقوله :

وصقيل أفرند الشباب بطرفه ... سقم وللعضب الحسام ذباب
يمشى الهوينا نخوة ولربما ... أطرته طورا نشوة وشباب
شتى المحاسن للوضاءة ربطة ... أبدا عليه وللحياء نقاب
وبعطفيه للشبيبة منهل ... قدشف عنه من القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأنما ... أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حبابة ... ويموج من ردف ألف عباب

وكل شعر ابن خفاجة من الوجدانيات المملوءة بالصور والخيالات والاوصاف الدقيقة ، وأكثره خال من الأفكار العامة النفسية والفلسفية والاجتماعية ، فقراءته أشبه بالنظر الى الصور الجميلة للتمتع برؤيتها والتسلى ببهجتها .

ابن سهل

هو ابراهيم بن سهل الاسرائيلى [1] الأشبيلى الشاعر المشهور من أهل القرن السابع الهجرى. مات سنة ٦٤٩ ه بعد أن عاش أربعين عاماً . قالوا انه مات غريقاً مع أحد الولاة .وقد تعلم الأدب واشتغل به على أكابر العلماء، ونبغ فى الشعر حتى قالوا عنه انه شاعر أشبيلية ووشاحها. وظهر نبوغه فى الشعر وهو شاب، وشهد له بذلك كبار الشعراء .[2] وعلى الرغم من أن العصر الذى عاش فيه ابن سهل كان من أواخر عصور العرب فى الأندلس ، فان الشعر كان لا يزال على حاله من الرقى وحب الشعراء وتمجيدهم . بل كانت هذه الايام الأخيرة من أيام عز اللغة ونموها ، فقد كثر الافتنان فى أنواع الشعر من موشحات وغيرها . بل كانت لا تزال البلاد عامرة بالعلماء من كل نوع . ذلك لأن سقوط دولة العرب لم يسبقه انحطاط فى مدنيتهم ، أو تقهقر فى حضارتهم ، بل سقطت الدولة وهى فى عزها وقوة نشاط عقول أبنائها. لان ذلك لم يكن من ضعف فيها أو شيخوخة أدركتها ، ولكن

---

١ عنى أصحاب التراجم بعقيدته ورووا أنه أسلم فى آخر أيامه ، وبحثوا فى صحة اسلامه ورماه بعضهم بعدم الاخلاص ، وقالوا انه كان يتظاهر بالاسلام ، حتى قالوا ان تمكن اليهودية من نفسه كان له أثر فى شعره وقالوا فى ذلك « سئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة نظم ابن سهل فقال لأنه اجتمع فيه ذلان ذل العشق وذل اليهودية » وذلك لاعجابهم بنظمه وقالوا فيه لما بلغهم غرقه . عاد الدر الى وطنه . ورووا عنه فى صحة اسلامه قوله .

تسليت عن موسى بحب محمد ... هديت ولولا الله ما كنت أهتدى
وما عن قلى قد كان ذاك وانما ... شريعة موسى عطلت بمحمد

٢ راجع حديثه مع الهيثمى فى فوات الوفيات ج ١ ص ٣٠

عوامل الحقد دبت فى نفوس أهلها فكاد بعضهم لبعض ، حتى خرجت الدولة من يدهم وهم فى عز جاههم . وربما كان سقوط الدولة لم يسبقه أى عامل من عوامل التأخر العقلى . لذلك كان عصر بنى هود الذين كان من شعرائهم ابن سهل وعصر بنى الأحمر ، وحتى عصر برابرة أفريقية غاصة بالعلماء والادباء والشعراء ، وكان كلما تقدم الزمن بالدولة ظهرت فيه ثمار العلوم والعقول ، لانها كانت دائماً نتيجة الجهود السابقة . وارق شعر الاندلس ما جاء بعد القرن الرابع أى بعد زوال دولة بنى أمية ، التى كان عصرها أزهى عصور الحضارة هناك . لذلك يمكن القول بان اللغة العربية فى جملة سيرها لم يدركها انحطاط محسوس فى أثناء القرون الثمانية التى تخطتها فى الأندلس ، سوى ما حصل من المبالغة فى طريقة السجع النثرية. ويمكن أن نقول ان ابن سهل وهو من شعراء القرن السابع ، يشبه غيره من شعراء القرن الثانى والثالث ، وان سير اللغة والأدب فى الأيام الأخيرة مثله فى الأيام الاولى ، بدليل كثرة الشعراء والكتاب المجيدين الذين ظهروا فى تلك الأيام ، ولاننا لا نجد شيئاً من تقهقر اللغة فى آخر الدولة .

ولو اننا أردنا أن نتكلم على ابن سهل من حيث تربيته العقلية ، لوجدناه كغيره من الشعراء الذين تهذبت نفوسهم وعقولهم بجهود العقول التى أثمرت قبلهم ، والاطلاع على شعر الشعراء وكتابة الأدباء . وربما نزح آباؤه الى الأندلس منذ زمن بعيد ، ولكنه على كل حال غير عربى الأصل ، نبغ فى بلاغة العرب وشعرهم وتعلم العربية وبرع فيها . وليس شعر ابن سهل الا نتيجة تربية عقلية عربية واسعة واشتغال كبير بلغة العرب ، مما يدل على اندماج غير العرب فيهم والعناية بحفظ لغتهم كما هو معروف فى التاريخ من اشتغال المقهور بلغة القاهر أو تقليد المحكوم الحاكم فى لغته وعلومه ومدنيته

أما شعره فيكاد يكون كله وجدانيا صرفا ولا تكاد تجد له فى غير الغزل

الا القليل . فهو من الشعراء الذين كانوا يستسلمون الى الاهواء فتقودهم، والى القلوب والخيالات فترشدهم الى الكلام وطرقه. لذلك كان شعره جميلا، ومعانيه رائعة شائقة سائغة للنفس ، مع رشاقة فى اللفظ ومتانة فى الاسلوب ، ودقة فى التعبير . ذلك لأنه أمعن فى هذا الكلام الغزلى حتى أتقنه وبرع فى عباراته وكشف مخبآته . وكأنه لم يترك شيئاً يجول برأس العاشق أو تتحدث بها نفسه الا ذكره أو وجده فى نفسه فتكلم عليه فى شعره . وقد خط له بهذا طريقا سلكه ولم يخرج عنه الى طريق آخر . وكأن آراءه فى العشق والغزل هى كل ما يعرف وكل ما لديه من طرق التفكير وأساليبها ، لانه لم يخرج مطلقا عن هذه الدائرة حتى أتى على آخرها مرات وابتدأها من أولها مرات . ومثله فى ذلك مثل من عرف حادثة واحدة من الحوادث فكتبها أولا من أولها الى آخرها، ثم رتبها ترتيباً آخر وكتبها بحيث جعل الاول آخرا والآخر أولا ، ثم كتبها مرة ثالثة بحيث ابتدأها من الوسط وهكذا . فعدم خروجه عن دائرة الغزل ربما يدل على قصور خياله، لان الشاعر الكبير الخيال يرى الف شىء، ويفكر فيما حوله من الموجودات ويعمل على تصويرها وابرازها بشكل جميل . والانسان يرى غير حبيبه ويشعر بغير الحب ، اذ ليس ذلك كل ما فى الحياة اللهم الا أن يكون شاعراً متيما مجنونا بحبيبته، غارقا فى بحار عشقه لا يرى ولا يعقل غير ذلك . وليست هذه حال ابن سهل لان جنون الحب غير ظاهر فى شعره، فانه على الرغم من اقتصاره على تغزله بحبيبه موسى تجده فى كلامه ساكنا عاقلا ، ومتعملا للكلام أحيانا . والظاهر ان موسى حبيبه رمز على عشقه ان كان عاشقا عشقا صحيحاً، أو ضرب من ضروب الفكاهة والظرف، لانه كان يهوديا فأراد أن يذكر اسم موسى فى شعره ويرمز به عن عشقه، أو لعله اتخذ موسى هذا داعيا من دواعى الشعر فأخذ يتغنى باسمه

أما هذا الاكثار من الغزل والضرب على نغمة واحدة وعدم الخروج عن

هذه الدائرة، فلا يدل الا على قصور باع الشاعر وضيق الخيال لديه كما قلنا ، وانه ليس شاعراً واسع التصور والخيال

لهذا يكفى لمعرفة شعر ابن سهل أن تقرأ له قصيدة واحـدة ، فان كل قصائده تـكاد تـكون كلها متساوية فى المعنى والجودة والأسلوب . وربما ظهرت قيمته فى شعره على أثر قراءة قصيدة أو قصيدتين أو ثلاث ، وأعجب الانسان باسلوبه وبيانه ، فاذا أكثر من قراءة شعره انطفأ لهيب هذا الاعجاب شيئاً فشيئاً ، ثم أحس القارىء انه شاعر كـكل الشعراء . وسبب ذلك تكرار المعنى الواحد بأسلوب واحد

ولـكنه مع هذا كله شاعر مجيد فى نوعه، يتغزل فيذكر فى غزله كثيراً من معانى العشق المختلفة ، فيصف حبيبه بالجمال والـكمال ، ويصف ألمه ويشكو ويلتذ منه ، ويبين كامن عواطفه وما هو فى نفسه ، ويمعن فى ذلك حتى يأتى بشىء من المعانى المبتكرة والخيالات التى له . كقوله :

واني لثوب السقم أجدر لابس ... وموسى لثوب الحسن أملح مرتدى
تأمل لظى شوقى وموسى يشبها ... تجد خير نار عندها خير موقد
دعوه يذب نفسى ويهجر ويجتهد ... تروا كيف يعتز الجمال ويعتدى
اذا مارنا شزرا فمن لحظ أحور ... وان يلو اعراضاً فصفحة أغيد
وعـذب بالى نعم الله باله ... وسهـدنى لاذاق بلوى التسهد
تطلع واللاحى يلوم فراعنى ... وكنت وقد أعذرت يُسقط فى يدى
وناديت لا اذ قال تهوى وانما ... رمانى فكانت لا افتتاح التشهد
أيا طيب سكر الحب لولا جنونه ... محا لذة النشوان سكر المعربد
شكوت مجازاً للطبيب وانمـا ... طبيبى سقام من لواحظ مبعدى

فقال على التأنيس : طبك حاضر   فقلت نعم لو أنه بعض عودى
وقال شكا سوء المزاج وانما   به سوء بخت من هوى غير مسعد
بكيت فقال الحسن هزءا أتشترى   بماء جفون ماء ثغر منضد

وقد يبث شجوه وهواه بعبارات وجدانية صرفة ، ويصف حبيبه بصفات جميلة ، ويشبهه بالزهر ، ويقارن بين لحظه فى السقم وجسمه فى السقم ، ويتذلل فى السؤال ويتمنى الموت ، لعل حبيبه يزور قبره . وكأنما يريد أن يتسلى بهذا الكلام أو يفخر بهذه الصناعة ، أو يثبت لنفسه شيئاً من البراعة فى قول الشعر ، لانه يشبه فى شعره رجلا متصنعاً لا عاشقاً مخلصاً . حيث يقول :

حكي لحظه فى السقم جسمى واغتدى   لنا ثالثاً فى ذاك ميثاق عهده
وأركبنى طرف الهوى غنج طرفه   وأشرقنى بالعذب اشراف خده
وأغرى فؤادى بالاسى روض آسه   وأوردنى ماء الردى غض ورده
يعارض قلبى بالخفوق وشاحه   ويحكي امتداداً زفرتى ليل صده
وما المسك خال من هوى خاله وان   غدا الند منه مستهاما بنده

وقد يصور يأسه بأشد ما يكون ، ولكن بأرق اسلوب وأسهل عبارة ، وكأنه كلام فطرى لا خيال شعري . كما فى قوله :

تدنيك زور الامانى   منى وتنأى طلابا
كأننى حين أبغى   رضاك أبغى الشبابا
وأشتهى منك ذنباً   أبنى عليه العتابا
حتى اذا كان ذنب   فتحت للعذر بابا
ظمئت منك لوعد   فكان وردى السرابا
لاخاب سؤلك أما   سؤلى لديك فخابا

ولقد يرق فى أسلوبه حتى يخيل اليك أن الكلام نثر لا شعر ، وأنه ليس فيه

أدنى كلفة ، وكأنما يغترف الكلام اغترافا . وهو مع ذلك يجيء بالتشبيه الجميل والمعنى الرقيق . كقوله:

سل فى الظلام أخاك البدر عن سهرى ... تدرى النجوم كما تدرى الورى خبرى
أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من ... دمعى وانشق ريا ذكرك العطر
حتى أخيل أنى شارب ثمل ... بين الرياض وبين الكأس والوتر
من لى به اختلفت فيه الملاحة اذ ... أومت الى غيره إيماء مختصر
معطل فالحلى منه محلاة ... يغنى الدراري عن التقليد بالدرر
بخده لفؤادى نسبة عجب ... كلاهما أبدا يدمى من النظر
وخاله نقطة من غنج مقلته ... أتى بها الحسن من آياته الكبر
جاءت من العين نحو الخد زائرة ... وراقها الورد فاستغنت عن الصدَر
بعض المحاسن يهوى بعضها طربا ... تأملوا كيف هام الغنج بالحور

وربما وصف حبيبه بأوصاف الرياض والبساتين ، فتخاله زهرة يانعة غضة ، أو غصناً يتحرك ، أو زهرة تتألق . كقوله:

من لى بأن يدنو بعيد مزاره ... ظبى طلوع الفجر من أزراره
كالغصن فى حركاته وقوامه ... كالظبى فى لحظاته ونفاره
فى الروض منه محاسن ومشابه ... فى آسه وبهاره وعراره
فعراره من لحظه وبهاره ... من خده والآس نبت عذاره
وعلقته وسنان يلعب بالنهى ... كتلاعب الساقى بكأس عقاره

ثم يتكلم عن ذله واعراض حبيبه عنه، وهو يتمنى قربه منه ويصف ما يصيبه من الآلام وما له من الشغف به ، ويعجب من أمره فى ذلك اذ يقول :

ياحسنه لو كان يرحم صبه ... وجماله لو كان من زواره
الف التجنى والبعاد شريعة ... فالنجم أقرب من دنو مزاره

أومى الىَّ بلحظه فتناثرت   خيلانه فى الخد من أشفاره
لما أراق دم المشوق تعمداً   اسود نقط الخال من أوزاره
واذا أقول عسى وليت وربما   فقال لا للصب من أخباره
فالخد يغرق فى معين دموعه   والقلب يصلى فى جحيم اواره
عجباً لضد كيف يألف ضده   هـذا بادمعه وذاك بناره

وقد يذكر اجتماع النقيضين بينه وبين حبيبه ، ويجول خياله فى ذلك جولانا يدعو الى الاعجاب كقوله :

ضللت بالبدر على نوره   والناس يستهدون بالبدر
أبطل موسى السحر فيما مضى   وجاء موسى اليوم بالسحر
مستحسن الاوصاف ممنوعها   فلا ترُمْهُ بسوى الفكر
كالماء فى السحب وكالدر فى الاصـ   ـداف والشادن فى القفر
لو أنه عنَّ لحورية   القته بين السحر والنحر
ولو دعا ميتاً بالفاظه   اذاً للباه من القبر
درٌّ ثناياه والفاظه   فلقبوه الكوكب الدرى
وعوذوه العين بل عوذوا   من عينه الناس هوى يسرى
كأنما الخال على خده   سواد قلبى فى لظى الجمر

ومن أحاديثه الغرامية قوله :

أشمس فى غلالة أرجوان   وبدر طالع أم غصن بان
وثغر ما أرى أم نظم در   ولحظ ما حوى أم صارمان
وخد فيـــه تفاح وورد   عليه من العقارب حارسان
ويعذلنى العواذل فيه جهلا   عزيز ما يقول العاذلان
فقالوا عبد موسى قلت كلا   فقالوا كيف ذا قلت اشترانى

فقالوا هل عليك بذا ظهير ... فقلت نعم علىّ وشاهدان
فقالوا هل رضيت تكون عبدا ... لقد عرضت نفسك للهوان
فقلت نعم أنا عبد ذليل ... لمن أهوى تخلونى وشانى
بنفسى من يفدينى بنفس ... جعلت فداه لما ان فدانى
سألتك حاجة أن تقضها لى ... فقال نعم قضيت وحاجتان
فقلت أشم من خديك وردا ... فقال وما تضم الوجنتان
فقلت أخاف صدغك أن يرانى ... وما أنا من لحاظك فى أمان
فقال أعاشق ويخاف رميا ... جبنت وما عهدتك بالجبان
كذاك الصب يعذر كل صب ... تحكم ما تشاء وفى ضمانى
فكان تحكما لا وزر فيه ... أيكتبه علىّ الكاتبان
أدير الراح ويحكما سلافا ... فان دارت علىّ فعاطيانى

وله كلام جميل فى الوصف يدل على انه كان يحب الجمال ويفهمه، وانه كان للرياض وما بها أثر فى نفسه، وان الالوان كانت تحرك اعجابه، وان مياه الأنهار وضوء الشمس والطيور والجو وما فيه هذبت من خياله. كقوله:

الارض قد لبست رداء أخضرا ... والطل ينثر فى رباها جوهرا
هاجت تخلت الزهر كافورا بها ... وحسبت فيها التبر مسكا أذفرا
وكأن سوسنها يصافح وردها ... ثغرا يقبل منه وردا أحمرا
والنهر ما بين الرياض تخاله ... سيفا تعلق فى نجاد أخضرا
وجرت بصفحتها الربا فحسبتها ... كفا ينمق فى الصحيفة أسطرا
وكأنه اذ لاح ناصع فضة ... جعلته كف الشمس تبرا أصفرا
والطير قد قامت به خطباؤه ... لم تتخذ الا الاراكة منبرا

وقال أيضا يصف :

أنظر الى لون الأصيل كأنه ... لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة ... قد خمشت خدا من الاشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فالفا ... خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محمرة ... كالكأس خرت من أنامل ساق

وقال فى الوصف أيضاً :

شفق وشته خضرة فى حمرة ... فكأنه خد الحبيب معرضا
والشمس تنظر نحوه مصفرة ... قدشمرت ذيل الوداع لتنهضا
كالصب حين رأى عذار حبيبه ... لما بدا فسلا وولى معرضا

وله فى وصف الخمر كلام رقيق يشبه كلامه فى الوصف . كقوله :

سل الكأس تزهو بين صبغ واشراق ... أذوب فيها الورد أم وجنة الساقى
كؤوس تحييها النفوس كأنها ... حديث تلاق فى مسامع عشاق
اذا قتلوها بالمزاج ليشربوا ... اعاشوا مناهم بين موت واخلاق
تثور كأن الماء يلسع صرفها ... فصوت المغنى مثل هينمة الراقى

وله موشحات سنذكرها فى بابها

هذه صوره أبن سهل ، وهى صورة شاعر وصاف يجيد الوصف، وغازل يجيد الغزل، ووجدانى لا يخرج عن دائرة وجدانه ، ومصور بارع لما يرى ويسمع قليل الآراء، قاصر الخيال ، لكنه مبدع فى الأسلوب، متفنن فى الكلام ، لا يشعر الانسان بادنى ملل فى قراءة كلامه وهو فى كل ذلك خفيف الروح مطرب معجب. وكفى بذلك دليلا على جمال قوله ونصيبه فى الافتنان.

الفتح بن خاقان[1]

اذا تكلمنا عن الفتح بن خاقان فانما نتكلم عن كتبه التى ذكر فيها كثيراً من علماء الأندلس وأدبائهم ، وجمع فيها جملة صالحة من منظومهم ومنثورهم ، وشيئاً يسيراً من أخبارهم . وهى «قلائد العقيان» و«مطمح الأنفس» . وقد دل ابن خاقان فى كتبه على سعة اطلاعه ، وكثرة أدبه ، ومعرفته التامة برجال الأدب فى الأندلس، مما لم يكن متيسراً لغيره. حتى ان أكبر كتب الأدب فى الأندلس كثيراً ما تنقل عنه . فقد نقل عنه المقرى فى نفح الطيب وذكره فى أكثر من ستين موضعاً. ومع انه كان معاصراً لابن بسام صاحب الذخيرة فقد نقل عنه هذا فى كتابه. فكتبه من أمهات كتب الأدب فى الأندلس .

أما طريقته فى الجمع والتأليف ، فهى خالية من كل صبغة تاريخية علمية ، من

---

١ هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان القيسي الأشبيلى صاحب قلائد العقيان . نشأ فى الأندلس ودخل الى بلاد المغرب واتصل بملوكها وكتب لبنى تاشفين وألف كتابه «قلائد العقيان» لابى اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين وصدره باسمه . ثم حدث أن وشى به من وشى ونالت منه الاعداء . فأشار أمير المسلمين أبو الحسن على بن يوسف بن تاشفين بقتله فذبح بمدينة مراكش بالفندق سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . وقد كان مشهوراً بالخلاعة والمجون . حتى أخذوا عليه ذلك وعرف بما لايليق به . ولعل هذا من الأسباب التى جعلت ملوك البرابرة يحقدون عليه حتى قتلوه . وكان سواحا للآفاق ينتقل من مكان الى آخر . ولم يعرف عنه شىء كثير فى كتب التراجم . ولم نجد له ذكرا الا فى ابن خلكان ذكره فى نحو نصف صفحة . ولم يذكره المقرى فى نفح الطيب بغير الاقتباس من كلامه فى المطمح وغيره . على أن الفتح بن خاقان لايجحد ذكره بما له من الفضل ، وما أفاض به على الأدباء بكتبه قلائد العقيان ومطمح الانفس . ولا شك فى أن هذه الكتب من أنفع ما كتب عن الأندلس

حيث التحقيق والتدقيق فى الرواية والجمع. بل هى طريقة الرواية والحفظ لاغير. لان ما رواه كان معروفا ومشتتا فجمعهو فى كتابيه، كما أشار الى ذلك فى خطبة كتابه مطمح الأنفس[1]

نقل أخبار العلماء والادباء كما كان معروفا عنهم. وقد ينقل الخبر بدون أى تصرف فيه، سوى وضعه فى قالب معروف له. وانما يعنى بتحسين العبارة وتسجيعها، وجمع الألفاظ ورصفها، مما لا يقدر عليه كل انسان. فيترجم الكاتب أو الأديب، وهو فى أكثر ما يقول مادح لا غير، وكأنما هو ناقل للفضائل لا يرى غيرها. ولقد يذكر لك الرجل فلا تعرف فى أى سنة كان يعيش، ولا فى أى عصر كان معروفا. وربما ذكر معه أسماء لبعض الادباء أو العلماء، وربما لم يشر الى تاريخ ما للعالم أو الأديب على ماله من الشهرة. ولعله كان يعتمد على شهرته ويكتفى بها عن ذكر تاريخه كما فى كلامه على ابن حزم الظاهرى[2] وفى هذه الترجمة من التقصير شيء كثير. فانه لم يذكر ابن حزم الا بذكر كتبه بدون أى اشارة الى محتوياتها. ولم يذكر شيئاً عن تاريخ حياته، حتى يمكن أن يعرف معرفة تامة، أو معرفة صحيحة. وليس لهذه الترجمة شيء من القيمة العلمية، لانها لا تفيد شيئا عن ابن حزم. وهذا يدل على ان ابن خاقان لم يكن يعنى بما يكتب عناية رجل محقق، ولا عناية رجل يشعر بالواجب عليه، ذلك الواجب على كل مؤلف أو باحث من حيث الاطلاع والتنقيب عما يريد

---

١ قال: انه كان بالاندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام، ولقوا منه كل تحية وسلام. فشمموا البدائع وروقوها، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها، ثم هووا فى مهاوى المنايا. وانطووا بأيدى الرزايا. وبقيت مآثرهم غير مثبتة فى ديوان. ولا مجملة فى تصنيف أحد من الأعيان، تجتلى فيه العيون وتجتنى منه زهر الفنون. الى أن أراد الله اظهار اعجازها... فحلت من الوزير ابى العاص . . . وندبنى الى أن أجمعها فى كتاب ... فاحيت رغبة الخ

٢ أنظر المطمح صفحه ٥٥

أن يكتب. والظاهر انه كان يرمى الى الجمع فقط ، بل لم يكن يميل مطلقا الى النقد ولا الى أن يكون له رأى خاص

ومهما قيل من ان الناقل يجب أن يكون أمينا ، وليس عليه تَبِعَةُ شيء فى النقل ، فان النقل يحتاج الى تمحيص وفكر ثابت ، لتمييز الصحيح من غيره . والفكر النقدى يظهر أثره فى كل شئ . ولكن لم يظهر لصاحب قلائد العقيان أى أثر سوى الاسلوب . ليس لنا أن نلومه على أسلوب السجع الذى أكثره متكلف، لان هذه كانت حالة الكتابة هناك ، وهكذا كانوا يكتبون . ولكن الذى نأخذه على صاحب قلائد العقيان هو هذا الأسلوب الاجوف ، وهذه العبارات المنتفخة الفارغة من كل معنى ، وان احتوى على معنى من المعانى اختفى ذلك تحت ستار الألفاظ الطنانة ، وذهبت جِدَّة اللفظ بتذوق المعنى ، واشتغل القارئ بصورة الألفاظ عن العناية بما فيها من المعانى . فلقد يشير فى كلامه الى بعض الناس ، بما يدل على شيء من أخلاقهم ، ويفيد القارئ والباحث ، ولكن عنايته بالألفاظ، وتناسق السجع ، قد يكون حاجزا منيعا بين القارئ ومعانى المؤلف، كما فى ترجمة سعيد بن منذر البلوطى ، وهى من التراجم الوافية فى المطمح ومن نماذج كتاباته [1]

---

١ قال فيه آية حركة فى سكون ، وبركة لم تكن معدة ولا تكون ، وآية سماحة فى تحلم ، وجهامة ورع فى طى تبسم واذا جد تجرد واذا هزل نزل . وفى كلتا الحالتين لم ينزل للورع عن مرقب ، ولا اكتسب اثما ولا احتقب . ولى قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبد الرحمن وناهيك من عدل أظهر . ومن فضل اشتهر ، ومن جور قبض ، ومن حق رفع ، ومن باطل خفض . وكان مهيباً طيباً صارماً غير جبان ولا عاجز . . واستمر فى القضاء الى ان مات الناصر لدين الله ثم ولى ابنه الحكم ، فأقره وفى خلافته توفى بعد أن استعفى مراراً فما أعفى فلم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور . ولا عدت عليه فى حكومته ذلة . وكان غزير العلم كثير الأدب متكلما بالحق متديناً بالصدق . له كتب مؤلفة فى السنة والقرآن والورع والرد على أهل الأهواء والبدع . وكان بليغاً وشاعراً محسناً ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين عند ولاية المنذر بن محمد وتوفى يوم الخميس لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وثلثمائة . (مطمح صفحة ٣٧)

على ان ابن خاقان أجاد فى أساليب السجع اجادة قد تنقل الكلام المنثور الى مرتبة الشعر المتعمل ، فيستولى بأسلوبه هذا على القراء لبراعته فيه ، ولأثره الشخصى فى هذه الصناعة ، وقدرته على الاسترسال فى ذلك ، مع ما فيها من كثرة المترادفات .

على أن هذه الصناعة اللفظية كان لها أثر عظيم فى نفسه من حيث ادراك الجمال فى القول ، والبحث عن مواقعه . فكان يرتفع أحيانا بعباراته الى أن تدب فى النفس وتملأها اعجابا ، وتذكر القارئ باثر جمال الالوان والرياح والزهور ، كما فى خطبة قلائد العقيان

ولقد يتكلف فى غير حاجة سوى تمكن ملكة التكلف من نفسه فيهوش على القارئ ، كما فى ترجمة ابن عيشون . فان ترجمته لهذا الرجل لا يعرف منها شيء غير رحلته الى المشرق ، ولكن أين ومتى ؟ وكأنما كان يكتب لمن يعرف الحوادث مثله ، فقد قال فيه : « رجل حل المشيدات والبلاقع ، وحكي النسرين الطائر والواقع ، واستدر خِلفى البؤس والنعيم ، وقعد مقعد البائس والزعيم ، فآونة فى سماط ، وأخرى بين درانك وانماط ، ويوماً فى ناموس ، وآخر فى مجلس مأنوس . رحل الى المشرق فلم يحمد رحلته ، ولم يعلق بأمل نحلته ، فارتد على عقبه ، ورد من حبالة الفوت الى منتظره ومرتقبه ، ومع هذا فله تحقق فى الأدب ، وتدفق طبع اذا مدح أو نسب[1] »

هذا هو أسلوب الفتح فى التأليف والكتابة ، وهو على مافيه من الآثار

---

١ وقال أخبرنى أنه دخل مصر وهو سار فى ظلم البوس عار من كل لبوس ، قد خلا من النقد كيسه ، وتخلى عنه الا تقديره وتكايسه ، فنزل بأحد شوارعها لا يفترش الا نكده ، ولا يتوسد الا عضده ، وبات بليلة ابن عبدل تهب عليه صرصرة لا ينفح منها عنبر ، ولا مندل وانما كان من السحر . دخل عليه ابن الطوفان فأشفق لحاله ، وفرط امحاله وأعلمه أن الأفضل استدعاه ، ولو ارتاد جوده بقطعة يغنيه الا خصب مرعاه . فصنعها فى مدحه الخ (قلائد العقيان ص ٢٨٨)

النافعة لأدب الأندلس ، ومن صور اللغة العربية الدالة على أطورها فى النثر ، وعلى تمكن أساليب السجع من الكتاب فى تلك الأيام ، وعلى ما فيه من الجمال وبلاغة العبارة وعلى شيء من النظام العقلى لديهم ، لا يدل على شيء من قوة الفكر لدى الكتاب الأدباء ، بل على أن اللغة فى عز مجدها كانت غنية بألفاظها لا بمعانيها ، وأن العناية بالأساليب سرت من المشرق الى المغرب ، فملكت من الكتاب كل شيء . وقد دخل هذا الأسلوب فى الكتب العلمية والتاريخية ، كما هو معروف ، ودل كتاب العرب على قدرتهم في استعمال الأساليب المختلفة والألفاظ المختارة مما ليس عند أمة أخرى

على أن فضل الفتح بن خاقان لا يخفى ولا ينكر بما جمعه فى كتبه مما ليس عند غيره

لسان الدين بن الخطيب

هو من أكبر وجوه العلم والأدب في آخر عصور العرب في الأندلس ، بل من أشهر من عرف هناك . وهو أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب الغرناطي الأندلسي . تنقلت أسرته في كثير من بلاد الأندلس واستقر أبوه في غرناطه . وهناك ولد لسان الدين وعرف واشتهر في بلاد المغرب بابن الخطيب السلماني . نشأ من بيت علم وفضل ،وتربى على حب العلم ، وورث من أبيه كثيراً من ذلك . وكان معجبا به وبعلمه وأدبه وأخلاقه[1]

ولد لسان الدين بمدينة غرناطة سنة ٧١٣ هـ واتصل أبوه بملوك بني الأحمر وكان له شأن عظيم حين كانت غرناطة حافلة بالعلم وأهله من كل فن . فشب لسان الدين بين هؤلاء العلماء ، وانقطع الى أفاضلهم وأخذ عنهم العلوم والآداب، وكان من بين مشايخه الفلاسفة والأدباء والأطباء . تعلم الطب على أشهر علماء الأندلس وفلاسفتها في هذا العصر، وبرع فيه وألَّف فيه كتابا سماه «الأصول لحفظ الصحة في الفصول » عده هو نفسه من أحدث طراز في ذلك الفن فقال « العجب

---

١ فقد قال عنه كان رحمه الله تعالى زمر عزم ، ورجل أخاء وأزم تروق أنوار خلاله الباهرة ، وتضيء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة ، ذكاء يتوقد، وطلاقة يحسد نورها الفرقد ،وكانت له في الادب فريضة ، وفي النادرة العذبة منادم عريضة ، تكلمت يوما بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتاً من شعرى ، فتهلل وابتهج ، وما برح أذار تجل .

الطب والشعر والكتابة سماتنا في بني النجابة

هن ثلاث مبلغات مراتبا بعضها الحجابة

حتى مع تأليفى لهذا الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى الطب وعلى ذلك لا أقدر على مداواة داء الأرق الذى بى » ومهما يكن من المبالغة فى كلامه فانه يؤخذ منه انه كان من علماء هذا الفن . وقد ألف كتباً أخرى فى ذلك . فكانت معلوماته متوافرة فى الفلسفة والطب، وامتزج بالأدباء والفقهاء وأخذ عنهم علوم الدين من تفسير وحديث وفقه، وتعلم العلوم العربية جميعها فكان عالما وأديباً

هذه التربية العلمية الأدبية الممزوجة بميوله للعلوم والفنون وهبته نشاطا عقليا فكان من المؤلفين المشهورين، كثير الدرس والقراءة. ورسائله الأدبية ومقطوعاته الشعرية كثيرة جدا .حتى قالوا انه كان يؤلف كل هذه الكتب لأنه كان يأرق كثيراً

وقد اغترف من كل بحر قطرة ، وكتب فى كثير من الفنون المختلفة بين علمية وأدبية ، واطلع على أكثر ما كتب فى العلوم والفنون، ولاسيما كتب التاريخ وبحسبه بعض العلماء من المؤرخين الكبار. فكان عة له خزانة علوم وآداب. وكان عالما وفقيها وشاعراً وكاتبا، ولكنه لم يختص بفن ولم يتفوق فى شىء تفوقه فى الأدب ، حتى كان من أئمته . ورسائله كثيرة فى الجزء الثالث والرابع من نفح الطيب [1]

لذلك كانت الصبغة الأدبية عليه أظهر ، والكتابة والشعر الصق به من غيرها، فأجدر به أن يسمى أديبا لا عالما. ولذلك أيضا كتب فى كل نوع من أنواع الكتابة رسائل أدبية وسياسية وغيرها، وهو فى كل ذلك واسع الخيال سديد الرأى، حاد اللسان ، قادر على الاسترسال فيما يقول ، كثير الاطلاع على اللغة . فساعده هذا كله على الاطالة فيما يكتب ويفكر ، وكان يحب الاطناب بطبيعته

---

١ اكتفينا بالاشارة الى رسائل لسان الدين والى شعره لان ذلك كثير يدعو الى الحيرة فى الاختيار فعلى القارىء أن يرجع الى الجزء الثالث والرابع من نفح الطيب

فاندفع وراء ذلك ، وهو مثلوج الصدر ، يعرض عليه خياله وفكره المعانى والألفاظ ، فلا يكاد يقف قلمه الا بعد أن يملأ من الفكر الصغير صفحات كبيرة . وكان قدر الكتابة عنده فى الاكثار لا فى الاجادة ، أو ان الاجادة كانت لاتفارق الاطالةلديه . وهذا كان أسلوب الكتاب فى تلك الأيام.وكان يختار بجانب الاطالة السجع،فكانت كتاباته لا تخلو من مللين : ملل الاطالة وملل السجع . وربما كان أعظم عيب فى أسلوب ابن الخطيب تلك الاطالة المملة ، والسجع المتكلف.غيران ملل الاطالة أسوأ من تكلف السجع.لذلك كثيرا ما يخفى عيب السجع لاختيارالكاتب الألفاظ .وهذه الطريقة دليل على انحطاط أسلوب النثر ،لان طريقة السجع ليست طبيعية ، ولسان الدين كان من أكبر رجال هذه الصناعة ، وربما انفرد بالمبالغة فيها . ويكفى هذا الأسلوب مقتاً أنه لا يقدر على قراءته كل انسان ، وانه لا يعيش الا فى بطون الكتب ، ولا يصح أن يكون نموذجا من نماذج اللغة الا للاستدلال على سيرها فى أزمنة التاريخ

ولكن ذلك لا يدفعنا الى جحود ما فى هذه الرسائل من المعانى والافكار الصحيحة ، أو من الشعور بان الكاتب يميل الى موضوعات كثيرة اجتماعية لم يطرقها كثير من الكتاب ، ككلامه فى وصف المجالس والمحافل والمدن بالاوصاف الحقيقية ،والأسلوب القصصى الذى يسمونه بالمقامات

أما شعره فكثير أيضاً، وأكثره يدل على انه شعر رجل عالم من عشاق الشعر لا من رجاله الفنيين . وله قصائد طويلة تدل على سعة خياله ، أفضلها فى ذلك موشحته الشهيرة التى أبدع فيها[1] . وهى من أرق الشعر وأجمله .وقد طرق فى شعره كثيرا من الموضوعات المختلفةوالأساليب المتعددة ، فتجد الشعر الغزلى الرقيق ، والأسلوب الدقيق ، وتجد شعر الفقهاء ، وكلام الاتقياء، وأسلوب

١ راجع هذه الموشحة والكلام عليها فى باب الموشحات

العلماء ، وجفاف اللفظ والمعنى .على ان له كثيرا من القصائد الجميلة والمقطوعات الرقيقة .

أما حياته السياسية فقد اتصل بأحد ملوك بنى الاحمر السلطان أبى الحجاج يوسف فأخذه فى حاشيته ، وفى مقدمة كُتّابه . ثم جعله كاتبه الخاص وسلم اليه الوزارة وأمر الدولة وجعله سفيراً بينه وبين الملوك الآخرين . فكان اشتغاله بالسياسة من الأشياء التى فتحت عليه باب الكتابة فى كثير من الموضوعات الاجتماعية والسياسية، على حسب ما كان يعلمه وما كان معروفا فى ذلك الوقت. ولما مات أبو الحجاج خلفه ابنه محمد بن أبى الحجاج، فأقره على مكانه وأرسله الى ملوك افريقية ليستنجد بهم على أعدائه . وكانت الدولة فى ذلك الوقت فى اضطراب والناس بين مظلوم وظالم، وخارج على السلطان ومتملق له، وكل ذى نعمة محسود . فحسد لسان الدين كثير من معاصريه وسعوا فى الايقاع به . وكان قد خرج على محمد بن أبى الحجاج أخوه وتغلب عليه، فهرب ومعه ابن الخطيب ثم حوصر، وقبض على لسان الدين ، واستباح السلطان كل أموالهما. ثم شفع لهما سلطان المغرب وأتى بهما الى فاس وأكرمها .فجال لسان الدين فى تلك البلاد ، وانتقل الى أماكن كثيرة واستقر هناك .ولما رجع الملك الى محمد بن أبى الحجاج عاد الى الأندلس وكان استكتب أبو محمد هذا فى غيبة لسان الدين ابن زمرك ، أحد مشهورى الكتاب والعلماء ، ومن أكبر وأشهر تلاميذ لسان الدين. فتولى ابن زمرك ديوان الكتابة والتف حوله جماعة من الفقهاء والعلماء الذين كانوا يحقدون على لسان الدين، لانه ظهر عليهم وملك الدولة منهم . فأرادوا أن يتخلصوا منه ويأخذوا الأمر بيدهم . فاخذوا فى بث الدسائس وايغار السلطان عليه ، ولكن عند ما رجع لسان الدين الى الأندلس ارتفع شأنه ، وعرفه الناس فى غيبته أكثر من معرفتهم له فى حضرته .فحقد عليه تلميذه ابن زمرك ثانية، وأخذ عليه الفقهاء أشياء ينكرونها

وكانت العقول فى ذلك الوقت ميالة الى الانحطاط ، لان البرابرة بثوا أفكارهم السخيفة التى كانوا ينشرونها بجهلهم ، ونشروا كراهة العلوم الطبيعية والفلسفية. فأشاع ابن زمرك عن لسان الدين انه كافر مارق ، وانه جاء فى كتبه بكثير من المسائل التى لايبيحها الدين . فراجت هذه الوشايات عند السلطان وأثارت غضبه ولما علم لسان الدين بذلك ، وعرف انه لا بد أن يُنال منه ، عزم على الهرب الى افريقية بدعوى انه ذاهب فى أمور تتعلق بالمملكة . ولكن عند ما ذهب الى افريقية اتفق ملك المغرب على تسلمه لابن الأحمر ، فسجن فى فاس وأفتى الفقهاء بقتله ، ودسوا عليه أحد القواد فخنقه فى سجنه ودفن فى فاس ثم أخرجت جثته وأحرقت بالنارسنة ٧٧٦ ﻫ وهكذا انتهت حياة لسان الدين بن الخطيب بعد أن ملأ الجو علماً وفضلا وذاعت شهرته فى المشرق والمغرب حتى كان أشبه بالجاحظ فى تآليفه من حيث اطلاعه الواسع وفضله الجم

الموشحات [١]

بقى الشعر تابعاً لطريقة العرب فى أغراضه وأوزانه ، الى أن حدث فى العقول مادعاها الى الابتكار فى العلوم والفنون . وكان الشعر من أقرب الأشياء الى الألسنة ، وأكثرها انتشارا فى المجالس ، وأدعى الى الانتقال من غيره ، لكثرة قائليه وسامعيه والمتأثرين به ، واشتماله على كل مرافق الحياة . فتطلعت نفوس الفنيين من شعراء وأدباء الى الانتقال به من صبغته البدوية الى شكل حضرى أشبه بالبداوة فى الجمال ، وان يزجوا به فى مجتمعاتهم حتى يجاروا به القدماء فى إلهاماتهم الجميلة وفطرهم النقية ، وسذاجتهم الفنية . فلم يفلحوا كثيرا فى الخروج به عن أغراضه التى تكلم فيها القدماء ، مما هو ألصق بالصبغة الوجدانية منه بالصبغة الاجتماعية . ولكنهم زادوا فى وجدانياته مما استدعته الحضارة ، من التوسع فى الخمريات والعواطف من عشق وغيره ، ووصف المناظر الجميلة والحدائق النضرة ، وكل ما استلزمته حالتهم من آثار المدنية والعمران . ذلك من جهة أغراضه .

---

١ راجع فى الكلام على الموشحات مقدمة ابن خلدون والجزء الرابع من نفح الطيب طبع بولاق ص ٦٠٦ وما بعدها ودار الطراز لابن سناء الملك

Journal Asiatique. 1848. volume 2 page 248-251 et 3e. Serie volume 8 page 155

والباب الثانى والسبعين من كتاب « المستطرف » تأليف شهاب الدين احمد الأبشيهى . والجزء الاول من « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » تأليف المولى محمد المحبى من ص ١٠٨ الى ١١٠ وجاء فى كشف الظنون طبع بولاق جـ ١ ص ٣٦٧ « الدر المكنون فى سبع فنون » لمحمد بن احمد بن الياس الحنفى . رتب على سبعة أبواب فى فن الاشعار البديعة وفن الموشحات والمواليا وفن الكان وكان وفن القوما وفن الازجال . والخاتمة فيما قيل فى الحماق . أوله الحمد لله البديع فرغ فى رجب سنة ٩١٢ ولم نعثر على هذا الكتاب

أما من جهة أوزانه وصناعته ، فقد كانت الحال فيه أسهل . فابتكروا من الأوزان فى الشعر والصناعة مالم يبتكروه فى المعانى والأغراض . وتوسعوا فى ذلك حتى لقد يخيل الى المطلع على الشعر العربى القديم والحديث أن هذا انقلاب عظيم، وطور من الأطوار الحديثة التى تخطاها الشعر. ولكن ذلك أظهر ما يكون فى الأوزان والقوافى ،والقوانين التى وضعوها فى رقة الاسلوب ، وبعض الخيالات التى لم تكن معروفة . حتى أخذ الشعر العربى صبغة حديثة بما أدخل فيه من هذه الأنواع المختلفة الأوزان والتقاطيع ، الجارية على غير ما كان معروفاً فيه ، وخرجوا عن التقييد بنظام القوافى المعروف . قال ابن خلدون فى « فصل أشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد » : ولهم فن آخر كثير التداول فى نظمهم ، يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء ،يخالف آخرها الثلاثة فى رويه، ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت الى آخر القصيدة ، تشبيهاً بالمربع والمخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين الخ .

وقسم بعض المتأخرين الأنواع التى حدثت فى الشعر ،الى الشعر القريض والموشح والدوبيت والزجل والمواليات والكان وكان والقوما وغيرها وقالوا فى ذلك :

«أول من نظم « الموشح » المغاربة ،وهذبه القاضى الاجل هبة الله بن سناء الملك ، وتداوله الناس الى الآن . وسمى موشحاً لان خرجاته وأغصانه كالوشاح له . وسبب تقدمه على مابعده لاعرابه كالشعر . لكن يخالفه بكثرة أوزانه ، وتارة يوافق أوزان الشعر وتارة يخالفه . «والدوبيت» أول من اخترعه الفرس ونظموه بلغتهم ومعناه بيتان ، ويقال له الرباعى لأربعة مصاريعه. وقد اشتهر باعجام داله وهو تصحيف . وهو ثلاثة أقسام يكون بأربع قواف كالموالية ، وأعرج بثلاث قواف ، ومردوفا بأربع أيضاً ، وكله على وزن واحد . وتقدم على مابعده لاعرابه أيضاً . وأول من اخترع « الزجل » رجل اسمه راشد وقيل

أبو بكر قُزمان ١ وهو فى اللغة الصوت ، وسمى زجلا لأنه يلتذ به ويفهم مقاطيع أوزانه ولزوم قوافيه حتى يغنى به ويصوت . وهو خمسة أقسام ماتضمن الغزل والزهر والخمر وحكاية الحال ، يختص بالزجل ، وما تضمن الهزل والخلاعة ويقال له « بلَيق »وما تضمن الهجو والنكت ويقال له « حَماق » وما بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة فاسمه « مُزَيلج » وما تضمن الحكم والمواعظ فاسمه «المُكفِّر» بكسر الفاء المشددة . والأول أصعب هذه الخمسة . وقال مخترعه قزمان :« لقد جردته من الاعراب كما يجرد السيف من القراب » . وسبب تقدمه على مابعده كثرة أوزانه وصعوبة نظمه وقربه من الموشح فى أغصانه وخرجاته . وأول من اخترع « المواليا » أهل واسط وهو من بحر البسيط، اقتطعوا منه بيتين وقفوا شطر كل بيت بقافية، ونظموا فيه الغزل والمديح وسائر الصنائع على قاعدة القريض . وكان سهل التناول تعلمه عبيدهم والغلمان وصاروا يغنون به فى رؤوس النخل وعلى سقى المياه، ويقولون فى آخر كل صوت يامواليا ، اشارة الى ساداتهم ،فسمى بهذا الاسم . ولم يزل على هذا الاسلوب حتى استعمله البغداديون فلطفوه حتى عرف بهم دون مخترعيه ، ثم شاع . وسبب تقدمه على كل مابعده لأنه من بحر القريض بحيث ينظم معربا على قاعدته . وأما « الكان وكان » فله نظم واحد وقافية واحدة ، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الثانى ، ولا تكون قافيته الا مردوفة . وأول من اخترعه البغداديون ،وسبب تسميته بهذا الاسم انهم لم ينظموا فيه سوى الحكايات والخرافات . فكأن قائله يحكي ما كان ، الى أن ظهر لهم مثل الامام ابن الجوزى، والواعظ شمس الدين الكوفى وغيرهما من فضلاء بغداد فنظموا فيه المواعظ والحكم . وسبب تقدمه على مابعده لأنه ينظم بعض ألفاظه

١ . الصواب انه ابن قزمان وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان توفى سنة ٥٥٥ ﻫ له ديوان مخطوط فى عاصمة الروسيا يشتمل على أزجاله منه نسخة فتغرافية بدار الكتب المصرية وراجع فى الكلام عليه

Encyclopedie de l'Islam 2 4 livraison . P 423

معربة . وأما «القوما» فله وزنان، الأول مركب من أربعة أقفال، ثلاثة متوازية فى الوزن والقافية، والرابع أطول منها وزنا، وهو مهمل بغير قافية، والثانى من ثلاثة أقفال مختلفة الوزن متفقة القافية، يكون القفل الأول منها أقصر من الثانى، والثانى أقصر من الثالث . وأول من اخترعه البغداديون أيضاً فى الدولة العباسية برسم السحور فى رمضان . وسمى بهذا الاسم من قول المغنيين بعضهم لبعض «قوما لنسحر قوما» فغلب عليه هذا الاسم. ثم شاع ونظموا فيه الزهرى والخمرى والعتاب وسائر الأنواع . وأول من اخترعه أبو نقطة للخليفة الناصر، وكان يعجبه ويطرب له. وجعل لابى نقطة عليه وظيفة فى كل سنة . ولما توفى أبو نقطة كان له ولد صغير ماهر فى نظم القوما، فأراد أن يعرف الخليفة بموت والده ليجريه على مفروضه، فتعذر عليه ذلك الى رمضان. ثم جمع أتباع والده ووقف أول ليلة منه تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق، فأصغى الخليفة وطرب له . فلما أراد أن ينصرف قال له:

يا سيد السادات   لك بالكرم عادات

أنا ابن أبى نقطة   تعيش أبى قد مات

فأعجب الخليفة من هذا الاختصار، فأحضره وخلع عليه وجعل له ضعف ما كان لأبيه . والقوما والكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق وربما تكلف غيرهم نظمها. وكل بيت من القوما قائم بنفسه وأما تأخيره فلعدم اعرابه[1] .»

واشتهر من هذه الأنواع فى الأندلس ماهو معروف «بالموشحات»[2] وأصل

---

١ راجع خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٠٨"

٢ قالوا فى مخترع هذه الموشحات انه مقدم بن معافى القبريرى؟ من شعراء الأمير عبد الله ابن محمد المروانى وأخذ عنه عبدالله احمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد . هكذا فى مقدمة ابن خلدون . وجاء فى الذخيرة فى الكلام على الأديب ابى بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ ﻫ ... سلك الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه مرحباً وأهلا. وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منآدها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ، ولا

الكلمة من الوشاح، وهو عقد من لؤلؤ وجوهر منظومين مخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر، تتوشح المرأة به، والشبه بين الموشحات والوشاح ظاهر فى اختلاف الوزن والقافية فى الأبيات وجمعها فى كلام واحد كما سنرى.

وقد دعاهم الى ذلك حب الابتكار والميل الى الجمال والرفاهية حتى فى أوزان الشعر وطرقه. فزجوا بين الأوزان المختلفة والقوافى المتعددة فى قصيدة واحدة. وربما ألفوا بين وزن مخترع ووزن معروف. وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها قصيدة واحدة. وقد يلحنون كلامهم هذا ويغنون به، لما فيه من خفة الوزن ورقة اللفظ. وقد ذكر ذلك ابن خلدون فى مقدمته فقال: [1]

«وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح، ينظمونه أسماطا أسماطا، وأغصانا أغصانا، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عدد قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة. وأكثر ما ينتهى عندهم الى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت على أغصان، عددها بحسب الأغراض والمذاهب. وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل فى القصائد. ويتجاوزون فى ذلك الى الغاية، واستظرفه الناس وجملة الخاصة

أخذت الاعنة وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها فيما بلغنى محمد بن حمود العمرى الضرير وكان يضعها على أشطار الأشعار. غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة يأخذ اللفظ العامى والعجمى فيسميه المركز. ويضع عليها الموشحة دون تغيير فيها ولا أغصان وقيل ان ابن عبد ربه صاحب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات

ثم نشأ يوسف بن هرون الرمادى فكان أول من أكثر فيها من التضمين فى المراكز يضمن كل موقف يقف عليه فى المركز خاصة. فاستمر على ذلك شعراء عصره كمكرم ابن سعيد وابن أبى الحسن. ثم نشأ عبادة فأحدث التضفير وذلك انه اعتمد على مواضع الوقف فى الاغصان فيضمها كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف فى المركز

١ اخترنا نقل عبارة ابن خلدون فى الموشحات لأنها من أجمع ما قيل فيها وقد أخذناها هذا عن نفح الطيب عند كلامه على الموشحات

والكافة لسهولة تناوله، وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم ابن معافر الفريرى القبرى[1] من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المروانى، وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد. ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية . وقد ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك الطوائف .وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة. قالوا وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له حيث يقول

العود قد ترنم بأبدع تلحين وشقت المذانب رياض البساتين

وفى انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم عساك المامون مروع الكتائب يحيى بن ذى النون

ثم جاءت الحلبة التى كانت فى مدة الملثمين فظهرت لهم البدائع، وفرسان حلبتهم الاعمى التطيلى ثم يحيى بن بقى وللتطيلى من الموشحات المذهبة قوله

كيف السبيل الى صبرى وفى المعالم أشجان
والركب وسط الفلا بالخرد النواعم قد بانوا

---

١ قد اختلفوا فى هذا الاسم ففى مقدمة ابن خلدون الفريرى وفى الذخيرة محمد بن محمود أو حمود العمرى فوات الوفيات فى ترجمة عبادة ابن ماء السماء (ج ١ ص ٢٥٤) محمد بن محمود أو ابن حمود المقبرى الضرير وهو ناقل عن الذخيرة وفى نفح الطيب فى الكلام على الموشحات نقلا عن ابن خلدون مقدم ابن معافى القبرى وفى مقدمة ابن خلدون طبع باريس صفحة ٣٩٠ جزء ثالث مقدم بن معافرا ومعارف والقبيرى بدل الفريرى أو التبريزى وهو خلط يدل على تحريف هذا الاسم

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا فى مجلس باشبيلية ، وكان كل واحد منهم قد صنع موشحة وتأنق فيها، فتقدم الأعمى التطيلى للانشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحك عن جمان　　سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان　　وحواه صدرى

خرق ابن بقى موشحته وتبعه الباقون . وذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحا على قول الا ابن بقى حين وقع له

أما ترى أحمـــــد　　فى مجده العالى لا يلحق
أطلعـــــه المغرب　　فارنا مثله يامشرق

وكان فى عصرهما من الوشاحين المطبوعين أبو بكر الأبيض ، وكان فى عصرهما أيضا الحكيم أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة فألقى عليه بعض موشحته : جرر الذيل أيما جر . فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله

عقد الله راية النصر　　لامير العلا أبى بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت صاح واطرباه ، وشق ثيابه ، وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت . وحلف الأيمان المغلظة أن لا يمشى ابن باجة لداره الأعلى الذهب. فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بان جعل ذهبا فى نعله ومشى عليه . ثم قال ابن خلدون بعد كلام . واشتهر بعد هؤلاء فى صدر دولة الموحدين محمد بن أبى الفضل بن شرف .الى أن قال وابن هردوس الذى له :

ياليلة الوصل والسعود　　بالله عودى

وابن مؤهل الذى له

ما العيد فى حلة وطاق وشم طيب وانما العيد فى التلاقى مع الحبيب

وأبو اسحق الدوينى . قال ابن سعيدسمعت أباالحسن سهل بن مالك يقول انهدخل على ابن زهر وقد أسن وعليه زى البادية ، اذ كان يسكن بحصن سبتهفلم يعرفه، فجلس حيث انتهى به المجلس ، وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها .

كحل الدجى يجرى من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهـــــر فى حلل خضر من البطاح

فتحرك ابن زهر وقال أنت تقول هذا ؟قال اختبر .قال ومن تكون؟فأخبره. فقال ارتفع فو الله ما عرفتك. قال ابن سعيد وسابق الحلبة التى أدركت هو أبو بكر ابن زهر، وقد شرقت موشحاته وغربت . قال وسمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول لابن زهر لو قيل لك ما أبدع ما وقع لك فى التوشيح ؟فقال كنت أقول :

ماللمـو له من سكره لا يفيق ياله سكران
هل تستعاد أيامنـا بالخليـج وليـاليـنـا
اذ يستفاد من النسيم الاريج مسك دارينا
واذ يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينـا
نهر أظـله دوح عليه أنيق مؤنق فينان
والماءيجرى وعائم وغـريق من جنى الريحان

واشتهر بعده ابن حيون . الى أن قال: وبعد هؤلاء ابن حزمون بمرسيه. ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجى دخل عليه فى مجلسه فأنشده موشحة لنفسه، فقال له ابن حزمون ما الموشح بموشح حتى يكون عاريا من التكلف . فقال على مثل ماذا ؟ فقال على مثل قولى:

ياهاجرى هل الى الوصال منك سبيل

أوهل يرى عن هواك سال قلب العليل

وأبو الحسن سهل بن مالك بغرناطه، قال ابن سعيد كان والدى يعجب بقوله

ان سيل الصباح فى الشرق عاد بحراً فى أجمع الافق

فتداعت نوادب الوُرق أتراها خافت من الغرق

فبكت سحرة على الوَرَق

واشتهر باشبيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل. قال ابن سعيد عن والده سمعت سهل بن مالك يقول له يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك

أوا حسرتى لزمان مضى عشية بان الهوى وانقضى

وأفردت بالرغم لا بالرضا وبت على جمرات الغضى

أعانق بالفكر تلك الطلول وألثم بالوهم تلك الرسوم

قال وسمعت أبا بكر بن الصابونى ينشد الاستاذ أبا الحسن الدباج موشحاته غير مامرة، فما سمعته يقول لله درك الافى قوله

قسما بالهوى لذى حجر ما لليل المشوق من فجر

خد الصبح ليس يطرد ما لليلى فما أظن غد

صح يا ليل انك الابد

أو نقصت قوادم النسر فنجوم السماء لا تسرى

ومن موشحات ابن الصابونى قوله

ما حال صب ذى ضنى وا كتئاب أمرضه يا ويلتاه الطبيب

عامله محبوبه باجتناب ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب

جفى جفونى النوم لكننى لم أبكه الا لفقد الخيال
وذو الوصال اليوم قد غرنى منه كما شاء وشاء الوصال
فلست باللائم من صدنى بصورة الحق ولا بالمحال

واشتهر ببر العدوة ابن خلف الجزائرى صاحب الموشحة المشهورة

يد الاصباح قدحت زناد الأنوار من مجامر الزهر

وابن خزر البجائى وله من موشحه

ثغر الزمان موافق حباك منه بابتسام

ومن محاسن الموشحات موشحة ابن سهل شاعر اشبيلية وسبته من بعدها قوله :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثل ما لعبت ريح الصبا بالقبس»

هذه نماذج الموشحات مما ذكره ابن خلدون . ونعود فنقول : ان سبب اختراع الموشحات فى الأندلس ما تولد فى النفوس من رقة وميل الى الخلاعة والدعابة فى الكلام ، وفى نوع التعابير وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الاوزان القديمة المعروفة ، لضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث الشعراء بالشعر على حسب أهوائهم

والعقول اذا مالت الى التغيير مالت الى الابتكار وحب الجديد . لذلك سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شىء جديد ، فاخترعوا تلك الاوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى بحبوحة اللهو والطرب والرقص وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس . فوجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس فابتدؤا أولا بالاوزان العربية الخفيفة المعروفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغير ذلك ، وغيروا فيها القافية . وولدوا من ذلك الموشحات وأباحوا لأنفسهم التغيير فى الوزن والقافية . فاخترعوا من الأوزان مالا قاعدة له . ثم توسعوا فى هذه الاوزان

وتفننوا فيها ، وأودعوا هذا النوع الجديد من الشعر ميولهم وأهواءهم . واشتغل بذلك الظرفاء والادباء فشمل هذا الشعر كل أنواع اللهو والتسلى. ثم تمشى فى نفوس جميع الناس حتى أصبح نوعا من أنواع الشعر العام . فنظم على أسلوبه الحكماء والفقهاء عبارات الوعظ والحكم ، ومنهم التقى المشهور والصو فى المعروف محيى الدين بن العربى

ثم تخطى هذا النوع من بلاد الأندلس الى بلاد البربر وغيرها من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية ، فنبغ شعراء كثيرون فى هذا النوع . وانبعث هذا الكلام من نفوس العامة، أو من الآراء والافكار التى كانت تدور فى رؤوس كثير من الناس، فنظمها كبار الشعراء . ومازالت العامة تجذب الخاصة اليها ، وتدفعها الى التعبير عن أفكارها المنتشرة الدائرة فى نفوسها وعلى ألسنتها، سواء أكانت من طريق الكلام أم من طريق الأغانى ، حتى قربت الموشحات من لغة العامة وصارت من كلامهم وأناشيدهم . وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى وعن الشعر العربى . لذلك كان ظهور نفوس العامة وحالتهم العقلية فى الموشحات أكثر وضوحا منه فى الشعر العربى الفصيح

فلاغرو أن نجد فى الموشحات خلطا بين الشعر العربى الصحيح والكلام العامى الملحون ، لان أصلها مأخوذ من الشعر العربى ، لذلك لا تخلو من أثره فى الصناعة والاخلية والأسلوب وقواعد العروض . كما تتخلل ذلك عبارات عامية ، وأحيانا يتمشى الشاعر على غير قواعد اللغة. فنجد أبياتا غير عربية وعبارات غير معربة . فليست الموشحات عربية صرفة ولا عامية بحة ، بل يمكن أن يقال انها شعر عربى ، ولكن فى غير الأسلوب الشعرى العربى الصميم وصناعته المعروفة .

وقد كان للموشحات أن تحدث فى الشعر نوعاً جديداً لولم يقصر الشعراء

ابتكاراتهم على الديباجة والوزن والقافية . ولكنهم لم يخرجوا عن الموضوعات والمعانى المعروفة قبلهم عند شعراء العرب . فلم يتكلموا فى الموضوعات العامة الاجتماعية ولم يخرجوا فيها عن التعبير عما يجول بالنفوس من مسائل العشق والغرام وما يشبهها كما قلنا . لأنهم أرادوا أن يتغنوا بذلك . ثم أوغلوا فى التعبيرات الشخصية وبعض هذه التعبيرات لا يمكن أن تودى المعنى المقصود الا بلهجة خاصة ، فاضطروا الى استعمال بعض العبارات العامية . ثم توسعوا فى ذلك حتى تعددت هذه اللهجات وكثير منها لهجات عامية لا يتذوقها كل من يعرف العربية الفصحى . ومن هذا تطرقوا الى الزجل ذلك الشعر العامى المعروف .

فالموشحات علامة من علامات الانتقال فى الشعر العربى، لانها حادث جديد فى الأدب ، ولكنها علامة من علامات انحلال وحدة اللغة العربية وضياعها أيضاً، اذلو كان لها أن تنتشر انتشارا عاما فى جميع البلدان لادت الى انتشار اللغة العامية فى كل قطر ، فتصبح كل أمة ذات شعر خاص ولهجة خاصة ، يصعب فهمها على غيرها من الامم الاخرى . على ان لذلك ميزة وهى ان العامة تفهم من لغتها الخاصة أكثر مما تفهم من اللغة الفصحى . ولكن هذا يدعو كما قلنا الى انحلال الوحدة اللغوية

وقد ذكر ابن سناء الملك فى كتاب له سماه « دار الطراز فى صناعة الموشحات وأنواعها » . كلاما عن الموشحات وأنواعها وهو أجمع كتاب فى ذلك فرأينا أن ننقل منه جزأ عظيما قال .

---

١ وجاء فى كشف الظنون . در الطراز « لا دار الطراز » لابى القاسم هبة الله بن جعفر المصرى المتوفى سنة ٦٨٠ (راجع كشف الظنون ج ١ ص ٣٦٠ طبع بولاق)

« ... الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص . وهو يأتلف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات، ويقال له التام. وفى الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الاقرع . فالتام «ابتدئ» فيه بالاقفال ، والأقرع «ابتدئ» فيه بالأبيات. فمثال التام موشح الأعمى وهو

ضاحك عن جمان   سافر عن بدر   ضاق عنه الزمان   وحواه صدرى

فهذا الموشح ابتدىء بقفلة. ومثال الأقرع

سطوة الحبيب   أحلى من جنا النحل

وعلى الكئيب   أن يخضع للذل

أنا فى حروب   مع الحدق النجل

ليس لى يدان   ياحور فتان   من رأى جفونه   فقد أفسدت دينه

فهذا الموسح ابتدئ ببيته . والاقفال هى أجزاء مؤلفة ، يلزم أن يكون كل قُفل منها متفقاً مع بقيتها فى وزنها وقوافيها وعدد أجزائها . والأبيات هى أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة، يلزم فى كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح فى أوزانها وعدد أجزائها ، لافى قوافيها . بل يحسن أن تكون قوافى كل بيت منها مخالفة لقوافى البيت الآخر. والقفل كما تقدم يتردد فى الموشح ست مرات فى التام وخمس مرات فى الأقرع. وأقل مايتركب القفل من جزئين فصاعداً الى ثمانية أجزاء وعشرة أجزاء . ولم أجد للمغاربة منه «ماأثق بنسبه» فلهذا لم أذكر مثالا منه. والبيت لابد أن يتردد فى التام وفى الأقرع خمس مرات . وأقل مايكون البيت ثلاثة أجزاء . وقد يكون فى النادر من جزئين. وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف. وهذا لايكون إلا فيما أجزاؤه مركبة. وأكثر مايكون خمسة أجزاء . والجزء من القفل لا يكون الا مفرداً ، والجزء من البيت قد يكون مفرداً وقد يكون مركباً

والمركب لايتركب الا من فقرتين أو ثلاث فقر، وقد يتركب فى الأقل من أربع فقر. وسنكتب هاهنا مثالا لكل ماذكرناه ليتلخص ويتشخص وينتقل ماتدركه بالقول سماعاً الى أن تراه بالخط عياناً. فأمثلة الاقفال:

القفل المركب من جزئين

شمس قارنت بدرا راح ونديم

المركب من ثلاثة اجزاء

حلت يد الأمطار أزرة النوار فيأخذانى

المركب من أربعة اجزاء

أدر لنا أكواب ينسى بها الوجد واستحضر الجلاس كما اقتضى الود

المركب من خمسة أجزاء

يامن أجود ويبخل على شحى وافتقارى أهواك وعندى زيادة منها شاره

المركب من ستة أجزاء

ميتات الدمن أحيين كربى وهل يتمكن عزا لقلبى مت ياعزاه شاه

المركب من سبعة أجزاء

الموشح المعروف بالعروس، وهو ملحون، واللحن لايجوز استعماله فى شىء من ألفاظ الموشح الا فى الخرجة خاصة. ولهذا لم نورد مثالا

المركب من ثمانية أجزاء

على عيون العين نعى الدرارى من شغف بالحب

واستعذب العذاب والتذ حاليه من أسف وكرب

وقد يندر فى بعض الموشحات الشاذة التى لايعول عليها أن تكون أقفالها مختلفة أعداد الاجزاء كالموشح الذى أوله : بابى علق بالنفس عليق وهذا الموشح لعبادة ، فان قفله الأول جزءان، وبقية أقفاله ثلاثة. وسيأتى فى هذا الموشح منسوقا فى جملة مانذكر من الموشحات التى ذكرت الأمثلة منها. فانى أذكر فى آخر هذه الاوراق كل موشح ذكرت المثال منه ، ليكون أنس المتعلم بها أكثر ، وعلمه بها فى نفسه أرسخ

أمثلة الأبيات

أمثلة ما أجزاؤه مفردة : ماهو منها على ثلاثة أجزاء

أرى لك مهند أحاط به الأثمد فجرد ماجرد

فياساحر الجفن حسامك قطاع

ماهو منها على أربعة أجزاء

قد باح دمعى بما أكتمه وحن قلبى لمن يظلمه

رشا تمرن فى لا فمه كم بالمنى أبدا ألثمه

يفتر عن لؤلؤ متسق من لالأقاح بنسيمه العبق

أمثلة الأبيات التى اجزاؤها مركبة

ماتركب من فقرتين وثلاثة أجزاء

أقم عذرى فقد آن أن أعكف

على خمر يطوف بها أوطف

كما تدرى هضيم الحشى مخطف

أذا ماماد فى مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

ماتركب من فقرتين وثلاثة أجزاء ونصف

من أودع الاجفان صوارم الهند
وأنبت الريحان فى صفحة الخد
قضى على الهيمان بالدمع والسهد

أنى وللكتمان للهايم المغرم بدمع نم اذ يسجم عما يكتم
من السر فى عاطل جال عز بوساط على بالدعج

ماتركب من فقرتين وأربعة أجزاء

ماحوى محاسن الدهر الا غزال
معروف الجدين من فهر عم وخال
نسبته للنبايل الغر وللنزال
فأنا أهواه للفخر وللجمال

وجهه وجه طليق للضيوف مشرق ويد تسطو على الاسد فتغدق

ماتركب من فقرتين وخمسة أجزاء

هن الظباء الشمس فنيصهن الضيغم
ما ان لها من كنس الا القلوب الهيم
القرب منها عرس والبعد عنها مأتم
تلك الشفاة اللعس يحيا بهن المغرم
لها لحاظ نعس ترنوا الى من تسقم

ياعين الغزلان وتبتسم عن جوهر الاسماط
قضى لها الغيران ان تكتتم فى مضمر الانبساط

وقد يندر فى بعض الموشحات ما يكون بيته جزأين مركبين من فقرتين وهو شاذ جداً وهو

باكر الى الخمر واستنشق الزهرا
فالعمر فى خسر مالم يكن سكرا
فقلما أسلو عن مرشف الاكواس
وساحر الطرف مساعد الجلاس
فسقينى بنت الرياحين

ماتركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء

من به الى يرنو بمقلتى ساحر الى العباد
ينأى به الحسن فينثنى نافر صعب القياد
وتارة يدنو كما أحتسى الطائر ماء الثماد
لجيده أغيد والخد بالخال منمق تكتمه الحجب فلى الى الكلة تشوق

ماتركب من أربع فقر وثلاث أجزاء

بأبى ظبى حمى تكنفه أسد أغيل
مذهبى رشف لى قرقفه سلسبيل
يستثنى قلبى بما يعطفه اذ يميل
ذو اعتدال يعزى الى ذى نعمة ثابت
فى ظلال تحت حلى قطر الندى بات

والخرجة عبارة عن القفل الأخير من الموشح. والشرط فيها أن تكون حجاجية من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة حادة منضجة ، من ألفاظ العامة ولغات الخاصة ، فان كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ماتقدم من الأبيات والأقفال ، خرج الموشح من أن يكون موشحاً ، اللهم الا أن كان موشح مدح وذكر الممدوح فى الخرجة فانه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقول ابن بقى

انما يحيى   سليل الكرام   واحد الدنيا   ومعنى الانام

وقد تكون الخرجة معربة وان لم يكن فيها اسم الممدوح، ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً، هزازة سحارة خلابة بينها وبين الصبابة قرابة. وهذا معجز معوز، وما يوجد منه فى الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة، كقول ابن بقى:

ليل طويل   ولا معين   ياقلب بعض الناس   أما تلين

فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب والا فليغرب. والمشروع بل المفروض فى الخرجة أن يجعل الخروج اليها وثبا واستطراداء وقولا مستعارا على بعض السنة الناطق والصامت، أو على الاغراض المختلفة. وأكثر مايجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران. ولا بد فى البيت الذى قبل الخرجة من قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنيت أو غنت. فما جعل على لسان الحمام قول عبادة

ان الحمام فى أيكها تشدو

قل هل عُلِم أو هل عُهِد أو كان كالمعتصم والمعتضد ملكان

ومما جعل على لسان الغرام قول ابن بقى

أنا   وأنتا   اسوة هذا الهجر
بالصبر بتنا   عند انصداع الفجر
ومذ رحلنا   غنى الجوى فى صدرى

سافر حبيبى سحر وماودعتوا ياوحش قلبى فى الليل اذا افكرتوا

ومما استعير على لسان الهيجاء قول عبادة

فالهيجا تغنى   والسيف قد طرب

ما أملح العساكر وترتيب الصفوف والابطال تصيح الواثق ياجدع

***

والموشحات تنقسم قسمين: الاول ماجاء على أوزان أشعار العرب والثانى

.الاوزن له فيها ولا المام . له بها والذى على أوزان الاشعار ينقسم قسمين أحدهما مالا تتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التى جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعرى . وما كان من الموشحات على هذا النسخ فهو المرذول المخذول، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله الا الضعفاء من الشعراء . ومن أراد أن يتشبه بما لا يعرف، ويتشبع بما لايملك، اللهم الا ان كانت قوافى قفله مختلفة فانه يخرج باختلاف القوافى الاقفال، فيقال من المخمسات كقول بعضهم

ياشقيق الروح من جسدى   أهوى بى منك أم لمم

فهذا من المديد وكقول الآخر

أيها الساقى اليك المشتكى   قد دعوناك وان لم تسمع

فهذا من الرمل وفى شجيان الوشاحين والطغانين فى صدور الاوزان من يأخذ بيت شعر مشهوراً ويجعله خرجة، ويبنى موشحه عليه، كما فعل ابن بقى فى بيت ابن المعتز وهو

علمونى كيف أسلو والا   فاحجبوا عن مقلتى الملاحا

فان ابن بقى جعله خرجة لموشحه ، وسيأتى ذكره . وفى الوشاحين من أهل الشطارة والدعارة من يأخذ بيتاً من أبيات المحدثين ويجعله بألفاظه فى بيت من أبيات موشحه، كما فعل ابن بقى فى بيت كشاجم قال:

يقولون تب والكأس فى كف أغيد   وصوت المثانى والمثالث عالى
فقلت لهم ان كنت أضمرت توبة   وأبصرت هذا كله لبدالى

فقال ابن بقى

قالوا ولم يقولوا صوابا
أفنيت فى المجون الشبابا
فقلت لو نويت متابا

والكأس فى يمين غزالى والصوت فى الثالث عال لبدالى

والقسم الآخر ماتخللت أبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو ضمة أو فتحة عن أن يكون شعراً صرفا وقريضاً محضاً، فمثال الكلمة قول ابن بقى

صبرت والصبر شيمة العانى ولم أقل للمطيل هجرانى معذبى كفانى

فهذا من المنسرح وأخرجه منه « معذبى كفانى » ومثال الحركة هو أن يجعل على قافية فى وزن ويتكلف شاعرها أن يعيد تلك الحركة بعينها وبقافيتها. كقوله

ياويح صب الى البرق له نظر وفى البكاء مع الورق له وطر

فهذا من البسيط والتزام اعادة القافية فى وسط وزن على الحركة المخفوضة هو الذى أشرنا اليه .

والقسم الثانى من الموشحات هو مالا مدخل لشىء منه فى شىء من أوزان العرب وهذا القسم منها هو الكثير والجم الغفير، والقدر الذى لا ينحصر والشارد الذى لا ينضبط

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين قسم اقفاله وزن أبياته حتى كأن آخر الابيات من آخر الاقفال كقول الاعمى

أحلى من الامن يرتاح من قربى ويفرق فى وجهه سنة يشجى بها العذول ويشرق

لله ما أقرب على محبه وأبعدا
خلو اللمى أشنب آسا الضنافيه وأسعدا
أحبب به أحبب ويا تجنيه طال المدا

أما ترى حزنى نارا على قلبى تحرق حسبى بها جنة ياماء ياما ياظل يارونق

وقسم أقفاله مخالفة لاوزان الابيات مخالفة تتبين لكل سامع ويظهر طعمها لكل ذائق كقول بعضهم

الحب يجنيك لذة العذل واللوم فيه أحلى من القبل
لكل شىء من الهوى سبب جد الهوى بى وأصله اللعب

وان لو كان   جد يغنى   كان الاحسان   من الحسن

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين : قسم لا بياته وزن يدركه السمع ويعرفه الذوق ، كما تعرف أوزان الأشعار ولا يحتاج فيها الى وزنها بميزان العروض وهو أكثرها. وقسم مطرب الوزن مهلهل النسج مفكك النظم لايحس الذوق صحته من سقمه ولا دخوله من خروجه كالموشح الذى أوله

أنت اقتراحى   لاقرب الله اللواحى

من شاء أن يقول   فانى لست أسمع   خضعت فى هواك   وما كنت لاخضع

حسبى على رضاك   شفيع لى مشفع

نشوان صاحى   بين ارتياع وارتياح

والموشحات تنقسم من جهة أخرى الى قسمين قسم يستقل التلحين به ولا يفتقر الى ما يعينه عليه وهو أكثرها، وقسم لايحتمل التلحين ولا يمشى الا بأن ميتوكأ على لفظة لامعنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغنى كقول ابن بقى :

من طالب   ثار قتلى   ظبيات الحدوج   فتانات الحجيج

فان التلحين لا يستقيم الا بأن يقول لا لا بين الخبرين الجيمين من هذا القفل

ومما سنه القوم فى أكثر موشحات المدح أن يختم الموشح بالغزل ويخرج من المدح اليه ، كما خرج اليه منه ، وهذا هو الاكثر من عملهم والاظهر من مذهبهم ومنه قول الأعمى

حلو المجانى   ماضره لو أجنانى   كما عنانى   وجدى به وعنّانى

فانه ابتدأ بالغزل ثم خرج الى المدح ثم ختم بالغزل ؛ والموشحات يعمل فيها مايعمل فى أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد. وما كان منها فى الزهد يقال له المكفَّر والرسم فى المكفر خاصة أن لايعمل الا على وزن

موشح معروف قوافى أقفاله، ويختم بخرجة ذلك الموشح ليدل على انه مكفر ومستقبل ربه عن شاعره ومستغفره

الموشح التام [١]

الموشحات المغربية على طريق الأمثلة

ضاحك على جمان   سافر عن بدر   ضاق عنه الزمان   وحواه صدرى
آه مما أجد   شفنى ما أجد
قام بى وقعد   باطش متئد
كلما قلت قد   قال لى أين قد
وانثنى خط بان   ذا مهز نضر   عابثية يدان   للصبا والقطر
ليس لى منك بد   خذ فوادى عن يد
لم تدع لى جلد   غير انى أجهد
مكرع من شهد   واشتياق يشهد
ما لبنت الدنان   ولذاك الثغر   أين محيا الزمان   من حميا الخمر
بى هوى مضمر   ليت جهدى وفقه
كلما يظهر   ففؤادى افقه
ذلك المنظر   لا يداوى عشقه
بابى كيف كان   فلكيٌ درّى   راق حتى استبان   عذره وعذرى
هل اليك سبيل   أو الى أن أيأسا
ذبت الا قليل   عبرة أو نفسا
ما عسى أن أقول   ساء ظنى بعسى

---

١ هذه الموشحة للاعمى التطيلى راجع ص ١٦٨ و ص ٢٢٧

وانقضى كل شأن وأنا .... خالعا من عنان جزعى وصبرى
ما على من يلوم لو تناهى عنى
هل سوى حب ريم دينه التجنى
أنا فيه أهيم وهو بى يغنى

الموشح الاقرع

سطوة الحبيب أحلى من جنا النحل
وعلى الكئيب أن يخضع للذل
أنا فى حروب مع الحدق النجل
يس لى يدان ياحور فتان من رأى جفونه فقد أفسدت دينه
ينبغى التجنى لمثلك فى الأنس
لو قبلت منى لتهت على الشمس
غاية التمنى هلم الى الانس
أنت مهرجانى وخدك بستانى غط ياسمينه ان الناس يجنونه
خط الوزير بخطط ايثار
فانتهى السرور الى غير مقدار
ردت الأمور الى أسد ضار
ثابت الجنان صفوح عن الجان قد حمى عرينه بالزرق المسنونة
خل كل مين الى الحق منقاداً
من رأى بعين فى ذا الخلق من سادا
كأبى الحسين ويفديه من جادا
كل ذى امتنان لا بل كل هتان رام أن يكونه جوداً فأتى دونه

أظهر المقام في الغربة حرمانا
فأنا ألام اسرار واعلانا
قلت والكلام يصرح أحيانا
فزت بالأماني ماجاد باحسان صاحب المدينه أعلى الله تمكينه

المركب قفله من جزءين

شمس قارنت بدراً راح ونديم
أدر كؤوس الخمر عنبرية النشر ان الروض ذو بشر
وقد درّع النهرا هبوب النسيم
وسلت على الافق يد الغرب والشرق سيوفا من البرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيوم
الا أن لي مولى تحكم فاستولى أما انه لولا
دمع يفضح السرا لكنت كتوم
أنى لي كتمان ودمعي طوفان شبت فيه نيران
فمن أبصرا الجمرا في لج يعوم
اذا لامني فيه من رأى تجنيه شدوت أغنيه
لعل له عذرا وأنت تلوم

المركب قفله من ثلاثة أجزاء

حلت يد الامطار ازرة النوار فيأخداني
اشرب طاب الصبوح في ذا اليوم
في روضة تفوح لدى الغيم
قد أشرقت تلوح لدى القوم

ووجه ذا النهار مغطا بخمار من الدجن

هذا الهوى يجور فما صنعى

قد ضاق يامنصور به ذرعى

اذ ليس لى نصير سوى دمعى

فياضعف انتصارى اذا دمعى انصارى على حزنى

ظلمت اذ بعدت عن الصب

فعد كما قد كنت الى قربى

غدرت ونفرت فيا حبى

أفديك من عذار يدين بالنفار ولا يدنى

محبوبى هب رضا كا وخذ عمرى

وعللنى لما كا من الثغر

بما حوت عيناكا من السحر

برد غليل نارى وشم ظبا الاشفار لا تقتلنى

لما أطال حزنى ولم يرحم

وزاد فى التجنى وما سلم

شدوته أغنى غنا مغرم

حبيبى أنت جارى دارك بجنب دارى وتهجرنى

الموشح المختلف الاقفال

بأبى علق بالنفس عليق

هويت هلالا فى الحسن فريدا أعار الغزالا الحاظا وجيدا

وتاه جمالا لم يبغ مزيدا بدر يتلالا فى حسن اعتدال

زانه رشق   والقد رشيق

بدر يتغلب   بالسحر المبين   عذار معقرب   على ياسمين
سوسان مكتتب   بورد مصون   للالاح يسحب   ذيول الجمال

عزّ لى خلق   بالعشق خليق

جفاني يعيش   لوقفي عليه   لو بالنفس ريش   لطرت اليه
للحسن جيوش   على مقلتيه   واللحظ المريش   بالسحر الحلال

فله مشق   والقلب مشوق

تعمد هجرى   مذ دنت بوده   وبددت صبرى   على طول صده
ما الحسن يجرى   بصفحة خده   ثناياه تزرى   بنظم اللآلى

فمه حق   باللثم حقيق

لما أن تسربل   ثوب الحسن زيا   أردت أقبل   لماه الشهيا
فقال تمثـل   بالشعر أبيا   ومال تدلل   بأجلى مقال

أنا قول قوقو   ليس بالله تذوقو

الموشح الذى بيته ثلاثة أجزاء مفردة

أأفردت بالحسن   أم خلقك ابداع

أرى لك مهند   أحاط به الأثمد   مجرد ماجرد

فياساحر الجفن   حسامك قطاع

ايا فتنة القلب   خف الله في صب   قتيل من الحب

تمنيه بالمزن   وبرقك خداع

ما تركب بيته من فقرتين وثلاثة أجزاء

كذا يقتاد   سنا الكوكب الوقاد   الى الجلاس   مشعشعة الاكواس

أقم عذرى   فقد آن أن أعكف

على خمر يطوف بها أوطف
كما تدرى هضيم الحشا مخطف
اذا ما ماد فى مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوارقة قد ماس
من الأنس وان زاد فى النور
على الشمس وبدر الديجور
له نفسى وما نفس مهجور
غزال صاد ضراغمة الآساد بلحظ جاس خلال ديار الناس
جلا الاجلاك بنور الهدى مرآه
فما الافلاك تدير سوى علياه
كذا الاملاك عبيد عبيد الله
فمن أراد قياسك بالامجاد فجهلا قاس سنا الشمس بالنبراس
لك الفضل وانك من آله
رأى الكل بكم نيل آماله
فما يخلو من ينشد فى حاله
منى عباد بكم نحن فى أعياد وفى اعراس لاعدمتم للناس

ما تركب بيته من ثلاثة أجزاء ونصف

من أودع الاجفان صوارم الهند
وانبت الريحان فى صفحة الخد
قضى على الهيمان بالدمع والسهد
أنى وللكتمان للهايم المغرم ، مدمع نم اذ يسجم بما يكتم
من السر فى عاطل حال غزير ساط على بادعج
يا بأبى أحور كالبدر فى التم

يفتر عن جوهر مستعذب اللثم
وخده الازهر يدى من الوهم
فكيف أن أعذر وقد سرى أرقم على عنده فلا يلثم وقد حكم
من السحر لقتل أبطال مع الأنباط جيش من الزنج
أجز للنور كصاحب الطور
كبدر ديجور فى قد خيزور
كغصن بلور فى دعص كافور
بنفس مهجور أفدى وان يتم ففى مختم ثنايا فم قد نظم
من الدر راحى وسلسالى على أسماط عطريه الفلج
الحسن موقوف عليك يا احمد
والأمر مصروف اليك ياغيد
عبدك مشغوف فيك ومستعبد
امنك تعنيف أو منك أن ترجم وان تحرم ضنا مغرم اذا يسقم
فهو آسرى فى بحر أوجالى بعيد الشاطى أمسك بالموج
وغاده تبدو كالبدر فى السعد
أمالها االنهد فى غصن رند
أوراقها البرد أينع بالورد
باتت وهى تشدوا حبيبى أهجم وقم واعزم وقبل فم وجى وانضم
الى صدرى وقم بخلخالى .....

الموشح الذى يتركب بيته من جزئين مركبين فى فقرتين

باكر الى الخمر واستنشق الزهرا فالعمر فى خسر مالم يكن سكرا
فقل ما أسلو عن مرشف الاكواس وساحر الطرف مساعد الجلاس

فسقيني بنت الزراجين

فهاتها صرفا يا ذا الرشا الاحور   راح حكت وصفا من خدك الاقمر
رشا هو النبل والعدل بين الناس   والمسك فى العرف من نفحه الانفاس
فداريني   عن مسك دارين
كم لامني فيه تذل من العذل   لما رأى فيه ميلا الى وصلى
وانما العذل فما به من باس   رضا به يشفى ويكثر الايناس
فهنوني   لست بمغبون
للطرف فى الفتك اثار معنى   والعز فى الملك عز سليمى
يهابه الكل خوط القنا المياس   يثنى على الحقف مثل قضب الآس
من اللين   ينقد عن لدن
لله ما اهوى   خوداً تغنيه
باحت بها الشكوى   عمداً التعنيه
أنت المنى تحلو   فاترك كلام الناس
وادخل معى الى   مثل الشراب فى الكاس
يا كنوني   كما تسليني

المركب قفله من ستة أجزاء

الراح فى الزجاجة   أعاياها خد النديم   حمرة الورد
واستوهبت نسيمه   فهجنت نشر العبير   مع شذا الند
ما همت بالحميا   الا وقد سقتنى
مليحة المحيا   مليحة التثنى
والحسن قد تهيا   فيها بلا تأنى
أذكي بها سراجه   رأيت فى الليل البهيم   شعلة الزند
لو أنها عليمة   تاهت على البدر المنير   وهو فى السعد

ان التى الأم   فيهـا على غرامى
لقدها قوام   كالغصن فى القوام
لثغرها نظام   كالعقد فى النظام
لريقها مجاجه   كالمسك فى طيب الشميم   كجنا الشهد
وعينها السقيمة   وسنانه من الفتـور   لا من السهد
تزيد فى بلائى   والنفس تشتهيها
ولا أرى دوائى   الا بريق فيهـا
قالت لاصدقائى   وقد ضنيت فيها
احمى الهوى مزاجه   دعوه من طب الحكيم   فالدوا عندى
محبوبتى حكيمة   تطفى برمان الصدور   حرقة الوجد
كم فى الانام مثلى   شفاؤها دواها
وكم تريد قتلى   ولم أرد سواهـا
وقال لائم لى   لججت فى هواها
طابت لى اللجاجة   وقلت للأشجان دومى   ما أنا وحدى
ذو مهجة مقيمة   فى القرب من ظبى غرير   وهو فى البعد
قلبى لها يتوق   وقلبهـا يقول
هيهات لا طريق   هيهات لا وصول
فقلت والمشوق   يقنعه القليل
« . . . . »

(انتهى ما جمعناه من كتاب دار الطراز لابن سناء الملك)

جملة من الموشحات [١]

موشحة لسان الدين بن الخطيب

جادك الغيث اذا الغيث همى   يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما   فى الكرى أو خلسة المختلس
اذ يقود الدهر أشتات المنى   ينقل الخطو على مايرسم
زمرا بين فرادى وثنا   مثل مايدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى   فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما   كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلما   يزدهى منه بأبهى ملبس
فى ليال كتمت سر الهوى   بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكاس فيها وهوى   مستقيم السير سعد الاثر
وطر مافيه من عيب سوى   أنه مر كلمح البصر
حين لذ الانس شيأ أو كما   هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا أو ربما   أثرت فينا عيون النرجس
أى شيء لامرئ قد خلصا   فيكون الروض قد كثن فيه

---

(١) راجع طائفة من الموشحات فيما يأتى
فوات الوفيات للصلاح الكتبي جزء اول ص ٣٢ ، ٦٣ — ٦٧ ، ٩٨ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥
وجزء ثانى ص ، ١٣٩ ، ٤١ ، ١٦١ ، ٢٤٣ ، ٢٦٧ ، ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٥٤
٣٧١ — ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٤٠٤ .
وفى نفح الطيب طبع أوروبا جزء اول ص ٣٠١ وجزء ثانى ص ٤٠ ، ٣٠٤ ، ٣٢٤ ، ٤١٧ ،
٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٨٠ . والجزء الرابع طبع بولاق فى الكلام على الموشحات
والعذارى المائسات فى الازجال والموشحات طبع بيروت

تنهب الازهار منه الفرصا　　أمنت من مكره ماتتقيه
فاذا الماء تناجى والحصا　　وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيورا برما　　يكتسى من غيظه مايكتسى
وترى الآس لبيباً فهما　　يسرق السمع بأذنى فرس
ياأهيل الحى من وادى الغضى　　وبقلبى سكن أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا　　لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى　　تعتقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله واحيوا مغرما　　يتلاشى نفساً فى نفس
حبس القلب عليكم كرما　　أفترضون عفاء الحبس
وبقلبى منكم مقترب　　بأحاديث المنى وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب　　شقوة المغرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب　　فى هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى　　جال فى النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى　　ففؤادى نهبة المفترس
ان يكن جار وخاب الامل　　وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول　　ليس فى الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل　　فى ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما　　لم يراقب فى ضعاف الانفس
منصف المظلوم ممن ظلما　　ومجازى البر منها والمسى
مالقلبى كلما هبت صبا　　عاده عيد من الشوق جديد
كان فى اللوح له مكتتبا　　قوله ان عذابى لشديد
جلب الهم له والوصبا　　فهو للاشجان فى جهد جهيد
لاعج فى أضلعى قد أضرما　　فهى نار فى هشيم اليبس
لم يدع فى مهجتى الا زَما　　كبقاء الصبح بعد الغلس

سلمى يانفس فى حكم القضا   واعمرى الوقت برجعى ومتاب
دعك من ذكر زمان قدمضى   بين عتبى قد تقضت وعتاب
واصرف القول الى المولى الرضا   ملهم التوفيق فى أم الكتاب
الكريم المنتهى والمنتمى   أسد السرج وبدر المجلس
ينزل النصر عليه مثل ما   ينزل الوحى بروح القدس
مصطفى الله سمى المصطفى   الغنى بالله عن كل أحد
من اذا ما عقد العهد وفا   واذا ماقبح الخطب عقد
من بنى قيس بن سعد وكفى   حيث بيت النصر مرفوع العمد
حيث بيت النصر محمى الحمى   وجنى الفضل زكي المغرس
والهوى ظل ظليل خيما   والندى هب الى المغترس
ها كها ياسبط أنصار العلا   والذى ان عثر الدهر أقال
غادة ألبسها الحسن ملا   تبهر العين جلاء وصقال
عارضت لفظا ومعنى وحلى   قول من أنطقه الحب فقال
هل درى ظبى الحمى ان قد حمى   قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثل ما   لعبت ريح الصبا بالقبس

موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين

هل درى ظبى الحمى ان قد حمى   قلب صب حله عن مكنس
فهو فى حر وخفق مثل ما   لعبت ريح الصبا بالقبس
يابدورا أطلعت يوم النوى   غررا تسلك فى نهج الغرر
مالقلبي فى الهوى ذنب سوى   منكم الحسن ومن عينى النظر
أجتنى اللذات مكلوم الجوى   والتذاذى من حبيبي بالفكر
كلما أشكوه وجدا بسما   كالربا بالعارض المنبجس
اذ يقيم القطر فيها مأتما   وهى من بهجتها فى عرس

غالب لى غالب بالتـــؤده   بأبى أفديه من جاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نضده   أقحوانا عصرت منه رحيق
أخذت عيناه منه العربده   وفؤادى سكره ما ان يفيق
فاحم الجمة معسول اللمى   أ كحل اللحظ شهى اللعس
وجهه يتلو الضحى مبتسما   وهو من اعراضه فى عبس
أيها السائل عن ذلى لديه   لى يجنى الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحى من وجنتيه   مشرقا للصب فيه مغرب
ذهبت أدمع أجفانى عليه   وله خد بلحظى مذهب
يطلع البدر عليه كلما   لاحظته مقلتى فى الخلس
ليت شعرى أى شىء حرما   ذلك الورد على المغترس
كلما أشكو اليـــه حـــرقى   غادرتنى مقلتـــاه دنفا
تركت ألحاظه من رمقى   أثر النمل على صم الصفا
وأنا اشـــكره فيما بقى   لست ألحـــاه على ما أتلفا
فهو عندى عادل ان ظلما   وعذولى نطقه كالخرس
ليس لى فى الحب حكم بعدما   حل من نفسى محل النفس
منـه للنار باحشائى اضطرام   يلتظى فى كل حـين مايشا
وهى فى خديه برد وسلام   وهى ضر وحريق فى الحشا
أتقى منه على حكم الغرام   أسـد الغاب واهواه رشا
قلت لمـــا ان تبدى معلما   وهو من ألحاظـه فى حرس
أيها الآخـــذ قلبى مغنما   اجعـل الوصل مقام الخمس

وقد عارض هذا الموشح أيضاً بعض متأخرى المغاربة فقال :

ياعريب الحى من حى الحمى   أنتم عيـدى وأنتم عرسى
لم يحل عنكم ودادى بعد ما   حلتم لا وحيـاة الانفس

من عذيرى فى الذى أحببته مالك قلبى شديد البرحا
بدرتم أرسلت مقلتـــــه سهم لحظ لفؤادى جرحا
ان تبـــدى أو تثنى خلته غصن بان فوقه شمس ضحا
تطلع الشمس عشاء عند ما تنجلى منـــه بأبهى ملبس
وترى الليـــل أضا منهزما وترى الصبح أضاق الغلس
ياحياة النفس صل بعد النوى والهاً مُضْنًى شديد الشغف
قد براه السقم حتى ذا الهوى كاد أن يفضى به للتلف
آه من ذكر حبيب باللوى وزمان بالمنى لم يسعف
كنت أرجو الطيف يأتى حلما عائدا يانفس من ذاقا يأس
هل يعود الطيف صبا مغرما ساهرا أجفانه لم تنعس
همت فى اطلال ليلى وأنا ليس فى الاطلال لى من أرب
مامرادى رامة والمنحنى لا ولا ليلى وسعدى مطلبى
انما سؤلى وقصدى والمنى سيد العجم وتاج العرب
أحمد المختار طه من سما الشريف ابن الشريف الكيس
خاتم الرسل الكريم المنتمى طاهر الاصل زكي النفس

موشحة لبعض شعراء الاندلس يعارض بها موشحة لسان الدين

جادك الغيث اذا الغيث همى * يازمان الوصل بالاندلس
عطر الارجاء لما نمما شمأل للصبح عند الغلس
وأنت شمس الضحى تنسخ ما يقرأ الليل لنا من عبس
طاف بالكاس من الزهر فتى مولع بالصد عنى مذ فتى
فتن الالباب لما انفتا واحتسى منه ببعض الشفة
وأنا ما بين حتى ومتى صده تيه الهوى عن الفتى
وكؤوس الراح بين الندما أرجت بالعرف أفق المجلس

خمرة صفراء فى البلور ما … أشبه الحان بروض النرجس
بادر اللذة واجمع شملها … بمدام وغلام مطرب
ذى عيون ناعسات كم لها … من فنون السحر ما يلعب بى
وافر الارداف عانى حملها … ناحل الخصر وذا من عجب
كلما أترع كاسا قال ما … أنت بالشارى حياة الانفس
فابذل الجهد وكن مغتنماً … لنفيس النفس طيب الانفس
فرص الايام كن منتهزا … مبتداها قبل حذف الخبر
ورحاب الانس لج منتجزا … قبل أن تمضى كلمح البصر
واجن من زهر الهوى محترزا … من جنايات هجوم الكبر
لا تخف لوماً ويمم حيثما … لاحت اللذات كالمختلس
ما مضى انس ووافى مثل ما … كان ذا الدهر لنا بالحرس
للرياض اذهب ترى بلبلها … لاشتياق الورد مثل الشكل
وخدود الورد قد كللها … دمع طل لاشتياق البلبل
وقدود البان قد قام لها … مانع الوصل بحد الاسل
والربا فاحت تحاكي خدما … وعليهن ثياب السندس
جيبها زرر بالزهر كما … زر بالفضة ثوب الاطلس
وجلا الروض لنا أشجاره … مائسات فى قباء أخضر
وترى فى جيدها نواره … يتلالا كعقود الجوهر
خلع الليل به أطماره … فغدا كالصبح باهى المنظر
وبقاياه زهت فيه أما … فى شفاه الغيد حسن اللعس
كعذار فى محيا علما … فبدا للغير لا الملتمس
حبذا الصبوة أيام الصبا … وعيون الشيب فى سهو الوسن
فاذا أيقظها دهر صبا … لصروف حد شفريها وسن
جرد الشيب لنا بيض الشبا … واقتفى شرخ شباب وظعن

وغدا الانسان شيخاً هرما واعتراه لاعج من وجس
فات اذ مات فيقضى ندما واغتنام الوقت شغل الكيس
لا تدع عمرك يمضى هدرا أنت اذ ذاك جبان غافل
وارق بالجهد من السؤل الذرا واجتهد والضرع ضخم حافل
انما الايام أمثال السرى والجرىء الشهم ليث باسل
ووحوش الانس تسعى مغنما باردا للاســـد المفترس
ترك الوهم وخاض الظلما وله العـزم أضا كالقبس
ليس يحظى بالمنى الا الذى كابد الاهوال حتى ظفرا
كان للراحـة كالمتنبذ من وراء الظهر أنى ظهرا
مثل ما قد بات ذا طرف قذى يقطع الليـل جميعاً سهرا
فى طلاب العلم حتى علما انه يملأ بروح القـدس
أحمـد الناصب فينا علماً للتـقى فاز به من يأتسى
حل فى مصر وان كان العلا قد عفت لما اعتراها فى خلل
ورياض الفضل لما أن علا نقع جهل جف منهن البلل
ازدرت أغصانها حتى خلا قاعها من عذب ما يشفى العلل
نضرت اذ حل فيها كالسما وهو بدر بكمال مكتسى
حوله الطلاب كالشهب سما قدرها من نوره المقتبس
أيها الطالب للعـلم اتئد ليس الا بابه ينفعـكا
ان ترم نيل المرجى فاجتهد فى اتباع للذى يرفعـكا
علم من يعمل اكسيد فزد منه واترك حاسدا يدفعكا
والزم الاعتاب وانزل بالحمى خالع الربقة من قول المسى
باعتقاد فاز من قد لثما نعله والكبر شان المبلس
مذ خبرت الناس طرا نظرا لمناط الامر فى هذا الزمان

لم أجد الا مقالا صـدرا | عن دعا وأخلفت عند العيان
غير ما يمليه فانظر ترى | درر الالفاظ فى سمط البيان
ببديع النطق لمـــا نظما | بهت المنطيق مثل الاخرس
وأتى يخضع جمع العلما | نحو ذا المفرد فى الملتمس
انما المجد الرفيع الممتطى | أرؤس الآساد قسرا مثل ذا
يدع المرفوع كما لمهبط | ثم للنازل يعـــلى منفذا
ناظـراً فى أمره بالاحـوط | خافض الطرف على حر القذى
كل من أم حماه قد حمى | بحسام العـزم هش الملمس
فاذا جرد منـــه انفصما | جلمد الصخر بذاك الميس
حبذا المغرب قطراً بالسنا | فضـــله يبهر بدر الافق
قطره الشامخ قد اهدى لنا | سيدا قد فاق شمس المشرق
كل من فاته أسباب المنى | بعـــلاه للثريا يرتقى
قل لمن يرجو سوى المذكور ما | ينبت الزهر بأرض اليبس
لاو لا الناس سواء انما | رأى من سواهم فى هوس
لذ بشهم فازمن أمـــله | بنوال فاق سح الهامـــل
أثقل السؤدد اذ حمـــله | وقر فضـل مستبين شامل
وحماه الامن من أمـــله | بلغ القصد فبشرى الآمل
بحره الوافر العـــلم طما | كامـل الامـداد لم يحتبس
نال منجه الناس حتى عمما | مشرقا والغرب للاندلس

موشحة ابن سناء الملك

كللى ياسحب تيجان الربا بالحلى واجعلى سوارك منعطف الجدول

دور

ياسما فيك وفى الارض نجوم وما كلما اغربت نجما اشرقت انجما
وهى ما تهطل الا بالطلى والدمى

قفلة

فاهطلى على قطوف الكرم كي تمتلى وانقلى للدن طعم الشهد والفوفل

دور

تنقد كالكوكب الدرى للمرتصد يعتقد بها المجوسى بما يعتقد
فانتقد ياساقى الراح بها واعتمد

قفله

واملى لى حتى ترانى عنك فى معزل قلل فالراح كالعشق ان يزد يقتل

دور

من ظلم فى دولة الحسن اذا ماحكم فالسلام يجول فى باطنه والندم
والقلم يكتب ماسطر فوق القمم

قفله

من ولى فى دولة الحسن ولم يعدل يعزل الالحاظ الرشا الاكحل

دور

لا أريم عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعيم عيش جديد ومدام قديم
لأأهيم الا بهذين فقم يانديم

قفله

وانهل من اكؤس صورن من صندل أفضل من نكهة العنبر والمندل

دور

هل يعود عيش قطعناه بوادى زرود والجنود فى حضرتى تضرب جنكاوعود

والحسود فى معزل عنا غدا لا يسود

قفله

عذلى لاتعذلونى فالهوى لذلى ما الخلى فى الحب مثل العاشق المبتلى

دور

اسفرت ليلتنا بالانس مذ اقمرت بشرت بملتقى المحبوب واستبشرت

شمرت فقلت للظلماء مذ قصرت

قفله

طولى ياليلة الوصل ولا تنجلى واسبلى سترك فالمحبوب فى منزل

دور المديح

يانسيم بلغ سلام المستهام السقيم لكريم طه امام المرسلين العظيم

عن أليم وجدى به حدث وشوقى القديم

موشحة لابن زَمرك

فى كؤس الثغر من ذاك اللعس   رحة الارواح

وتفشى الروض مسكي النفس   عاطر الارواح

وكسا الادواح وشيا مذهبا   يبهر الشمسا

عسجد قد حل من فوق الربا   يبهج النفسا

فاتخذ للهو فيه مركبا   تلحق الانسا

منبر الغصن عليه قد جلس   ساجع الادواح

حلل السندس خضرا قد لبس   عطفه المرتاح

قم ترى هذا الاصيل شاحبا   حسنه قد راق

ولاذيال الغصون ساحبا   فى حلى الاوراق

ونديم قال لى مخاطبا   قول ذى اشفاق

عادت الشمس بغرب تختلس | هات شمس الراح
ان أرانا الجو وجها قد عبس | أوقد المصباح
ووجوه الشّرب تغنى عن شموس | كلما تجلى
بلحاظ أسكرتنا عن كؤس | خمرها أحلى
مظهرات من خفايا فى النفوس | سورا تتلى
مازمان الانس الا مختلس | فاغتنم ياصاح
وعيون الشهب تذكي عن حرس | تخصم النصاح
ما ترى ثغر الوميض باسما | يظهر البشرا
وثناء الروض هب ناسما | عاطرا نشرا
بث من أزهاره دراهما | قائلا بشرى
ركب المولى مع الظهر الفرس | وسق وارتاح
بجنود الله دأبا يحترس | ان غدا أو راح
وجب الشكر علينا والهنا | بعضنا بعضاً
فزمان السعد وضاح السنى | وجهه الارضى
أثمرت فيه العوالى بالمنى | ثمر اغضا
يجتنى الاسلام منها ماغترس | سيفه السفاح
فى ضمير النقع منها قد هجس | شهب تلتاح
ياماما بالحسام المنقضى | نصر الحقا
ثغرك الوضاح مهما أومضا | أخجل البرقا
وديون السعد منه تقتضى | توسع الحقا
لك وجه من صباح مقتبس | بشره وضاح
وجميل الصفح منه ملتمس | منعم صفاح
ها كما تمزج لطفا بالنسيم | كلما هبا
قد أتت بالبر والصنع الجسيم | تشكر الربا

أخجلت من قال في الصبح الوسيم مغرما صـــبا
غرد الطير فنبـــه من نعس يامـــدير الراح
وتعرى الفجر عن ثوب الغلس وانجلى الاصباح

وله أيضاً

نواسم البســتان تنـثر سلك الزهـر
والطل في الاغصان ينظمـه بالجـوهر
وراحـة الاصـباح أضاء منها المشرق تنشرها الارواح
فلا تزال تخفق والزهـر زهر فاح لها عيون ترمق
فايقـظ النـدمان يبصرن مالم يبصر
جواهر الشبـان قد عرضت للمشترى
قـدحت لى زندا ياأيهاالبـــارق أذكرتنى عهـــدا
اذ الشـباب رائق فالشوق لايهـــدا ولا الفؤاد الخافق
وكيف بالسلوان والقلب رهن الفكر
وسحب الهجران تحجب وجـه القمر
لولاشموس الكاس يديرهابين البدور وأعرج الايـنــاس
منا على ربع الصدور لـكن لها وسواس يغرى بربات الخدور
كم واله هيمان بصبح وجـه مسفر
ضياؤه قدبان من تحت ليـل مقمر
يامطلـــع الانوار كم فيك من مرأى جميل ونزهة الابصــار
ماضر لوتشفى الغليل ياروضـة الازهـار وعرفهايبرى العليل
قضيبك الفتـان يســقى بدمع همـر
فلاعج الاشجان فيض الدموع يجرى
هل في الهوى ناصر أو هل يجار الهائم لو كان لى زائـــر
طيف الخيال الحائم مابت بالســاهر ودمع عيــنى ساجم

والحب ذو عدوان   يجهد فى ظلم البرى
وصارم الاجفان   مؤيد بالحور

رحماك فى صب   أذكرته عهد الصبا   بواعث الحب
قادت اليه الوصبا   لم تهف بالقلب   ريح الصبا الاهبا

بليلة الأردان   قد ضمخت بالعنبر
يشير غصن البان   منها بفضل المئزر

طيبها حمد   فخر الملوك المجتبى   من برجح الطود
من حلمه اذا احتبى   قد جرد السعد   منه حساماً مذهباً

فالباس والاحسان   والغوث للمستنصر
تحمله الركبان   تحية للمنبر

عصابة الكتاب   حق لها الفوز العظيم   تختال فى اثواب
حق لها الفخر الجسيم   فحسبها الاطناب   فى الحمد والشكر العميم

خليفة الرحمن   لا زلت سامى المظهر
يا مورد الظمآن   ورأس مال المعسر

خذها على دعوى   تزرى على الروض الوسيم   جاءت كما تهوى
أرق من لدن النسيم   قد طارحت شكوى   من قل فى الليل البهيم

ليل الهوى يقظان   والحب ترب السهر
والصبر لى خوان   والنوم من عينى برى

موشحة لابى حسن المرينى

فى نغمة العود والسلافة   والروض والنهر والنديم
أطال من لامنى خلافه   فظل فى نصحه مليم

(دور)

دعنى على منهج التصابى   ماقام لى العذر بالشباب

ولا تطل فى المنى عتابى　　فلست أصغى الى عتاب
لاترج ردى الى جواب　　والكاس تفتر عن حباب
والغصن يبدى لنا انعطافه　　اذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافه　　واختال فى برده الرقيم

(دور)

ياحبذا عهدى القديم　　ومن به همت مسعدى
ريم عن الوصل لايريم　　مولع بالتودد
ماتم الا به النعيم　　طوعا على رغم حسدى
معتدل القد ذو نحافه　　اسقمنى طرفه السقيم
ورام طرفى به انتصافه　　نخد فى خده الكليم

(دور)

غصن الصبا عاطر المقبل　　أحلى من الامن والامل
ظامى الحشا مفعم المخلخل　　حلو اللمى ساحر المقل
لكل من رامه توصل　　لم يخش ردا بما فعل
أشكو فيبدى لى اعترافه　　ان حاد عن نهجه القويم
لأعدم الدهر فيه رافه　　يحق لى فيه أن أهيم

(دور)

لله عصر لنا تقضى　　بالسد والمنبر البهيج
أرى ادكارى اليه فرضا　　وشوقه دائما يهيج
فكم خلعنا عليه غمضاً　　وللصبا مسرح أريج
ورد أطال المنى ارتشافه　　حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه　　وهكذا الدهر لايديم

(دور)

يا من يحث المطى غربا　　عرج على حضرة الملوك

وانثر بها ان سفحت غربا　　من مدمع عاطل سلوك
واسمع الى من أقلم صبا　　واحك صداه لا فض فوك
بلغ سلامي قصر الرصافه　　وذكره عهدي القديم
وحي عني دار الخلافة　　وقف بها وقفة الغريم

موشحة لابن الوكيل

غدا منادينا	محكما فينا	يقضي علينا الاسى	لولا تناسينا
	بحر الهوى يغرق	من فيه جهده عام	
	ونار تحرق	من هم او قد هام	
	وربما تقلق	فتى عليه نام	
قد غير الاجسام	وصير الايام	سوداً وكانت بكم	بيضاً ليالينا
	ياصاحب النجوى	قف واستمع مني	
	اياك أن تهوى	ان الهوى يضني	
	لا تقرب البلوى	اسمع وقل عني	
بحاره مره	خضنا على غره	حينا فقام بها	للنعي ناعينا
	من هام بالغيد	لاقى بهم هما	
	بذلت مجهودي	لأحور ألمى	
	بهم بالجود	ورد ما هما	
وعند ما قد جاد	بالوصل أو قد كاد	أضحى التنائي	بديلا من تدانينا
	بحق مابيني	وبينكم الا	
	أقررتم عيني	فتجمعوا الشملا	
	فالعين بالبين	بفقدكم أبلى	
جد بدما قد كان	بالاهل والاخوان	وموردا للهوصاف	من تصافينا
	ياجيرة بانت	عن مغرم صب	

لعهـــده خانت   من غير ماذنب
ماهكذا كانت   عوائـــد العـــرب
لاتحسبوا البعدا يغير العهـــدا   اذطالمـــا غير   النأى المحبينا
يانازلا بالبـــان   بالشـــفع والوتر
والنمل والفرقان   والليل اذا يسر
وسورة الرحمـن   والنحـل والحجر
هل حل فى الاديان   أن يقتل الظمآن   من كان صرف الهوى   والود يسقينا
ياسائل القـــطر   عرج على الوادى
من ساكنى بدر   وقف بهم نادى
عسى صبا تسرى   لمغـــرم صادى
ان شئت تحيينا   بلغ تحيينـــا   من لوعلى البعد حيا   كان يحيينا
وافت لنـــا أيام   كأنهـــا أعـــوام
وكان لى أعـــوام   كأنهـــا أيام
تمر كالاحـــلام   بالوصل لى لو دام
والكاس مترعه   حثت مشعشعه   فينـــا الشمول   وغنانا مغنينا

موشحة للشيخ محيي الدين

سرائر الاعيان   لاحت على الاكوان   للناظـــرين
والعاشق الغيران   من ذاك فى حران   يبـــدى الانين

دور

يقول والوجـــد   أضناه والبعـــد   قد حـــيره
لما دنا البعـــد   لم أدر من بعد   من غـــيره
وهـــيم العبـــد   والواحد الفرد   قد خـــيره
فى البوح والكتمان   والسر والاعلان   فى العـــالمين
أماهـــو الديان   يا عابد الاوثان   أنت الضنين

(دور)

كل الهوى صعب	على الذى يشكو	ذل الحجاب
يا من له قلب	لو أنه يذكو	عند الشباب
قد قرب الرب	لكنه أفك	فانو المتاب
وناد يارحمن	يارب يامنان	انى حزين
أضنانى الهجران	ولا حبيب دان	ولا معين

دور

فنسيت بالله	عما تراه العين	من كونه
فى موقف الجاه	وصحت أين الاين	فى بينه
فقال يا ساهى	عاينت قط عين	بعينه
أما ترى عيلان	وقيس أومن كان	فى الغابرين
قالوا ابالهوى سلطان	ان حل بالانسان	أفناه دين

دور

كم مرة قالا	أنا الذى أهوى	من هو أنا
فلا أرى حالا	ولا أرى شكوى	الا الفنا
لست كمن مالا	عن الذى يهوى	بعد الجنا
ودان بالسلوان	هذاهو البهتان	للعارفين
سلوهم ما كان	عن حضرة الرحمن	والآفكين

دور

دخلت فى بستان	الانس والقرب	كمكنسة
فقام لى الريحان	يختال بالعجب	فى سندسه
أنا هو الانسان	مطيب الصب	فى مجلسه
ياجنان ياجنان	اجن من البستان	الياسمين
وحلل الريحان	بحرمة الرحمن	للعاشقين

موشحة لاحد الشعراء

فتق المسك بكافور الصباح   ووشت بالروض اعراف الرياح
فاسقنيها قبل نور الفلق   وغناء الورق بين الورق   كاحمرار الشمس عند الشفق
نسج المزج عليها حين لاح   فلك اللهو وشمس الاصطباح
وغزال سامني بالملق   وبرا جسمي واذكي حرقي   اهيف مذ سل سيف الحدق
قصرت عنه أنابيب الرماح   وثنى الذعر مشاهير الصفاح
صار بالذل فؤادى كلفا   وجفون ساحرات وطفا   كلما قلت جوى الحب انطفا
أمرض القلب بأجفان صحاح   وسبى العقل بجد ومزاح
يوسفى الحسن عذب المبتسم   قمرى الوجه ليلى اللمم   عنترى الباس علوى الهمم
غصنى القد مهضوم الوشاح   مادرى الوصل صابى السماح
قد بالقد فؤادى هيفا   وسبا عقلى لما انعطفا   ليته بالوصل أحيا دنفا
مستطار العقل مقصوص الجناح   ما عليه فى هواه من جناح
ياعلى أنت نور المقل   جد بوصل منك لى ياأملى   كم أغنيك اذا مالحت لى
طرقت والليل ممدود الجناح   مرحباً بالشمس من غير صباح

موشحة لابن التلمسانى

قمر يجلو دجى الغلس   بهر الابصار مذ ظهرا
آمن من شينة الكلف
ذبت من حبيه بالكلف
لم يزل يسعى الى تلفى
بركاب الدل والصلف
آه لولا أعين الحرس   نلت منه الوصل مقتدرا

يا أميرا جار مذ وليا
كيف لا ترثى لمن بليا
فبثغر منك قد جليا
قد حلا طعما وقد حليا
وبما أوتيت من كيس جد فما أبقيت مصطبرا

بدر تم فى الجمال سنى
ولهذا لقبوه سنى
قد سبانى لذة الوسن
بمحيا باهر حسن
هو خشفى وهو مفترسى فاروعن أعجوبتى خبرا

لك خد يا أبا الفرج
زين بالتوريد والضرج
وحديث عاطر الارج
كم سبى قلبا بلا حرج
لو رآك الغصن لم يمس أو رآك البدر لاستترا

يا مذيبا مهجتى كمدا
فقت فى الحسن البدور مدى
يا كحيلا كحله اعتمدا
عجبا أن تبرى الرمدا
وبسقم الناظرين كسى جفنك السحار وانكسرا

موشحة عارض بها أبو حيان موشحة ابن التلمسانى

عاذلى فى الاهيف الآنس لو رآه الآن قد عذرا

رشأ قد زانه الحور
غصن من فوقه قمر
قمر من سحبه الشعر
ثغر من فيه أم درر
جال بين الدر واللعس   خمرة من ذاقها سكرا
رجة بالردف أم كسل
ريقة بالثغر أم عسل
وردة بالخد أم خجل
كحل بالعين أم كحل
يالها من أعين نعس   جلبت لناظرى سهرا
مذ نأى عن مقلتى سنى
ما أذيقا لذة الوسن
طال ما ألقاه من شجن
عجباً ضدان فى بدن
بفؤادى جذوة القبس   وبعينى الماء منفجراً
قد أتانى الله بالفرج
اذ دنا منى أبو الفرج
قمر قد حل فى المهج
كيف لا يخشى من الوهج
غيره لو صابه نفسى   ظنه من حره شررا
نصب العينين لى شركا
فاتنى والقلب قد ملكا
قمر أضحى له فلكا
قال لى يوما وقد ضحكا
أتجى من أرض أندلس   نحو مصر تعشق القمرا

موشحة لابن اللبانة الاندلسى

فى نرجس الأحداق وسوسن الاجياد نبت الهوى مغروس بين القنا المياد
وفى نقا الكافور والمندل الرطب
والهودج المرزور بالوشى والعصب
قضب من البللور حمين بالقضب
نادى بها المهجور من شدة الحب
أذابت الاشواق روحى على أجساد أعارها الطاوس من ريشه ابراد
كواعب أتراب تشابهت قدًّا
عضت على العناب بالبرد الاندا
أوصت بى الاوصاب وأغرت الوجدا
وأكثر الاحباب أعدى من الاعدا
تفتر عن أعلاق لآلئ أفراد فيه اللمى محروس بألسن الاغماد
من جوهر الذكرى عطل نحور الحور
وقلد الدرا سلالة المنصور
جاوز به البحرا واخرق حجاب النور
وقل له شعرا بفضلك المشهور
جمعت فى الآفاق مناقد الاضداد فأنت ليث الخيس وأنت بدر الناد
خرجت محتالا أبغى سنا البرق
أقطع أميالا غربا الى شرق
مؤملا حالا يكون من وفق
فقال من قالا وفاه بالصدق
دع قطعك الآفاق يا أيها المرتاد واقصد الى باديس خير بنى حماد
يامن رجا الطلا وأمل التعريس

ان شئت أن تحلى بطائل التأنيس
لاتعتمد الا على علا باديس
من فوقه أعلا قدراً من البرجيس
مواطن الارزاق أولئك الامجاد فاحطط رحال العيس وانفض بقاء الزاد

موشحة لابي حيان الغرناطي

أن كان ليل داج وخاننا الاصباح فنورها الوهاج يغني عن المصباح
سلافة تبـدو كالـكوكب الازهر
مزاجها شـهد وعرفهـا عنبر
ياحبـذا الورد منهـا وان أسكر
قلبي بها قد هاج فما يراني صاح عن ذلك المنهاج وعن هوى ياصاح
وبي رشا أهيف قد لج في بعدي
بدر فلا يخسف منه سنا الخد
بلحظه المرهف يسطو على الاسد
كسطوة الحجاج في الناس والسفاح فما ترى من ناج من لحظه السفاح
علـل بالمسك قلب رشا أحور
منعم المسـك ذي مبسم أعطر
رياه كالمسـك وريقه سـكر
غصن على رجراج طاعت له الارواح فحبـذا الاراج ان هبت الارواح
مهلا أبا القاسم على أبي حيان
ما ان له عاصم من لحظك الفتان
وهجرك الدائم قد طال بالهيمان
فدمعه أمواج وسره قد لاح لكنه ماعاج ولا أطاع اللاح
يارب ذي بهتان يعـذل في الراح
وفي هوى الغزلان دافعت بالراح

وقلت لاسلوان عن ذاك يالاح
سبع الوجوه والتاج هي منية الافراح فاختر لي يازجاج قمعال وزوج أقداح

موشحة صفي الدين الحلي

شق جيب الليل عن نحر الصباح أيها الساقون
وبدا للطل في جيد الاقاح لؤلؤ مكنون
ودعانا للذيذ الاصطباح طائل ميمون
فاخضب المبزل من نحر الدنان بدم الزرجون
تتلقى دمها حور الجنان في صحاف جون
فاسقنيها قهوة تكسو الكؤوس بسنا الانوار
وتميت العقل اذ تحيي النفوس راحة الاسرار
بنت كرم عتقت عند المجوس في بيوت النار
غرست كرمتها بين القيان يد افلاطون
وبماء الصرح قد كان يطان دنها المخزون
أخبرتنا عن بني العصر القديم خبرا مأثور
وروت يوم مناجاة الكليم كيف دك الطور
ولماذا اتخذت أهل الرقيم كهفها المذكور
ونداء يونس عند الامتحان بالتقام النون
وبنا نوح غداة الطوفان فلكه المشحون
مذ جلا شمس الضحى بدر التمام في الليالي السود
وغدا يصبغ أذيال الظلام بدم العنقود
قلت يابشرا كم هذا غلام وفتاة رود
مزجا الكاس وقاما بسقيان في حمى جيرون
فبذلنا في القناني والقيان ماحوى قارون
نال فعل الخمر من ذات الخمار عند شرب الراح

فغدت تستر من فرط الخمار وجهها الوضاح
خلتها اذلم تدع بالاختمار غير صلت لاح
قمرا تم لسبع وثمان في الليالى الجون
قدرته الشمس في حال القران فهو كالعرجون
افعم الزامر بالنفخ المدار نابه المخصور
فغدا وهو لاموات الخمار مثل نفخ الصور
أو كما عاش الورى بعد البوار بندى المنصور
ملك هذب أخلاق الزمان عدله المسنون
وأعاد الناس في ظل الامان عضبه المسنون
ملك انجد طلاب الندى غاية الأنجاد
متلف ان جال آجال العدى واللهى ان جاد
من بني ارتق اعلام الهدى سادة انجاد
مهد الارضين بالعدل فكان أمنها مضمون
ذيبها والشاة ترعى في مكان غدره مأمون
باذل الاموال من قبل السوال بأكف الجود
مارجاه آمل الا ونال غاية المقصود
فاذا ما أمه راجى النوال جاد بالموجود
يهب الولدان والحور الحسان بكرها والعون
وسواه ان دعاه ذو لسان يمنع الماعون
يامليكا لبنى الدهر ملك فشرى الاحرار
ملك أنت عظيم أم ملك ساطع الانوار
بالذى تختاره دار الفلك وجرى المقدار
مذ رأى بأسك سلطان الاوان وهو كالمحزون
حاول النصر كموسى فاستعان بك ياهارون

وقد شاع فن التوشيح حتى أصبح من بدع الشعر والبلاغة . وانتشر فى جميع المجالس على ألسنة الخاصة والعامة ، ثم أمعن الشعراء فى هذا النوع حتى تسربت فيه اللغة العامية ، ودبت فى جسمه دبيباً ، وغلبته على عربيته الفصحى وحتى خفيت معالم اللغة أو كادت ، وغلب ذلك على الشعر ، وسموا هذا النوع الجديد «زجلا» . ونسج العامة على منواله واشتهر بقوله كثير من الشعراء . ذكر جملة منهم ابن خلدون فى مقدمته .

وقد اكتفينا بالاشارة الى هذا الشعر العامى وان كان جديراً بالعناية ، لاحتوائه على صور النفوس العامة وبعض الاراء الاجتماعية . وأرجأنا تفصيل الكلام فيه لفرصة أخرى

تم

فهرس كتاب بلاغة العرب فى الاندلس

صفحة

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	هامش ١	احتلال	الحلال
١١	« ١٢	ابراهيم بن آدم	ابراهيم بن ارزاحيل
١١	« ١٣	جابر بن المح	جابر بن أفلح
١٢	« ٦	يحى بن يقظان	حي بن يقظان
١٤	٣	ذلك هذه	ذلك
٣٨	٩	بياز	بباز
٤١	١٩	ظارقا	طارقا
٥٥	١	اذا تطلب	اذا تطلبت
٥٩	١٢	فى النقد الادبى هذا الطريق	فى النقد الادبى من سلك هذا الطريق
٦٢	٢٠	والحاسديه	وحاسديه
٦٥	١٤	ويترفع	ويرتفع
٦٧	١١	استطيع	اسطيع
٦٧	١١	حفظا	حظا
٦٨	١	يعمص	يمعض
٦٨	٢	لستحكم	لمستحكم
٧٠	١١	لا تختص	لا تختصى
٧١	٤	فيه معنى	فيه على معنى
٧٢	١٢	أدية شاعرة	أدبية شاعرة
٧٥	٩	الصلة النفيسة	الصلة النفسية
٧٧	١	كأن أعينه اذا	كأن أعينه اذ
٧٧	٦	لاسكن	لا أسكن
٧٧	٨	جربنا فيها	جربنا فيه
٨٣	١٤	اللألىء	اللائى
٨٥	٧	مع اليل	مع الليل
٩٦	١٣	وفى العهد	وفى المهد
٩٦	١٦	تخباة	تحياة
٩٦	١٧	عصيب	عصيت
١٠١	هامش ٢٠	فأغروا صدره	فأوغروا صدره
١٠٣	١٣	اما مجونه فلم يخرج فيها	أما مجونه فلم يخرج فيه
١١٣	٧	وكأنما كان شعره صفحة	وكأنما كان شعره صحيفة
١٢٣	٧	وضجرة خلقاء	وصخرة خلقاء
١٢٣	٩	تعى	تعيا
١٢٦	٢١	نحن نحيمد	نحن نحميد
١٣٠	١٧	يرى ويكفر	يرى ويفكر
١٣١	٢٣	شاعراً نقيسا	شاعرا نفسيا
١٢٥	١٦	لازرايا	للرزايا
١٣٥	١٧	فسرت أعيا	فصرت أعيا
١٣٩	٢	له مآرب	له من مآرب
١٤٠	٧	ضربة لازب	ضربة لازب

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٤١	٧	ويصف الصيد الليل	ويصف الصيد والليل
١٤٤	١٩	واستوجت	واستوجبت
١٥٥	١٠	والله المعتبد له	والله المتعبد له
١٥٧	٧	تحتوى كثيرا	تحتوى على كثير
١٥٨	١٥	بثناه	بسناه
١٦٤	١٤	والكرام عماب	والكرام عياب
١٦٧	٩	قد همت	قد هممت
١٧١	٢	انهالك انهاك	انهاك انهاك
١٧١	٢١	من للأسنة يبيدها	من للأسنة يهديها
١٧٤	هامش٢	انسبنا ذلك	أنسينا ذلك
١٧٤	« ٥	فقد مات فى سنة ٢٣٦	فقد مات فى سنة ٣٦٢
١٧٤	« ٦	فى نحو ٦٢٣	فى نحو ٣٢٦
١٨٠	٧	حتى تر	حتى ترى
١٨٤	٦	وستمنى	وسمتنى
١٨٦	٢	وكل قبس	وكل قس
١٩٢	٢١	المتشعبين	المتشيعين
١٩٥	٢	الالوان وتنا-ق	للألوان وتناسقها
١٩٥	٥	والفظ بليغة	والفاظا بليغة
٢٠٩	١١	ادير الراح	اديرا الراح
٢٢٦	هامش٢	فوات الوفيات	وفى فوات الوفيات
٢٣١	١٧	والاخلية	والاخيلة
٢٣١	١٩	ولاعامية بحة	ولا عامية بحتة
٢٣٢	١٣	من الا-م الاخرى	من الامم الاخرى
٢٣٣	٩	مع الحدق النحل	مع الحدق النجل
٢٣٣	١١	فهذا الموسح	فهذا الموشح
٢٣٦	١٩	يا عين الغزلان	يا عين الغزلان
٢٣٦	٢٠	الانبياط	الانباط
٢٣٧	١٤	يستبشى	يسبي
٢٣٨	١٠	فا جعل	فما جعل
٢٤٢	٥	ضاحك على جمان	ضاحك عن جمان
٢٤٨	٢	يدى من الوهم	يدمى من الوهم
٢٤٩	٢٣	تاهت عل البدر	تاهت على البدر
٢٥٩	٤	كلما اغربت	كلما اغربت
٢٦٠	١٥	رحة الارواح	راحة الارواح
٢٦٥	٢٢	جديد ما قد كان	جدد لنا ما كان
٢٦٦	١١	ان شئت تحيينا	ان شئت تحيينا
٢٧٠	١٥	حذوة القبس	جذوة القبس
٢٧١	١٧	مناقد الاضداد	مناقب الاضداد